عبد الوهاب مطاوع

الثمرة المُرَّة



الدار المصرية اللبنانية

الثمرة المرّة

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 5242 / 1999
الترقيم الدولى : 7 - 508 - 270 - 977

الطبعة الرابعة : جمادى الثانى 1424هـ - أغسطس 2003م
الطبعة الخامسة : جمادى الأولى 1429هـ - يونيو 2008م
تصميم الغلاف والرسوم الداخلية : محمد فايد

عبد الوهاب مطاوع

الثمرة المرة

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

صدق الله العظيم

(الآية ١٢٤ / سورة النساء)

المقدمـــة

أعجبتنى هذه الكلمات التى قرأتها فى سياق حوار مثير للتأمل فى قصة أمريكية قصيرة :

« قال الرجل الذى يبلغ من العمر ٤٥ عامًا ويعيش وحيداً بعد أن هجرته زوجته ورحلت مع صديق لها للطبيب النفسى الذى يعالجه :

ـ اننى أتألم . . أتذكر لسعة الغدر والخيانة فأبكى ، أتذكر وحشة الليل ووحدتى فيه فأبكى ، أخاف من الظلام وأشعر فيه بالضعف والملل والهوان ، أستعيد الذكريات الجميلة فأتذكر أنها قد انقضت إلى غير رجعة ولن تعود مرة أخرى ، فيزداد حزنى وألمى ، أريد أن أتخلص من هذا الألم وأرجع إلى حياتى السابقة .

فيقول له الطبيب فى هدوء :

ـ ليس من المفيد لك أن « تبتسر » هذا الألم على الفور وتتخلص منه قبل أن يستكمل دورته الطبيعية ويزول تدريجيا مع الأيام ، بل إنك فى حاجة الآن لأن تقبل به كحقيقة من حقائق الحياة كما تقبل بغيره منها .

ـ أنا احتاج إلى الألم ؟ ! إننى لا احتاج إليه وإنما إلى البرء منه لأعيش حياتى وأواصل الطريق .

فيقول الطبيب لمريضه : لا أحد منا يحتاج إلى الألم بالمعنى الحرفى للعبارة ، لكننا حين يصادفنا من أحداث الحياة ما يدعونا إلى التألم له ، لابد لنا أن نتألم ، وأن نقبل بهذا الألم ونتوافق معه إلى أن يرحل عنا بسلام، ولو لم نفعل ذلك لحقَّ لنا أن نشعر بالقلق على سلامة مشاعرنا وأجهزة استقبالنا ، وقوانا العقلية ، فالعقلاء والمتزنون نفسيا هم وحدهم الذين يتألمون لما يستحق أن يتألموا له ، والمضطربون عقليًا أو نفسيًا هم وحدهم الذين لا يتألمون لأحداث الحياة المحزنة ولا يحزنون فى مواضع الحزن ولا يفرحون فى المناسبات المبهجة ، لهذا فأنا أدعوك إلى أن تقبل بهذا الألم وتصبر عليه حتى تنقضى فترة حضانته الطبيعية لديك ثم يزول ببطء ويتلاشى كما تزول آلام جراح الجسد تدريجيا مع اضطراد الشفاء .

وكلما كانت إرادتنا قوية فى التجاوز عن الآلام والأحزان وساعدنا أنفسنا على تقبلها وفهمها كلما تسارعت خطواتنا على طريق النجاة منها ! » .

هذا هو الحوار الذى توقفت أمامه واستعدت وأنا أقرأه ما سبق أن قرأته من قبل عن . . « حكمة الألم » فى حياة الإنسان ، وكيف أننا لا نعرف غالباً قيمة الأشياء إلا بأضدادها ، فلا نعرف قيمة السعادة إلا

قياسًا على نقيضها من التعاسة ، ولا نعرف معنى الصحة إلا حين نمرض ، ولا قيمة الوفاء إلا حين نصطدم بالغدر ، ولا أهمية الصداقة المخلصة إلا حين يجابهنا العداء . . وهكذا .

. . نعم لا أحد فينا يحتاج إلى الألم لكننا لا نعرف قيمة الأشياء غالبا للأسف إلا حين نتعامل مع أضدادها .

وفى هذا الكتاب قصص بعض البشر ممن عرفوا الألم وبثوا إلىّ شكواهم منه ، وحاولت قدر جهدى المحدود إرشادهم إلى طريق النجاة . . ولم أنكر خلال محاولتى لذلك أن الألم حقيقة إنسانية من حقائق الحياة لا سبيل أمامنا لانكارها أو رفضها ، وأن قصارى ما نستطيع أن نفعله هو أن ندرب أنفسنا على القبول به ، ومحاولة ترويضه وسجنه فى قفص حديدى صغير من الصبر والفهم والتجمّل إلى أن ينصرف عنا بسلام ونستعيد عافيتنا منه !

عبد الوهاب مطاوع



الثمرة المـرة

ترددت كثيرا فى الكتابة إليك ، ثم استجمعت قواى أخيرا لأزيح عن كاهلى ما لا أطيقه ، فأنا سيدة تزوجت منذ أكثر من ثلاثين سنة، من زميل لى فى الدراسة باحدى الكليات الجامعية ، وكافحنا معا حتى بلغ كل منا درجة عالية فى شركته . وخلال السنوات الأولى من زواجنا ، اكتشفت عدم قدرة زوجى على الإنجاب وأنه لا أمل له فيه ، وفكرت وقتها فى الطلاق ، لكننى انتهيت فيما بينى وبين نفسى إلى رفض الفكرة ورضيت بأقدارى وتواءمت مع حياتى ، وبعد ١٥ عاما من زواجنا ، فكرت فى أن أملأ فراغ حياتى بتربية طفلة من بنات أحد اخوتى ، وعرضت على أخى ذلك فلم يعارض فيه ربما تقديرا لظروفى ، وربما أملا فى أن تحظى هذه الطفلة فى بيتى بفرصة أفضل فى الحياة لأنه مثقل بالأبناء والأعباء ، وأنا وزوجى وحيدان ، وبالفعل جاءت الطفلة إلى بيتنا وعمرها ٤ سنوات ، وملأت فراغ حياتنا بالفعل . . وأشعلت بيتنا حركة وصخبا وضجيجا . . وعرفنا مع مجيئها مشغوليات وهموما جديـدة

جميلة، كهموم الرعاية الصحية ومواعيد الأمصال الواقية من الأمراض .. الخ .

وأغرقنا هذه الطفلة الصغيرة بحبنا واهتمامنا أنا وزوجي ، ولبينا لها كل احتياجاتها من ملابس ولعب ونزهات ، ثم التحقت بالمدرسة فعرفنا مشاغل أخرى جديدة هى مشاغل المتابعة اليومية لدروسها ، وواجباتها المدرسية .. وامتحاناتها الخ ، وحصلت على الشهادة الابتدائية بتفوق والتحقت بالمدرسة الاعدادية ، وواصلت تفوقها حتى السنة الثالثة من هذه المرحلة ، ثم بدأت المتاعب من ناحيتها لأول مرة ، فلقد أسرف زوجى فى تدليلها والاستجابة لكل مطالبها على خلاف رغبتى فى ذلك ، فبدأت الابنة « تشعر » بنفسها شعورا مغالى فيه ، وبدأت تتعامل مع مدرسيها بتعال وعدم احترام ، كما راحت تتباهى أمام زميلاتها بالمدرسة بأن كل ملابسها مستوردة من الخارج وغالية الثمن الخ .. ثم بدأت تطلب دروساً خصوصية فى كثير من المواد الدراسية ، حتى انتهى بنا الحال إلى احضار مدرسين لها فى كل المواد ، ناهيك عن مطالبها المستمرة من النقود للرحلات والنزهة مع الصديقات ، وزوجى لا يعترض ولا يراجع ، وإنما يستجيب على طول الخط ، ويخفى عنى ما يستطيع اخفاءه من مشاكل البنت فى المدرسة، لكيلا أجدد اعتراضى على تدليله لها وضعفه معها .

وخلال هذه السنوات كانت ابنة أخى تذهب إلى بيت أسرتها فى نهاية الأسبوع لقضاء يومى الخميس والجمعة مع أبويها واخوتها ، فكانت

تحظى بالحب والحنان من الأسرتين، ثم ظهرت نتيجة الشهادة الاعدادية فإذا بها تحصل على مجموع ضعيف يلحقها بصعوبة بالتعليم الثانوى . . وهنا قررت أن أرجع الفتاة إلى أبويها ، لكى يعيدا تقويمها ويعرفاها بأخطائها خاصة أننى كنت قد لاحظت أنها تأخذ نصائحى لها بلا مبالاة، وأنها لا تتعامل باحترام مع من هم أكبر سنا سواء من مدرسيها أو من الأقارب، ورجعت الفتاة لأسرتها ، فلم يتصل بى أخى ليستفهم عن أسباب اعادتها أو دوافعى لذلك ، وإنما اعتبر إرجاعها عملا عدائيا من ناحيتى .

أما زوجى فقد اكتأب لذلك كثيرا وراح يقضى معظم أوقاته وحيدا فى غرفته ولا يتكلم معى كما أصبح حاد المزاج وعصبيا للغاية ، وبعد فترة قصيرة بدأ يتوسل إلى لإعادة الفتاة إلى بيتنا ، وأنا أرفض ذلك باصرار ، فوسط لدّى شقيقى الأكبر لارجاعها خوفا على مستقبلها ، فقبلت ذلك مضطرة وبشرط أن تستذكر دروسها وتلتزم ، ورجعت الفتاة إلى بيتنا مرة أخرى وألحقت بالصف الثانوى الأول والتزمت بالفعل بكل ما طلبته منها من سلوكيات صحيحة . . واستذكار لدروسها ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا ، فلقد رجعت مرة أخرى إلى عجرفتها وعاداتها ، وتطاولت على إحدى صديقاتى حين جاءت لزيارتى فى البيت خلال غيابى عنه ، وواجهتها بتصرفاتها هذه فثارت ولم تقبل اللوم ، واتصلت بأبيها ثائرة ليحضر ويصطحبها إلى بيته ، وجاء أبوها واصطحبها بالفعل غاضبا منى ، وعازفا عن أى كلام معى . .

وعشت مع زوجى وحيدين لمدة عام آخر . . كان من أصعب فترات حياتى ، فلقد كان زوجى دائم الغضب منى لسبب ولغير سبب ولم يكن يطيق البقاء بالبيت أو محادثتى وعانيت خلال هذا العام من الذل والهوان مع زوجى ما عانيت ، وتحملت ذلك على أمل أن تكون فترة مؤقتة فى حياتنا وتنتهى ، لكن الأمور ازدادت قسوة وصعوبة ، وراح زوجى يلح على فى عودة الفتاة الينا ويسوق إلى اخوته واخوتى ليؤيدوا مطلبه ، فوافقت فى النهاية تحت ضغط الحاحهم جميعا على عودتها ، لسببين الأول أن تتحسن الحالة النفسية السيئة لزوجى ، والثانى هو أن تعوض الفتاة ما فاتها من الدراسة وتحول فشلها إلى نجاح ، لأن الكل أجمعوا على أنها قد فشلت فى دراستها ذلك العام بسبب توقف متابعتنا ورعايتنا لها .

كما أننى من ناحية أخرى كنت قد أملت أن تكون الفتاة قد استوعبت الدرس ، واستفادت من أخطائها . . ففوجئت بها ترجع إلينا « قوية » وليست الانسانة الضعيفة التى تحتاج إلينا وإلى رعايتنا لها كما كنت أتوهم، وفوجئت بها تتعامل معى بتعال وعجرفة ، فلم أطق تصرفاتها ولا سوء أدبها معى ، أما زوجى فقد أصبح فى قمة السعادة ، وارتفعت معنوياته للسماء ودب فيه الحماس والنشاط من جديد ، وأصبحت أسمع ضحكاته العالية وهو يتحدث إليها ، وكلما اعترضت على تصرف من تصرفاتها قالت لى الفتاة فى غرور إنها قد استأذنت « بابا » فيه وأذن به ، تقصد زوجى بذلك . .

وفى إحدى المرات رقدت فى فراشى أشكو من ارتفاع درجة الحرارة . .

فإذا بى أسمع ضحكاتها عالية فى الصالة ، وكأن شيئا لم يكن ، ثم جاءتنى الفتاة واضعة يديها فى وسطها لتقول لى ببرود ، إن « بابا » يسأل إذا كنت فى حاجة إلى طبيب أو لا ؟ فأجبتها بالنفى ، وأنا أغلى من الضيق والكمد ، وبعد انتهاء هذه الوعكة الصحية صممت على طردها من بيتى واتصلت بوالدها ليحضر لتسلمها وجاء غاضبا ، وجمع ملابسها . . ثم فوجئت به يقول لى متحديا ، إننى إذا كنت أظن أننى بطردها من بيتى سوف أدفع زوجى لأن يتخلى عنها فأنا مخطئة فى ذلك ، لأن زوجى يتكفل بكل طلبات ابنته سواء أكانت مقيمة معنا أم فى بيته ، ثم صفق الباب بشدة وخرج . .

وتأكدت مما كنت أسمع من قبل وهو أن زوجى فى فترات إعادتى لهذه الفتاة لأسرتها لم يكن يتوقف عن رعايتها والاهتمام بأمرها والتكفل بكل مطالبها المادية . . وأنه كان يصطحبها بسيارته فى الصباح إلى مدرستها ويعيدها منها . . ويصطحبها إلى الدروس الخصوصية . . . الخ .

وواجهت زوجى بما قاله أخى وطلبت تفسيرا له فلم يجب بشىء والتزم الصمت التام، فطالبته بأن يتوقف عن الانفاق على هذه الفتاة فى بيت أبيها ، فخرج عن صمته ورفض مطلبى ، ودبت الخلافات بيننا حول هذا الموضوع وتفاقمت حتى بلغ بنا الحال أن هجر زوجى البيت تاركا وراءه ملابسه وكل أشيائه ليقيم وحيدا بشقة قريبة له مسافرة للخارج، ويصارحنى ويصارح كل من تدخلوا بيننا بأنه لن

يرجع إلى البيت مرة أخرى إلا إذا عادت إبنة أخى إليه ، ومؤكدا أنه سوف يستمر فى الالتزام بكل مطالبها سواء رجع إلى البيت أم لم يرجع !

ورفضت هذا الشرط باصرار ، فكانت النتيجة أن مضى عامان حتى الآن ونحن على هذا الحال . . وزوجى يهجر البيت ، وأنا أقيم وحيدة فى مسكنى . ثم يئست من الاصلاح فبدأت أفكر فى طلب الطلاق من زوجى ، وعبرت عن رغبتى فيه لأحد الأصدقاء الذين يتوسطون بيننا ، فطلب زوجى أن أتنازل له عن حقوقى المادية لديه ، وأن يسترجع بعض المنقولات الخاصة به من شقة الزوجية ، أما الشقة نفسها فإن عقدها باسمى وليست هناك مشكلة فى استمرارى بها .

ومازال الحال بيننا على ما هو عليه . . وزوجى بصفة شبه دائمة فى بيت أخى ، ويقوم بتوصيل الفتاة إلى معهدها الذى التحقت به ويتحمل تكاليف حياتها ودراستها ، وفى كل يوم يأتى إلى من يقول لى إنه شاهدهما هنا أوهناك فاستشيط غضبا وغيظا وألما ، وأذهب إلى عملى وعلى وجهى قناع الابتسامة الزائفة وقلبى يكتوى بالنار وأنا أتذكر السنوات الطويلة التى عشتها مع زوجى ، وكم ضحيت من أجله ، وأتذكر هذه الفتاة التى ربيتها منذ كان عمرها أربع سنوات فهانت عليها وعلى زوجى العشرة وكل شىء . .

إننى حائرة فى أمرى . . أريد الطلاق من زوجى خوفا من أن يواتينى الأجل فيأخذ هو وإبنة أخى الشقة باعتبارهما كانا يعيشان فيها ويحصلان على الأثاث وكل شىء ، فأظلم فى حياتى وأظلم فى مماتى كذلك ، كما

أنه من الممكن أن يتزوجا فى هذه الشقة ، رغم فارق السن الكبير بينهما ، إذ إن زوجى يوشك على بلوغ الستين و إبنة أخى لم تتجاوز العشرين من عمرها . . فهل توافقنى على ذلك . . أم هل ترى أن أحيا ما بقى لى من العمر على ذمة زوجى كما أفكر فى ذلك أحيانا فأعيش كاظمة غيظى وناعية حظى فى الحياة ، ومن حين لآخر يأتينى من يزيد أحزانى ، بحديثه عن رؤيته لزوجى وللفتاة فى أى مكان ؟

لقد أبلغنى أحدهم منذ فترة قصيرة بأنه قد الحقها بالتدريب فى الشركة التى يعمل بها فلم أطق صبرا على ذلك واتصلت به متوعدة إن لم يخرجها من مكان عمله لاتصلن برئيس الشركة شاكية إليه أمره ، فخشى ذلك بالفعل وأمرها بعدم الحضور للشركة ، لكن من يدرينى أنها لم تعد للتدريب بها بعد فترة هدوء قصيرة ؟

أننى أعانى من التفكير فى ذلك كثيرا ، ومن هذا الوضع المؤلم الذى انتهت إليه حياتنا ، فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نحن نغرس بذور الحب والعطاء فى أرض الأبناء ، فمنهم من تثمر شجرته ثمارها الطيبة . . ومنهم من لا تثمر شجرته إلا الثمار المرة لخطأ فى الرعاية أو خدمة الأرض وتهيئتها . . أو لأسباب خارجية أخرى لا سلطان لنا عليها . . وما ينطبق على الأبناء الطبيعيين ينطبق كذلك على غيرهم ممن يرعاهم الانسان ويخصهم برعايته وعطائه ، ولاشك أن أسبابا

عديدة قد تراكمت فأدت إلى فساد هذه الطفلة التى ربيتماها صغيرة ، أولها هذا التدليل الزائد لها . . والاستجابة لكل رغباتها مما أثر سلبيا على أخلاقياتها وسلوكها فى المستقبل ، ولهذا فإن ما تعانينه الآن من مرارة هذه الثمرة لا يرجع إلى خطأ الفكرة فى حد ذاتها ، أقصد فكرة رعاية طفلة صغيرة تؤنس وحدتكما وتجدد تمسككما بالحياة، وإنما إلى الأسلوب الخاطىء الذى اتبعتماه فى تنشئتها وتربيتها ، وهو أسلوب التدليل الزائد والعطاء الغامر لها والاستجابة المطلقة لكل رغائبها . .

وحين حاولت أنت تدارك الأمر ، كان الوقت قد فات وتشكلت سمات شخصيتها وتكوينها النفسى ، وكانت أيضا قد استنامت إلى الحماية النفسية الزائدة التى يقدمها لها الأب البديل وتأكدت من سلطانها عليه ، فقاومت محاولاتك . . وتمادت فى الغرور والأنانية .

ولأن كثيرا من متاعب الانسان قد تنجم أحيانا عن عدم فهمه هونفسه لحقيقة بعض مشاعره ودوافعه ، أو عن رفضه الاعتراف لنفسه بهذه الدوافع ومحاولة إنكارها ، واستخدام حيلة كبت الأفكار ورفض الإقرار بها لصعوبة احتماله لها . . أو خجلا منها ، فلابد من الاقرار بأنك حين تحركت يا سيدتى لاصلاح سلوك هذه الطفلة وأخذها ببعض الشدة، وقمت باعادتها لأبويها فى المرة الأولى ، لم تكن دوافعك لذلك «تربوية» خالصة . . وإنما كانت تخالطها كذلك دوافع أنثوية غريزية لزوجة بدأت تستشعر الغيرة الانسانية المفهومة من حب زوجها الغامر

لهذه الطفلة وتدليله لها ، ومن مكانتها الأثيرة لديه التى بدت للزوجة أكبر مما ينبغى أن تكون حتى ولو كانت الطفلة موضع حب الزوجين واهتمامهما معا . .

والزوجة ترغب دائما فى أن تكون هى محور الاهتمام الأول لزوجها ومن بعدها يأتى الجميع ولو كانوا أبناءها . . ، فإذا استشعرت تراجع مكانتها بعض لشىء لدى زوجها وتقدم آخرين عليها فى سلم الأولوية لديه حتى ولو كان أحد أبنائه منها ، لم تنج من بعض مشاعر الغيرة الانسانية من هذا الابن ، فما بالنا حين تكون من تقدمت عليها ربيبة للزوجين لم تساعدها ظروف تنشئتها ولا طبيعتها الأنانية ، ولا صغر سنها ، على أن تحسن احترام مشاعر أمها البديلة وتتفادى بعض حساسياتها !

لقد دبت الغيرة فى نفسك تجاه هذه الفتاة منذ فترة طويلة ، وساءك منها تدليل زوجك الزائد لها . . وسلطانها عليه ، واعتزازها الاستفزازى بمكانتها لديه حتى فى مواجهتك أنت شخصيا ، وضاعف من ضيقك بها سلوكها المتعجرف مع زميلاتها ومدرسيها ، وضعف تحصيلها الدراسى ، وكلما حاولت التشدد معها والتضييق عليها ، وجدت الفتاة لدى زوجك الحنان الغامر ، والاستعداد الأبدى لتبرير كل تصرفاتها والتماس الأعذار لها والتغاضى عن أخطائها . وبعض الأطفال يستفيدون غريزيا من هذا الوضع ، ويسعون لا ارديا لتعميقه بهدف الاستفادة النفسية والمادية من الطرف الآخر الذى لا يحاول التشدد معهم، أو حملهم على جادة الصواب ، وتكون النتيجة وبالا فى أغلب

الأحيان على شخصية الطفل نفسه وسلوكياته وأخلاقياته ، إذ إنه من أهم وسائل التربية السليمة للأبناء أن يتفق أسلوب الأبوين فى تربيتهم ولو فى الأساسيات وحدها . . مع اختلاف وسائل التعبير عنها بينهما . .

ولهذا فلقد أخطأت كثيرا يا سيدتى وتعاميت مرغمة عن نذر الخطر المبكرة حين قبلت رجاء شقيقك الأكبر لك بإعادة الطفلة إلى حياتكما استجابة لرغبة زوجك ، ولعلك لو كنت قد جاهدت نفسك وقتها بعض الشىء وتحملت حدة مزاج زوجك وعصبيته خلال فترة الطرد الأولى ، وتوصلت معه ببعض الحكمة والمرونة إلى حل وسط آخر هو أن تستمر الطفلة فى كنف أبويها على أن يواصل هو رعايتها على البعد والتكفل ببعض نفقاتها . أقول إنك لو كنت قد فعلت ذلك لربما كانت سفينة الحياة قد مضت بكما بغير عناء كبير حتى الآن ، ولربما ساهمت مواجهة المشكلة بهذا الحل الوسط مع اعتياد زوجك لاقامة الفتاة بين أبويها تدريجيا فى اعتدال مشاعره تجاهها ، ولأشرفتما معا على تعليمها وهى فى كنف أسرتها . . ولأصبحت ضيفتكما المفضلة فى الاجازات وعطلات نهاية الأسبوع حتى الآن بغير أن تتعمق الروابط بينها وبين زوجك إلى الحد الذى أفسد عليك حياتك الزوجية معه فيما بعد . ولست فى الحقيقة أميل للاعتقاد بصحة ظنونك فى طبيعة مشاعر زوجك تجاه هذه الفتاة ، ولا للاعتقاد بأنها مشاعر رجل تجاه أنثى ، أو أنهما يمكن أن يتزوجا حقا ذات يوم كما تتخوفين ، فالحق أننى أميل للاعتقاد بأن مشاعره تجاهها ليست غالبا سوى مشاعر أبوية «لأب» لم ينجب تجاه

ربيبته التى تولى تربيتها وعمرها أربع سنوات ووجد عزاءه وتعويضه النفسى فى حبها وتدليلها وتحمل مسئولياتها الانسانية والمادية .

ومع اعتقادى بذلك فإننى أرى أن إنكارك عليه اهتمامه الزائد بها ، لا يخلو كذلك من منطق سليم . . فالحق أنه قد غاب عنه هو أيضا خلال مغالاته فى تدليل هذه الفتاة إدراك طبيعة النفس البشرية وفهم بعض أسرارها ، وغاب عنه إدراك أن الغيرة الانسانية معنى أشمل وأوسع من مفهوم الغيرة الأنثوية الضيقة لزوجة على زوجها ، وأن هذه الغيرة الانسانية قد يحس بها أى انسان تجاه أى انسان آخر قريب منه يجد غيره يفوز منه بما يرى نفسه أجدر به وأحق . .

كما غاب عنه أيضا أن يدرك عمق المشكلة فى وقت مبكر ، فيفهم أن اعتراضاتك على بعض سلوكيات هذه الفتاة ، ليست مجرد اعتراضات تربوية ، وإنما هى كذلك تعبير نفسى مستتر عن الغيرة منها ، والاحتجاج على مكانتها المغالى فيها لديه ، واعتزاز هذه الفتاة الاستفزازى بدلالها على أبيها البديل وتمكنها منه . ولو ساعدته طبيعته على إدراك ذلك فى الوقت المناسب لما ألح عليك فى اعادتها إلى بيتكما فى المرة الأولى ، ولما تفاقمت المشكلة حتى أدت إلى طردك لها مرتين بعد ذلك وانفصاله عنك منذ أكثر من عامين .

والآن يا سيدتى فإن مجال الاختيار أمامك ليس متسعا للأسف ، فزوجك يشترط لعودته للحياة معك إرجاع هذه الفتاة إلى بيتكما ، أو كان يشترط ذلك حين هجر البيت ولا أدرى إذا ما كان مازال قابلا للعودة مع

هذا الشرط الآن ، أم أن العلاقة بينكما قد فسدت إلى الحد الذى لا يرجى معه أى إصلاح حتى ولو قبلت أنت بعودة الفتاة ؟

فالواضح أن المشكلات قد تراكمت بينكما فى الفترة التى تلت الطرد الثالث، وكانت هذه الفتاة هى أحد أسبابها الرئيسية، لكنها ليست وحدها كل الأسباب وفى ظروف زوجين مثلكما لا يربط الأبناء بينهما بروابطهما الأبدية ، فليس هناك ما يدعو أحدهما لاحتمال حياته مع الآخر إن لم يجد فى صحبته سكينة النفس واطمئنان القلب . . ولست استطيع بالرغم من ذلك أن أعفى زوجك من نصيبه من المسئولية عن تدهور العلاقة بينكما إلى هذا الحد بعد ثلاثين عاما من الزواج ، وفى هذه المرحلة من العمر . . ولاعن إهداره لتضحيتك الثمينة من أجله بالحرمان من الإنجاب ، تفضيلا لاستمرار الحياة معه .

وفى كل الأحوال فلست أستطيع مطالبتك بقبول شرطه عليك بإعادة هذه الفتاة إلى حياتكما ، بعد أن فسدت العلاقة نهائيا بينك وبينها ، لكنى قد أقترح عليك وعليه التوصل معا إلى نفس هذا الحل الوسط الذى كان ينبغى لكما الأخذ به منذ عدة سنوات ، وهو أن يرجع زوجك للحياة معك ، وأن تتغاضى أنت عن استمراره فى كفالة هذه الفتاة والاهتمام بأمرها بشرط ألا تعود للحياة بينكما ، وألا تكدرى عليه وعليك صفو الحياة بمحاسبته عن اهتمامه بها أو عطائه لها ولابأس بذلك يا سيدتى إذا رضيتما به لأن الحياة تطالبنا فى كثير من الأحيان بأن نقبل ببعض ما لانرغبه ولانرضاه ، حرصا على سلامنا العائلى والنفسى ، وإذا

لم يكـن أمامنا بديل آخر سوى الوحدة والألم ومكابدة قسوة الحياة وحدنا .

أمـا إذا كنت ترغبين فى الطلاق لغير هدف سوى حرمان زوجك من الشقة التى تقيمين بها حين يحم القضاء بعد عمر طويل بإذن الله ، فلا معنى لذلك سوى تعذيب النفس بالأفكار الاكتئابية السوداء ، وإهدار الطاقة النفسية فى التفكير فى الانتقام حتى بعد الرحيل ، ومكابدة المشاعر السلبية التى تعانينها الآن كلما سمعت أخبار زوجك واهتمامه بأمر ربيبته هذه ، إذ لايضير الشاه سلخها بعد ذبحها وعفوا لهذا التعبير المجازى ، وتكفينا همومنا ونحن على قيد الحياة لكيلا نضيف إليها همنا الآخر بما سيجرى فيها بعد غيابنا عنها ، كما أنه لن يطول الوقت حتى تكشف لك الأيام عن جديد يطمئن بعض خواطرك تجاه زوجك ، فخلال وقت قصير سوف ترتبط هذه الفتاة بشاب ملائم لها . . وسوف تجدين زوجك يقف منها موقف الأب البديل الذى يسعد بارتباط « ابنته » وسعادتها ، وليس ذلك الموقف الآخر الذى تظنينه فى غمار معاناتك للهيب الغيرة الجامحة . . فحاولى ألا تعذبى نفسك بتسقط أخبارهما معا الآن ، واعرضى عليه هذا الحل الوسط الذى تأخر عن موعده كثيرا ، فإن لم يقبل به ، وأصر على الابتعاد نهائيا أو اشتراط عودة الفتاة للإقامة الكاملة بينكما فلابد فى هذه الحالة مما ليس منه بد وهو الانفصال الرسمى بينكما ، إذ أنك فى تقديرى ومهما حاولت أن تغالبى نفسك فلن تنجحى فى احتمال الحياة المشتركة معها مرة أخرى ، بعد أن تراكمت المرارات

وساءت الظنون ، بل إننى أحسبها سترفض هى نفسها العودة مرة أخرى إلى بيتك حتى ولو نجحتِ فى تعديل بعض أفكارك بشأن طبيعة العلاقة بينها وبين زوجك ، ولن تعدك مثل هذه الحياة المشتركة معها ومع زوجك إلا بالمزيد من الاحتراق النفسى كل يوم . . ومزيد من المشكلات العائلية والنزاع معه حول كل حركة أو كلمة شاردة من جانبه تجاه هذه الفتاة .

وما دام الأمر كذلك فلا داعى لدخول حقل الألغام من جديد ومكابدة الخوف من الخطر كل لحظة ، ولتدعى للأيام فرصتها فى تهدئة النفوس وتقريب المسافات . . والسلام .



العيوب الخطيرة

أرجو أن تسمح لى بأن أروى لك قصتى ، فأنا شابة نشأت فى أسرة مترابطة متحابة بين أم وأب فاضلين وخمسة أبناء من الذكور والاناث أنا أصغرهم ، وقد عودنا أبوانا منذ الصغر على المشاركة فى شئون البيت والأسرة فنشأنا على تحمل المسئولية وتعلمنا كيفية مواجهة ظروف الحياة المختلفة ، واعترضتنا خلال رحلة الحياة ظروف صعبة كثيرة لكننا صمدنا لها وتغلبنا عليها بالإيمان والصبر حتى تخرجنا جميعا فى الكليات المختلفة وتزوج كل إخوتى ولم يبق سواى .

وكان عمرى ٢١ عاما حين فاتحنى شقيق صديقتى الحميمة برغبته فى أن يتقدم لخطبتى ، فلم اعترض ولم أبد الموافقة فى نفس الوقت وتركت الأمر للأقدار ، فإذا بى أصدم برفض والد صديقتى لى بعنف وكان رفضا جارحا ومهينا تألمت له كثيرا لأننى لم أجرح إنسانا فى حياتى وأجد سعادتى فى خدمة الآخرين ومحبتهم ، وازداد ألمى حين قابلنى والد صديقتى هذه بعد ذلك وعاملنى معاملة قاسية للغاية ، فبكيت كثيرا ودعوت الله ـ على خلاف طبيعتى فى التسامح مع من يظلمنى ـ أن ينتقم

لى ممن جرح إحساسى على هذا النحو، ورجعت إلى حياتى العادية ، فلم تمض فترة قصيرة إلا وتعرض والد صديقتى هذه لمحنة قاسية وجدتنى حين علمت بها أنهار باكية وأشعر بتأنيب الضمير الشديد ويخيل إلى أننى السبب فى هذه المحنة المؤلمة التى ألمت به لأننى دعوت الله أن يثأر لى منه، وأقسمت ألا أدعو بعد ذلك بشر على أحد مرة أخرى ، وأخذت نفسى بمحاولة التخفيف عن هذا الأب ، بقدر جهدى ونجحت فى ذلك إلى حد كبير .

ثم مضت ثلاث سنوات لم أجد بين من تقدموا لى خلالها من أشعر أنه يناسبنى، ثم فاجأتنى إحدى قريباتى وزوجها برغبتهما فى خطبتى لابنهما وابتهجت بذلك كثيرا وشعرت بأن حلم السعادة قد اقترب من حياتى ، لكنى فوجئت بالرفض لشخصى مرة أخرى من جانب الشاب المرشح للارتباط بى وليس من أسرته ، كما حدث فى المرة الأولى ، وكانت مبرراته للرفض هى أننى اتمتع بشخصية قوية أكثر من اللازم ومحبوبة وذكية وفى نفس مستوى ذكائه ، وبالتالى فإن شخصيته سوف تكون واضحة أمامى بسهولة وقد تنجم بعض المشاكل بيننا بسبب عدم قدرة أحدنا على إقناع الآخر بما لا يريد الاقتناع به .

وتعجبت لهذه العيوب الخطيرة التى رفضنى قريبى من أجلها واعتصمت بالصبر وقررت ألا أدعو الله على أحد بالانتقام لى وإنما أن أنفذ أنا هذا الانتقام بطريقتى الخاصة ، وكانت طريقتى فى ذلك هى أن أضاعف من حبى لأسرة قريبى هذا وأن أتعامل معها ومع الشاب الذى

رفضنى بطريقة طبيعية تماما وكأن شيئا لم يكن وأن أنشغل فى نفس الوقت بتنمية مهاراتى وقدراتى ، فتعلمت الحياكة والرسم على الزجاج وجميع الأشغال اليدوية، وحصلت على دورات فى التعامل مع المعاقين ذهنيا والتعامل مع الصم والبكم ، ودورات لتحسين لغتى الانجليزية ، ولتعلم اللغة الفرنسية واتجهت بأفكارى للهجرة إلى أمريكا ، وبدأت فى تجهيز أوراقى للسفر غير نادمة على هجر من أحببتهم فجرحونى جميعا .

وفى أحد الأيام كنت أسير على كورنيش النيل بمدينتى بالأقاليم كأننى أودعه وأودع المدينة كلها قبل الهجرة ، فإذا بى أرى طفلا على وشك الغرق فى النيل ولم أتمالك نفسى من الاندفاع إليه وانقاذه ووفقنى الله بالفعل فى ذلك وغادرت المكان عائدة إلى بيتى سعيدة بما فعلت ، وغير عابئة بملابسى التى ابتلت حتى منتصف الجسم تقريبا وبعد قليل من عودتى للبيت فوجئت بجرس الباب يرن وضيف غريب يدخل إلى الصالون ويقول لى ولوالدى إنه طبيب ناشىء رآنى وأنا أنقذ الطفل من الغرق فتابعنى فى الطريق حتى عرف مسكنى ، ويريد أن يتقدم لطلب يدى لأنه قد أعجب بشهامتى وحسن تصرفى فى انقاذ الطفل. ورحب أبى بالشاب ، أما أنا فقد اعتذرت له على الفور عن عدم الموافقة على طلبه لأننى على وشك الهجرة لأمريكا بعد أسبوع واحد ، وترك الشاب لدى أبى اسمه وبياناته وطلب منى التفكير فى الأمر ، وانصرف شاكرا حسن الاستقبال .

وفكرت فى عرضه ولم أجد فى نفسى الرغبة فى تغيير خطتى للسفر إلى

أمريكا والاستقرار هناك ، لكن أمى مرضت فجأة خلال الأيام السابقة لسفرى ولزمت الفراش ، فقررت تأجيل السفر إلى ما بعد شفائها ، وفوجئت بهذا الطبيب الشاب يتصل بالبيت بعد ذلك عدة مرات محاولا أن يعرف سبب رفضه ، إلى أن اضطر أبى لمصارحته بما واجهته من قبل من رفض جارح مرتين وتأثرى بذلك فازداد الحاحا على أن أعطيه فرصة عادلة للاختبار قبل الحكم عليه ، وفكرت فى أمره بالفعل فوجدته شابا مهذبا ومحبا ومشابها لأقصى حد لى فى الطباع وطريقة التفكير ، بل وفى العيوب فقبلت الزواج منه ، وتم الزفاف وأنا فى قمة السعادة ، وبعد شهر العسل بدأت على الفور أفكر فى افتتاح عيادة لزوجى ، لكن من أين لنا بالآف الجنيهات التى يتطلبها إيجاد شقة صغيرة وتأثيثها ، غير أننى لم أتوقف عاجزة أمام هذه العقبة وانما استفدت من بعض «عيوبى» كقوة الشخصية والذكاء ، وقررت أن تكون العيادة جزءا من شقة الزوجية واستغنيت عن غرفة ومساحة من الصالة لعمل العيادة ، واستطعنا افتتاحها بعد ٦ شهور فقط من الزواج وطلبت من زوجى أن أساعده فى عمله بها لتوفير أجر الممرضة ، خاصة أن العيادة فى بدايتها وزوجى مازال طبيبا ناشئا وليس مشهورا ولا معروفا وعملت بالفعل معه كممرضة فى ساعات عمل العيادة المسائية، وهيأت له كل الظروف المساعدة للحصول على دراساته العليا ، وبدأ المرضى يعرفون زوجى ويترددون على عيادته ، وأنا معه فى كل الأحوال وقد بدأت أستفيد بهوايتى الأخرى فى التفصيل وأقوم بحياكة كل ملابسى وملابس زوجى ،

وبعد عامين شعرت بدبيب الحياة يتحرك فى أحشائى ثم وضعت طفلى الأول وبعد شهور وضعت طفلتى الحبيبة ، واكتملت معزوفة الحب والسعادة والتفاهم فى حياتنا ، وبعد بضع سنوات أخرى كان زوجى قد حقق نجاحا ملموسا فى عمله واستطعنا شراء شقة صغيرة فى وسط المدينة وأصبحت عيادته الأساسية ، والآن وبعد ١٠ سنوات من زواجنا اتلفت حولى فأجدنى أعيش مع زوجى فى وئام وسلام وحب ، وقد أصبحت لنا سيارة وقطعة أرض صغيرة فى الأرض الجديدة نحاول زراعتها والاستفادة بخيراتها ، وأهم من كل ذلك هو أنه قد أصبحت لى هذه الحياة الرائعة السعيدة مع زوجى وأطفالى ، ولقد كتبت لك هذه الرسالة فى مناسبة احتفالنا بعيد زواجنا العاشر ، ولأنه من حقك أيضا أن تفرح لأفراحنا ، كما تحزن لأحزاننا ، ولقد وجدت نفسى فى هذه المناسبة أقارن - بغير وعى منى - بين ما أرادته لى الأقدار ، وبين ما أردته أنا لنفسى فى البداية ، فوجدت أن الشاب الأول الذى رفضنى والده لم يوفق حتى الآن إلى عمل ثابت ولم يرتبط نتيجة لذلك بأحد .

أما الشاب الثانى من أقاربى ، والذى رفضنى هو الآخر فقد ارتبط بإنسانة كان والده وشقيقه يرفضان ارتباطه بها بسبب اختلاف الطباع لكنه أصر على اختياره ويدفع الآن ضريبة هذا الإصرار ويحيا حياة غير سعيدة .

والآن وأنا أنظر إلى الوراء أجدنى أشكر هذين الشابين اللذين رفضانى لأنه لولا رفضهما لى لأسباب مختلفة ، لما كنت أعيش الآن سعيدة مع

زوجى وأبنائى ، وأقول لكل فتاة واجهت مثلى محنة الرفض الجارح القاسى ألا تيأس من رحمة الله لأنه قادر على أن يعوضها خيرا عمّن رفضها ويعطيها الشخص المناسب لها الذى يعرف لها قدرها ويسعدها ويسعد أيامها ، كما حدث معى . . والسلام .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نظلم أنفسنا كثيرا حين نتوهم أننا فقدنا للأبد كل فرصتنا للسعادة المأمولة لأنه قد فاتنا تحقيق بعض رغباتنا فى أحدى فترات العمر ، فالحق أن فرصة السعادة تظل قائمة فى الأفق لكنها مؤجلة إلى الوقت المعلوم فى لوح القدر ، كما أن ما فاتنا منها لم نكن لنعلم علم اليقين هل كان السعادة التى كنا نتطلع إليها حقا أم كان بابا مؤكدا للتعاسة والشقاء أوصدته الأقدار الرحيمة دوننا ، والإنسان ذو القلب الحكيم هو الإنسان القادر دائما على استشعار السعادة فى أبسط الأشياء والتواؤم مع حياته فى كل الظروف ، ويعمل جاهدا على أن يحول هزائمه الشخصية واخفاقاته إلى سلام نفسى وزاد يتزود به فى سعيه لنيل السعادة التى يستحقها ، مستعينا على ذلك بفهم أعمق للحياة وخبرة إنسانية أشمل تعينه على التفريق بين ما يستحق أن يأسى عليه إذا فاته وبين ما لا يستحق أن يتجمد أمامه طوال العمر باكيا عليه .

فكل شىء يدور فى بوتقة النفس الداخلية ، وليس فى العالم الخارجى، ونحن وحدنا الذين نملك أيضا أن نرضى عن حياتنا أو أن نسخط عليها ونرفضها ونترك النفس نهبًا للمرارات والأحقاد والأفكار

السلبية ، ولا عجب فى ذلك لأننا إنما نرى الحياة بعيوننا ونتفاعل معها سلبا أو إيجابا ، بتذوقنا لها واستعدادنا النفسى للابتهاج بها أو السخط عليها ، وهى هى الحياة فى كل الأحوال سواء قبلنا بها أم رفضناها .

ولقد روى مؤرخو الفن الحديث أن الرسام كلود مونيه قد جلس يوما كاملا أمام كاتدرائية مدينة روان بفرنسا ليرسمها ورسمها فى عدة لوحات متتالية ، فجاءت صورتها فى كل مرة مختلفة عن سابقتها لاختلاف الضوء والظلال على البناء ولاختلاف تأثير ذلك - وهو الأهم - على نفس الفنان وشعوره الداخلى ، فجاءت كل لوحة لتعطى ايحاءً مختلفا عما يعطيه البناء نفسه من ايحاءات للمشاهد العابر ، وقال النقاد إن مونيه لم يرسم كاتدرائية روان ، لكنه صنع كاتدرائيته الخاصة به نتيجة لرؤيته الذاتية لها واحساسه المختلف بها .

وكذلك نفعل نحن أيضا فى حياتنا ياسيدتى ، فيصنع كل منا كاتدرائيته الخاصة نتيجة لرؤيتنا الذاتية للحياة وشعورنا الداخلى الخاص بها واستعدادنا للابتهاج بها أو السخط عليها ، وكل إنسان يستطيع أن يجاهد نفسه لكى يدربها على القبول بالأسباب المتاحة له ، والرضا بالبدائل إن لم يتح له الفوز بالأصائل ، بل أن سعادة الإنسان تتوقف إلى حد كبير على قدرته على القبول ببعض البدائل المتاحة ، تعويضا له عما لم يتح له من أسباب أخرى كان يتمناها لنفسه فى بعض مراحل العمر .

ولقد روى عن القطب الصوفى أبى اليزيد البسطامى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى قوله فى مجال حديثه عن تهذيب نفسه للوصول إلى

مرتبة الصفاء الروحى والخلو من الشوائب : « كنت اثنى عشر عاما حداد نفسى ، ألقيت بها فى كور الرياضة « رياضة الجسم على العبادة » وأحرقتها بنار المجاهدة « مجاهدة رغبات النفس وشهواتها » ووضعتها على سندان المذمة « ذم النفس لعيوبها وشوائبها » وطرقتها بمطرقة الملامة «لوم النفس على هفواتها وأخطائها » حتى جعلت منها مرآة ، وكنت مرآة نفسى خمس سنين أصقلها دائما بأنواع من العبادات والتقوى » الخ .

وأنت ياسيدتى قد أخذت نفسك ببعض ما أخذ به هذا القطب الصوفى نفسه، حين طرقت نفسك بمطرقة الملامة على تسرعها فى طلب الثأر والانتقام الإلهى ممن أساء إلى مشاعرك برفضك رفضا جارحا ومهينا فى المرة الأولى فأصابته بعض محن الحياة، وعاهدت النفس على ألا تطلبى الثأر من أحد وأن تواصلى عطاء الحب للآخرين ولو ظلموك ،ثم أثرت فى المرة الثانية أن يكون « انتقامك » ممن أساء إليك بتدعيم الثقة فى النفس ، وتنمية المهارات وشغل الأوقات بالنشاطات المفيدة ، وبالاستمرار فى العطاء للحياة والآخرين ، ومضاعفة الود لمن أساءوا إليك، فكان هذا « الانتقام » نفسه هو شفيعك لدى السماء لنيل السعادة التى كنت تأملين فيها ، إذ لولا أن دفعك عطاؤك للحياة إلى انقاذ هذا الطفل الصغير من الغرق فى النيل لما استلفت أنت نظر ذلك الطبيب الشاب ، ولما تابعك لكى يصل إليك ويطلب الزواج منك بالحاح حتى قبلت به . أما «العيوب الخطيرة» التى برر بها قريبك الشاب رفضه لك ، فلقد كانت هى نفسها المؤهلات التى أعانتك

وأعانت زوجك على صنع نجاحه وتحقيق التقدم فى الحياة العملية .

فهذه الشخصية القوية نفسها هى التى هيأت لك أن تكونى سندا لزوجك وقوة دافعة له لاعبئا عليه يزيد من أعبائه ويثقل كاهله ، وهى التى هيأت لك القدرة على اتخاذ القرار بالاستغناء عن جزء من شقة الزوجية وتحويلها إلى عيادة متواضعة لزوجك ، والقيام له بعمل الممرضة فى البداية توفيرا للنفقات وحثه على استكمال دراساته العليا فكان حبك له بذلك حبا بانيا وليس معوقًا ولا هادما كما قد تفعل بعض الأخريات .

والحق أننى أعجب لمن يبرر رفضه لفتاة بقوة شخصيتها وذكائها ، كأنما لايتصور الزوجة إلا طرفا خانعا عاجزا عن أن يقوم بنفسه مع أن قوة الشخصية لاتتعارض أبدا مع احتياج الزوجة لزوجها النفسى والعاطفى ولا مع قدرة الزوج المحب على الاحتواء العاطفى لزوجته ، فى حين أن من تتمع بمثل هذه الشخصية تضيف إلى عطائها الإنسانى لزوجها . . دعمها له بطريقة فعالة فى الحياة وذلك بقدرتها على مواجهة المواقف الطارئة وحسن التصرف والاختيار ، فلا تكون بذلك عبئا إنسانيا كاملا تلقى بكلكلها عليه وتثقل خطواته بعجزها عن التصرف والاختيار حتى فيما يعتبر من صميم مسئولياتها الأسرية .

غير أننا قد سلمنا منذ البداية بأن ما لا يصلح لإنسان قد يصلح لغيره وأن رفض البعض لنا لا ينفى عنا جدارتنا بالسعادة مع غيره . . وانما هو دليل فقط على أن من رفضونا لا يصلحون لنا ولانصلح لهم ، واننا حين نلتقى بمن تتوافق معهم شخصياتنا وتتآلف أرواحنا فلسوف

نتلاحم معهم ونرشف معا رحيق السعادة والنجاح ، ولقد قيل فى تعريف الألطاف الإلهية إنها ذلك التدبير الإلهى الذى قد يأتينا أحيانا ببعض ما نكره تمهيدا لأن يغمرنا فيما بعد بكل ما نحب ونسعد به ، ولقد أعجبنى فى رسالتك « شكرك » لهذين الشابين اللذين رفضاك من قبل ، إذ أنه لولا رفضهما لك لما التقيت بزوجك وما سعدت به وبحياتك معه الآن ، غير أننى أرجو لك فقط أن تضيفى إلى ما أخذت به نفسك من قبل من عدم الثأر لنفسك ممن أساءوا إليك شيئا آخر جوهريا هو ألا تسمحى لشبهة الشعور بالشماتة فى حظوظ من رفضوك من قبل بأن تتسلل إليك وتشوه عليك صفاء « مرآتك » ذلك أنه مما نتوسل به إلى الله العلى القدير لكى يحفظ علينا سعادتنا أو يهبنا ما نتطلع إليه منها ، ألا نشمت فى حظوظ الآخرين من التعاسة والشقاء وألا نشغل أنفسنا بمقارنة حظوظنا مع حظوظ من نالوا أكثر مما نلناه نحن من الأسباب ، وشكرا لك على رسالتك المفيدة والسلام .



الإشارة المنتظرة

أعرف ان قصة هذه الرسالة تخالف الاتجاه العام لبابك الجميل ، لكنى أريد أن أرويها لك وأستشيرك فيها رغم ذلك ، فأنا رجل عمرى ٥٥ عامًا زوج لزوجة طيبة وأب لأربعة أبناء ، وأملك مصنعا صغيرا باحدى المدن الجديدة ، وحياتى مستقرة وهادئة وبلا منغصات والحمد لله إلا ما حدث منذ سنوات قليلة من جانب كبرى بناتى .

فلقد زوجتها من إبن أحد أصدقائى فلم يطل زواجها به ورجعت إلى مطلقة رغما عنها وبغير أن ترغب فى الطلاق أو تطلبه ، وبعد فترة من رجوعها للبيت ألحت على ابنتى بالسماح لها بالعمل شغلا للفراغ ، وبعد ممانعة من جانبى وافقت على أن تعمل بشهادتها المتوسطة فى مزرعة يملكها أحد معارفى وعملاء مصنعى ، وبدأت عملها فيه ومضت الأيام وأنا أترقب الفرص لكى أطمئن على هذه الفتاة التى زوجتها صغيرة فكان مصير زواجها الفشل ، وبعد عام من عملها الجديد زارنى فى بيتى شاب يعمل معها بالمزرعة ويحمل مؤهلا جامعيا ويبدو لى من مظهره أنه على

خلق ودين وطلب يد ابنتى ، وبعد أيام جاءنى فى مصنعى وتحدث إلى فإذا به يفجر فى وجهى مفاجأة كريهة هى أنه متزوج وأب لطفلتين لكنه على غير وفاق مع زوجته وانه لم يصارحنى بذلك فى الزيارة لأولى ، عملاً بمشورة ابنتى التى نصحته « بالتدرج » فى إبلاغى بهذه الحقيقة ، وغضبت لهذه المفاجأة الكريهة غضبا كبيرا ، وكتمت غضبى وصرفت هذا الشاب بهدوء رافضا طلبه ، وطالبا منه أن يتجه باهتمامه لبيته وزوجته وطفلتيه، بل وعرضت عليه التدخل بينه وبين زوجته للإصلاح بينهما إذا رغب فى ذلك ، وحين رجعت إلى بيتى فى المساء عنفت ابنتى على ذلك بشدة وهددتها بمنعها من الذهاب إلى العمل وحبسها فى البيت إن لم ترجع عن هذا الطريق الشائك وكلفت أمها بمتابعة أحوالها وأمرت شقيقها الأصغر بمراقبتها فى عملها من حين لآخر .

ومضت شهور فإذا بى أجد نفس هذا الشاب يزورنى مرة أخرى مكررا مطلبه ، وفى هذه المرة جن جنونى وثرت عليه ثورة عنيفة وطردته من مكتبى فغادرنى وهو يقول لى إنه ليس غاضبا منى ولا مما فعلت به ، لأننى فى « مقام » والده ، ولأنه يقدر لى مشاعرى وظروفى كأب لكن ما الحيلة فيما لاحيلة لأحد فيه !

وتركت عملى عائدا إلى البيت وأنا ثائر وعنفت ابنتى وأمها وشقيقها وأقسمت على ابنتى ألا تخرج إلى عملها مرة أخرى وألا تقترب من التليفون ، ولم تهدأ نفسى بالرغم من ذلك بل ظللت هائجا ثائرا لفترة طويلة فلم يمض سوى أسبوع حتى فوجئت بزيارة من والد زوجة هذا

الشاب الذى اكتشفت أنه أحد جيران فترة الصبا القدامى ، وقد جاءنى الرجل ليذكرنى بنفسه وبعشرتنا القديمة ويرجونى ألا أساعد زوج ابنته على هدم أسرته الصغيرة بالموافقة على زواجه من ابنتى ، وأكدت له رفضى لهذا الزواج ووقوفى ضده ، بكل ما فى وسعى من حيلة ، وروى لى الرجل عن خلافات بين ابنته وزوجها وكيف انها عصبية بعض الشىء وعنيدة ، لكن زوجها شاب طيب ويحبها ويحب طفلتيه بالرغم من ذلك ولابد من استمرار الحياة بينهما ، وطمأنته إلى ذلك ووعدته خيرا ، وعقب انصرافه ألحت على خاطرى فكرة المسارعة بتزويج ابنتى هذه لأى شاب مقبول حسما للمشكلة وتفاديا للفضائح ، وألمحت بذلك لمساعدى القديم فى العمل وله ابن شاب لم يسبق له الزواج ، فالتقط الاشارة بذكاء، وبعد أيام تقدم ابنه إلى يطلب يد ابنتى وفرحت بذلك جدا وضغطت على ابنتى لقبوله وشاركنى فى ذلك زوجتى وأبنائى وقبلت ابنتى به راغمة وتم تقديم الشبكة ، وحددت موعدا مستعجلا للقران والزفاف قبل أن تتراجع ابنتى ، وقبل الموعد المحدد للزفاف بيومين زارنى خطيب ابنتى فى مصنعى ، وقال لى فى خجل وتردد انه قد عرف من ابنتى «قصتها» ، وانه يرى لى أن أدعها تختار حياتها كما أرادتها، وانه يحترمها كثيرا لكنها لاتصلح له ولا يصلح لها ، ثم أوصانى بالرفق بها وعدم العنف معها ، وانصرف. ولم أدر بنفسى حين سمعت منه ذلك فتركت عملى ورجعت إلى البيت على الفور وانهلت على ابنتى ضربا وركلاً حتى سقطت على الأرض تنزف دما ، وعنفت كل افراد الأسرة وحطمت آلة

التليفون اللعينة ولازمت البيت يومين غارقا فى أحزانى وأوجاعى وأنا أحاول رغم ذلك الاطمئنان على هذه الابنة المتعبة عن طريق أمها .

وهدأت الأمور قليلا وحاولت الحديث مع ابنتى مرة أخرى فلم أجد منها إلا دموعها وخوفها ، فازددت غضبا وعدت إلى تعنيفها والاساءة إليها من جديد حتى لقد تمنيت لها أن تموت لكى نستريح من متاعبها !

ورجعت إلى العمل ، وبعد أيام جاءنى صوت زوجتى تخبرنى فى قلق وخوف أن ابنتى قد غافلتها وتركت البيت ولاتعرف إلى أين ذهبت ، ولك أن تتخيل ما شعرت به فى هذه اللحظة من خوف وغضب وانزعاج واحساس مرير بالطعنة الغائرة فى قلبى وكرامتى كأب .

فلقد هجرت ابنتى البيت واعلنت العصيان فأين عساها أن تكون وماذا أفعل وكيف أواجه الأهل والأصدقاء والجيران حين يعرف الجميع هذا الأمر المخجل ؟ ولم تطل حيرتى طويلا فبعد ساعات جاءنى صوت ذلك الشاب الذى أرادت الزواج منه يرجونى أن أستمع إليه بغير انفعال ويبلغنى أن ابنتى قد لجأت إليه وطلبت منه أن يعقد عليها قرانها بغير موافقتى ، لكنه لم يفعل حفاظا عليها وعلى روابطها بى وبأسرتها واحتراما لى ، ثم كرر على الرجاء بالموافقة على زواجه منها فطلبت منه عودتها أولا إلى البيت وبعد ذلك أفكر فى الأمر فقبل ذلك مؤكدا لى أن العنف معها لن يجدى ، واننى إذا لجأت إلى العنف معها مرة أخرى فكأننى أدعوه بذلك لأخذ زمام المبادرة ، والاستجابة إلى رغبتها التى لم يستجب لها هذه

المرة تقديرا لمشاعرى كأب ، ووعدته خيرا وأنا فى أسوأ حال ورجعت ابنتى ولم أفعل معها شيئا ، بل ولم أنظر ناحيتها أو أتحدث إليها بالمرة وأشركت خالها الأكبر فى الأمر فعرض أن يتم زواجها من هذا الشاب فى بيته ، ووافقت كارها وقانطا على ذلك ، وبشرط إلا تدخل لى بعد زواجها بيتا أو لأحد من أفراد أسرتى .

وتم الزواج فى بيت شقيق زوجتى وكان احتفالا كئيبا محدودا واعتبرت ابنتى منذ تلك اللحظة وكأنها قد رحلت عن الحياة بالنسبة لى رغم مشاعرى المكتومة تجاهها ، وعلمت بعد زواجها ان زوجة زوجها قد هجرته ولجأت إلى القضاء ونالت كل حقوقها وتركت له طفلتيها بالاتفاق وديا معه على ان تراهما كل أسبوع أو كل أسبوعين مرة ، وكانت كبراهما فى الخامسة من عمرها والصغرى فى الثالثة .

وبدأت ابنتى حياتها مع ذلك الشاب وتظاهرت أنا فى البداية باننى لاأريد أن أعرف أو أسمع عنها شيئا لكننى كنت أحترق فى داخلى شوقا لان اطمئن عليها وعلى أحوالها ، وأترقب بصبر نافد أن تحدثنى أمها عنها بل وأن تستمر فى الحديث عنها رغم تظاهرى بالاستياء لمجرد ذكر اسمها أمامى ولقد كانت زوجتى وشريكة عمرى تفهمنى وتفهم عمق مشاعرى جيدا فلا تحفل بضيقى الظاهرى بسماع اسمها ، وتنقل إلى من أخبارها ما تعرف اننى فى أشد الحاجة إلى سماعه ، وكان من بين ما نقلته لى أنها موفقة فى حياتها مع زوجها وسعيدة به وانها تحنو على طفلتيه وتعتبر نفسها أما لهما ، كما أن زوجها يحسن معاملتها ويعمل لاسعادها واسعاد اطفاله .

وبعد عام من الزواج أنجبت ابنتى طفلا فاسمته رغم مقاطعتى لها باسمى ، وبلغنى ذلك فى حينه فتظاهرت بعدم الاهتمام وإن كنت قد سعدت به فى اعماقى ورضيت عنه لانه أكد لى مشاعرها نحوى .

كما بلغنى أيضا أن حسن معاملتها للطفلتين قد قربها كثيرا من أهل زوجها حتى أصبحت تقضى مع والديه المسنين وقتا طويلا ، وانتقلت للإقامة معهما لفترة طويلة حين مرضت والدة زوجها .

وأنجبت ابنتى طفلا آخر فأصبحت أما لأربعة أطفال ، وكل ذلك وأنا مستمر فى مقاطعتها وفى منعها من دخول بيتى رغم سماحى لأمها واخوتها بزيارتها والاطمئنان عليها ، ومضت ثلاثة أعوام على الزواج ثم فوجئت بزيارة غريبة من جارى القديم والد الزوجة الأولى لزوج ابنتى فرحبت به وأنا أشعر تجاهه بالحرج الشديد منه لارتباط طلاق ابنته بزواج ابنتى من زوجها لكن الرجل الطيب أزال عنى هذا الحرج بعد قليل وصارحنى بأنه قد جاء لزيارتى ليدعونى لان انهى مقاطعتى لابنتى وألا أحرم أطفالها من زيارة بيت جدهم ، لأن كل شىء راح إلى حال سبيله وانقضى أوان الحساب والعتاب عنه ولأن ابنته قد تصرفت بعناد شديد مع زوجها ولجأت إلى القضاء وتركت طفلتيها على غير رغبة ابويها فى كل ذلك ، كما انها الآن قد التأمت هى الأخرى جراحها ، والحمد لله ، وارتبطت بانسان آخر وجدت معه سعادتها وأمانها ولم يعد هناك ما يبرر لى استمرار مقاطعتى لابنتى من أجل ما حدث . . ثم اختتم حديثه

المؤثر قائلا لى انه كجد للطفلتين يشعر بأن ابنتى تحرص عليهما وترعاهما بأمانة وقد ذهبت إلى مدرسة الابنة الكبرى وأثارت مشكلة مع إحدى المعلمات لأنها قد صفعتها حتى لقد ظنتها المعلمة أمها الطبيعية واعتذرت لها عن ذلك ، كما انها تذاكر للطفلتين دروسهما مع اطفالها وتحرص عليهم ولهذا كله فهو يدعونى لأن أنهى مقاطعتى لابنتى وأن أصفح عما كان من أمرها، وترقرق الدمع فى عينى وأنا أسمع منه ذلك ووعدته خيرا وشكرت له زيارته كثيرا ، وانصرف مودعا منى بالحب والإجلال ، ومنذ زارنى هذا الرجل الطيب وأنا غارق فى أفكارى وتأملاتى . . أريد أن أعفو عن ابنتى وأتردد فى ذلك وأتذكر خروجها من بيتها ولجوءها الى ذلك الشاب فرارا منى . . فتصحو المرارة القديمة فى نفسى، وأريد أن استمر فى مقاطعتها فأتذكر حنانها وحبها لى ولأمها وإخوتها وجنايتى عليها بتزويجها صغيرة ، وتسميتها لأول أطفالها بإسمى ورحمتها بطفلتى زوجها «وفخرى» السرى بذلك فيرق لها قلبى .

فبماذا تنصحنى أن أفعل يا سيدى . . خاصة وأنت الذى تكره الزواج الثانى حين يشرد الأطفال الصغار ويهدد سعادة الزوجة الأولى ، وتلوم الآباء والأمهات حين يقبلون به لبناتهم بغير مقاومة جدية له حرصا على حماية البيوت الآمنة من الانهيار ؟ وهل ترانى من هؤلاء الآباء الذين تعجب لقبولهم بزواج ابنتهم من زوج لأخرى وأب لأطفال صغار كما جاء فى ردك على بعض الرسائل السابقة ؟

ثم ما رأيك فى « نجاح » هذا الزواج بالنسبة لابنتى على عكس كل

المخاوف والتوقعات ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قد تمضى الأمور أحيانا فى اتجاه نشفق منه على أعزائنا ، ونتحسب لما سوف ينالهم فيه من عناء ، فإذا بما اعترضنا عليه من قبل وكرهناه لهم ، قد حقق رغم المخاوف والاعتراضات نتائج باهرة فى حياتهم تضطرنا لإعادة النظر فى موقفنا منه . . وتذكرنا بقول الحق سبحانه وتعالى :

« . . فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ١٩ النساء .

ولا تناقض هناك على الرغم من ذلك بين موقفنا السابق منه ، وبين اعترافنا بما حققه من نجاح مخالف لتوقعاتنا السابقة بشأنه ، كما لا يعنى ذلك أيضا إن قناعاتنا السابقة كانت هى الخاطئة ، وإن ما فعل الأبناء بحياتهم كان هو الاختيار الأمثل لهم .

فقناعاتنا صادرة عن ثوابت أخلاقية وتربوية سليمة وهى الأكثر توافقا مع قوانين الحياة والأولى بالاتباع دائما من غيرها . . وما فعله الأبناء سيظل رغم نتائجه الباهرة فى بعض الحالات هو الخروج على قوانين الحياة ، فإذا كان قد حقق لهم سعادتهم وأمانهم على غير ما تخوفنا منه . . فلقد صادفوا الاستثناء النادر فى الحياة ، والذى لا يتكرر كثيرا ولا يصنع قاعدة مهما تكرر ولسنا نملك إزاءه إلا أن نستعيد معه موقف الفقهاء من غريب الفتوى حين يقولون « يبقى الشاذ من الفتيا كما هو ولايقاس عليه » .

وعلى هذا الأساس فإن موقفك من رفض اقتران ابنتك من رجل متزوج وله أطفال صغار كان الموقف الأبوى والأخلاقى الصحيح ، حتى ولو كان ما اعترضت عليه قد حقق نتائج طيبة فى حياتها ، إذ سيظل الأمل الذى ينبغى أن يتطلع اليه كل أب هو أن ترتبط ابنته بشاب لا يترتب على ارتباطها به هدم أسرة صغيرة ، وتعاسة زوجة ، وتمزق أطفال صغار بين أبويهم، وسيظل هذا الأمل أيضا هو المثال الذى ينبغى أن تتطلع إليه كل فتاة تريد أن تحيا حياة طبيعية وليست خارجة عن مألوف الحياة، لكن تيار الحياة قد يحمل فى أمواجه على الرغم من ذلك الجديد والغريب وستظل تتكرر قصة ارتباط فتاة بزوج لأخرى وأب لأطفال صغار ، فهل يعنى تكرارها أن يتخلى الآباء والأمهات عن موقفهم المبدئى من رفض مثل هذا الارتباط ؟

لا ياسيدى ولهذا فلست أعتبرك من الآباء الذين لا يعترضون اعتراضا جادا على مثل هذا الإرتباط . . بل لعلى قد ألومك على عدم تسليمك بالأمر الواقع حين بدا لك وللجميع انه لا مفر منه ، وإلا كان البديل أشد إيلاما ونكرا وهو خروج ابنتك على طاعتك وزواجها رغما عنك ممن اختارته ، ففى مثل هذه اللحظة الحاسمة ينبغى ألا يقطع الآباء والامهات شعرة معاوية بينهم وبين الأبناء ، ولابد لهم أن « يشربوا على القذى » ما تعافه نفوسهم لكيلا يواجهوا هذا الموقف الأشد إيلاما لهم .

وفارق كبير بين التسليم بالأمر الواقع الذى نعجز عن درئه وصده وبين الرضا به والابتهاج له والتشجيع عليه . . وليس من حق الأبناء أن

ينتظروا منا أن نتهلل فرحا بما لم نقبل به إلا قبول المضطرين اليه ، ومن واجبهم أن يواصلوا جهدهم ومحاولاتهم معنا بصبر طويل لكى يزيلوا ما ترسب فى نفوسنا من مرارات بشأنهم .

وفى قصة ابنتك هذه فإنها لم تقطع ما بينها وبينك على الرغم من مقاطعتك لها وتحريمك لبيتك عليها ، ولعلها لم تكف عن محاولة طلب صفحك ورضاك عنها منذ اليوم الأول لزواجها . . فلما لم تجد لمحاولاتها صدى ، أرسلت إليك رسالة معنوية مؤثرة هى تسمية طفلها الأول باسمك ، ولاشك أنك قد رضيت عن ذلك فى أعماقك وإن لم تصرح به ، ورضيت أيضا عن أمانتها الدينية والأخلاقية مع طفلتى زوجها وإن لم تعترف بذلك ، ورضيت عن فوزها باحترام أهل زوجها لها وتعاطفهم معها إلى أن جاءك جارك القديم متشفعا لها عندك وهو من شقى بغير شك بطلاق ابنته من زوجها وزواج ابنتك منه ، فكان ذلك دليلا جديدا على أن هذه الابنة وإن كانت قد خالفت قوانين الحياة الأولى بالاتباع فى البداية ، إلا ان سيرتها فى الحياة قد اكسبتها احترام حتى « الخصوم » الطبيعين لها وتعاطفهم . ومن المؤكد انه مما أسهم فى تذويب المرارات القديمة لديهم ان من دفعت ضريبة هذا الارتباط بين ابنتك وزوجها ، قد وجدت هى الأخرى طريقها فى الحياة وارتبطت بمن وجدت معه أمانها وسعادتها . فكأن الحياة فى حالة هذين الزوجين السابقين غير المتوافقين ، قد صححت بعض أخطائها فارتبط الزوج بمن وجد لديها سعادته وأمانه وهى ابنتك ، وارتبطت زوجته بمن تفتحت له مسامها

وعوضها عن فشل تجربتها الأولى ، ولا بأس بأن تصحح الحياة بعض اخطائها من حين لآخر اذا لم يكن لمثل هذا التصحيح ضريبة باهظة من تعاسة الأطفال وحيرتهم بين أبوين أخطأ كل منهما اختيار صاحبه !

ولقد خفف بعض الشيء من ضريبة هذا التصحيح أن غرس الله فى قلب ابنتك الرحمة بطفلتى زوجها فأحسنت رعايتهما والحنو عليهما ، لكن سيبقى هناك دائما « ضحايا » لمثل هذا التصحيح يدفعون ثمنه كارهين وهم الأطفال الصغار، وسيبقى من الفضلاء والفضليات دائما من لا يقبلون به لأطفالهم ولو تجرعوا هم كؤوس الشقاء ، ولا يمكن لذى قلب حكيم أن يلوم فاضلا على فضله وتضحيته لسعادته الخاصة من أجل سعادة صغاره . . وكل إنسان يحيا حياته وفقا لمعتقداته ومبادئه . . ورؤيته الخاصة للحياة ، غير أن الحياة قد تفرض علينا حقائقها فى كثير من الأحيان . .

ومن هذه الحقائق الآن يا سيدى أن ابنتك التى تزوجت زواجا لم تكن ترجوه لها ، قد أنجبت الآن طفلين ، وأصبحت ربة أسرة من أربعة أطفال ترعاهم بأمانة ، وزوجة لرجل يرعاها ويعمل على إسعادها وإسعاد أسرته معها . . فما معنى استمرار مقاطعتك لها حتى الآن وتحريمك لبيتك عليها ؟

إن حدة الرفض لمثل هذه العلاقة تطلق أحيانا فى الزوجين اللذين تزوجا زواجا لم يرحب به أهل الطرفين شرارة التحدى لديهما لإثبات أن

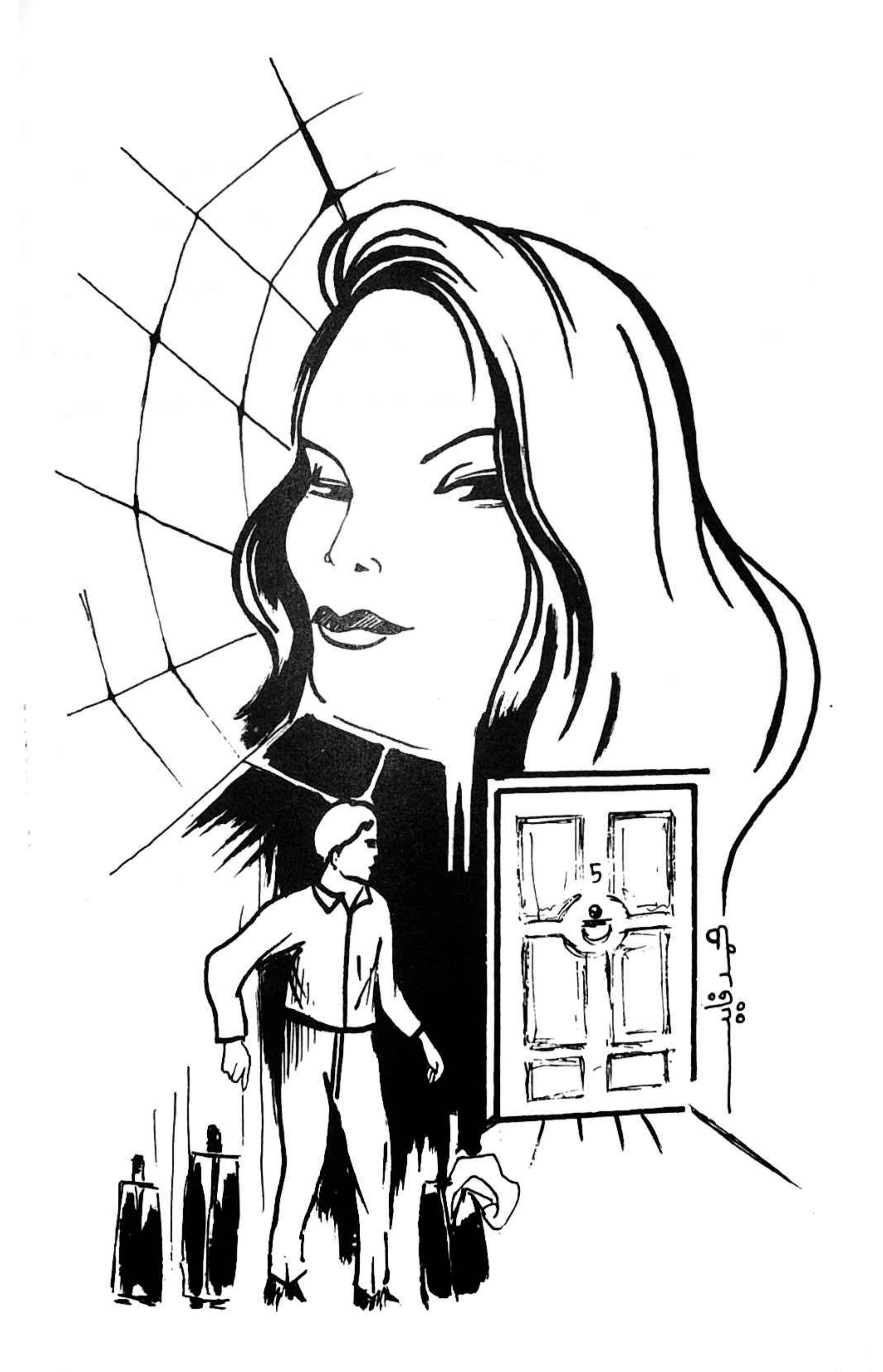
اختيارهما هو الاختيار الصحيح على الرغم من اعتراض الجميع ، وقد تزيد من تمسك كل منهما بالآخر ومن إصراره على إنجاح الحياة الزوجية معه وتجاوز كل الصعاب والعقبات ، لكيلا يذهب ما تحملاه من عناء فى سبيل الزواج سدى .

والواضح أن هذا الرفض كان من أسباب نجاح هذا الزواج واستمراره الى جانب الأسباب الموضوعية الأخرى كتوافق الشخصيتين . . والعاطفة القوية التى تجمع بينهما ، والحاجة المتبادلة لدى كل منهما الى الآخر ، وأنت كأب يا سيدى لم تكن لك غاية من رفضك لزواج ابنتك بهذا الشاب سوى أن تطمئن الى سعادتها واستقرار حياتها وما دامت « الغاية » قد تحققت والحمد لله فلا بأس بأن تتغاضى الآن عن «الوسيلة » . . وتسعد بسعادة ابنتك . . وترضى عن خطتها الكريمة فى الحياة وتفتح لها أبواب قلبك وبيتك . .

فلقد سقط خطأ الخروج على مألوف الحياة بالتقادم ، وبالاحترام الذى اكتسبته ابنتك لدى أهل زوجها لأمانتها مع طفلتيه ومع الحياة ، وأيضا بهذه « النتائج » الطيبة المخالفة لتوقعاتك لها .

ولست أرى لك ـ وقد شعرت بين سطورك بعمق اعتزازك بشفاعة الصهر السابق لزوجها لديك ـ أن تستمر فى مقاطعتها الى ما لا نهاية ، فهى بلا شكك تتطلع الآن لأن يكتمل لها هناؤها برضاك عنها ، وطى صفحة الخلافات القديمة معها . . وتترقب الآن منك إشارة الصفح

والغفران لكى تهرع اليك دامعة العين مبهورة الأنفاس طالبة مباركتك لسعادتها وحياتها الجديدة فأعط هـذه « الإشارة » النبيلة يا سيدى ولا تتردد . . ولسوف تجدها بين أحضانك على الفور حاملة فوق ذراعيها حفيدين صغيرين يتطلعان بشوق وأمل الى جدهما الذى يحمل أحدهما اسمه ولم تجمع الأيام بينهما وبينه من قبل .


5



البداية الثانية

أنا شاب فى الثلاثين من عمرى . . نشأت فى أسرة طيبة بين أبى الذى يعمل بالتجارة وأمى الجامعية التى تفرغت لبيتها وأختى الوحيدة الغالية ، ومضت بنا رحلة الحياة حتى بلغت أنا وأختى المرحلة الجامعية ، ثم توفى أبى فجأة وأنا طالب بالسنة الثالثة وأختى فى عامها الأول الجامعى ، وتولانا الحزن العميق عليه وتكدر صفو حياتنا ، وكانت أمنا أكثرنا حزنا لرحيل شريك عمرها . . وبعد أسابيع بدأنا نتكيف مع الأمر الواقع ونتقبل حياتنا . . فاذا بأمى ترحل هى الأخرى عن الحياة بعد وفاة أبى بثلاثة شهور فقط رحمهما الله رحمة واسعة ، ووجدت نفسى انا وشقيقتى ولم يعد لكل منا سوى الآخر ، فازددنا ارتباطا ببعضنا البعض وتماسكا . ونجحت فى امتحان السنة الثالثة وانتقلت الى السنة النهائية فى كليتى ، وفى أول يوم لى فيها التقيت بفتاة شعرت بضعف غريب تجاهها ، وكأن سهم الحب قد نفذ فجأة فى قلبى ، وتكرر اللقاء وصارحتها بمشاعرى وعن رغبتى فى الارتباط بها الارتباط المشروع الطبيعى

فى مثل هذا الحالة ، ورحبت هى بذلك ولكن بشرط أن ننتهى أولا من دراستنا الجامعية وسعدت بالتفاهم بيننا وصارحت شقيقتى بنيتى فى الارتباط بها وسعدت لسعادتى .

وكان أبى ـ رحمه الله ـ قد ترك لنا ما نؤمن به حياتنا ضد غدر الأيام ، غير أنه لم أشعر بمشكلة كبيرة فى اتمام زواجى بفتاتى حين يأتى الوقت المناسب ، فلم تمض شهور على هذا التعاهد حتى فوجئت بها ، تتزوج قبل الامتحان النهائى من شخص آخر بلا مقدمات ولا أى محاولة لشرح الأسباب ، وتألمت كثيرا لذلك ، وتمنيت لو كان أبى على قيد الحياة ليعيننى على مواجهة هذا الموقف الغادر . وتمالكت نفسى بعد قليل وكرست وقتى وجهدى للاستذكار وأديت الامتحان وحصلت على شهادتى بتقدير جيد ، ووفقنى الله فى العثور على عمل ممتاز بإحدى الشركات الأجنبية بالقاهرة ، وثبت اقدامى فى عملى ونلت ثقة رؤسائى وحب زملائى . . وبعد عام من تخرجى تقدم لأختى زميل لها وشاب ممتاز ومن أسرة طيبة فرحبت به لما لمسته من رغبة أختى فى الارتباط به ولمميزاته العائلية والشخصية ، وبالفعل تم عقد القران خلال اسابيع ، وبعد شهور أخرى تم الزفاف وانتقلت أختى الحبيبة الى بيت زوجها ، وسعدت بحياتها معه وسعدت بسعادتها ، وذات يوم كنت جالسا فى مطعم للوجبات السريعة لأتناول غدائى لأول مرة خارج بيتى بعد انتقال اختى لبيت زوجها ، فإذا بى أرى فتاة القلب القديمة تدخل من باب المطعم ومعها طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات تقريبا فخفق قلبى بشدة

حين رأيتها . . وتساءلت بينى وبين نفسى . . هل أحييِّها إذا التقت العيون كزميلة قديمة أم انتظر ان تأتى منها هذه المبادرة ؟ ولأن المطعم صغير فقد كان لابد لها أن ترانى كما رأيتها ، ورأتنى وابتسمت لى فتقدمت منها وحييتها وتبادلت معها الحديث عن الأحوال ، وذكريات الكلية ، وسألتها عن اسم طفلتها وعرفت منها انها تعيش مع اسرتها منذ شهور لأن زوجها قد انتقل الى العالم الآخر بعد خمس سنوات فقط من الزواج ، وكانت هذه هى البداية الثانية مع فتاتى السابقة ، فلقد تكررت اللقاءات بيننا بعد ذلك كثيرا واستيقظ الحب القديم فى قلبى تجاهها بأقوى مما كان فى المرة الأولى ، واعتبرت لقائى بها مرة أخرى بالصدفة بعد ترملها إشارة من السماء بأن هذا الحب سوف يستكمل فصوله التى توقفت قبل اتمامها . . وصارحتها على الفور برغبتى فى الارتباط بها مرة أخرى ، ووافقت هى على الزواج منى ولكن بشرطين مهميّن الأول أن اشترى لها شقة باسمها . والثانى أن تكون العصمة بيدها ، وقبلت بهذين الشرطين بغير تردد ، وتساءلت : وماذا يضيرنى فى أن تكون العصمة فى يدها أو لا تكون وفى أن تكون الشقة باسمها أو باسمى ونحن قد التقينا فى الحياة مرة أخرى على غير توقع ولن يفرط أحدنا فى الآخر ؟ واشتريت الشقة بالفعل ، وكتبتها باسمها كرغبتها . . وعقدنا قراننا بعد شهور ومنحتها فى عقد الزواج العصمة كطلبها واحتفظت بشقة الأسرة التى نشأت فيها مغلقة لتكون مرجعا لشقيقتى ترجع اليها عند الحاجة . . وتزوجنا وبدأنا حياتنا معا ، وبذلت كل جهدى لإسعاد

زوجتى وطفلتها اليتيمة التى اعتبرتها ابنة لى ، وبعد عام أنجبت زوجتى طفلنا الوحيد فسعدت بأن يكون لابنى أختا ، الى أن جاء يوم منذ أسابيع وزارتنى أختى تطلب منى قرضا تحتاج إليه لانها قد شاركت زوجها فى مشروع تجارى استنفد ما معها من نقود ، فلم أتردد فى وعدها بتدبير المبلغ المطلوب لها فى أقرب فرصة ، وانصرفت شقيقتى شاكرة وراضية ففوجئت بزوجتى بعد خروجها تسألنى : هلى ستعطيها حقا هذا المبلغ ؟

وأجبتها بالايجاب قائلا لها ببساطة إنها أختى الوحيدة والباقية لى من أفراد أسرتى ، وان المبلغ المطلوب لن يؤثر علينا فى شىء لأن معى ما يكفينى ويكفى بيتى وزيادة ، فاذا بزوجتى تكشف لى عن وجهها الحقيقى وتتطاول على وتنهال تجريحا فىّ بألفاظ يصعب على سردها ، وكرد فعل لهذا التجريح وهذه الألفاظ النابية ، فقد اعلنتها بأننى سأعطى لاختى هذا المبلغ ليس كقرض كما طلبت وانما كمنحة لا ترد ، لأننى حر فى مالى وفيما أفعله به ، وبتنا ليلتنا هذه متخاصمين ، وفى الصباح ذهبت الى البنك قبل أن أتوجه الى عملى وسحبت المبلغ المطلوب وتوجهت به الى بيت أختى وأعطيته لها وشعرت بسعادة كبيرة وأنا أفعل ذلك ، ثم توجهت الى عملى وانا مازلت لا أصدق ما جرى بينى وبين زوجتى فى الليلة الماضية ، وقضيت يومى كله فى العمل مؤملا ان تمضى هذه الزوبعة الصغيرة بلا أثر على علاقتنا وحياتنا . ورجعت الى البيت فإذا بى أفاجأ بان « صاحبة العصمة » زوجتى قد غيرت كالون باب الشقة .. وتركت لى كل متعلقاتى لدى البواب ، فوقفت مبهوتا أمام

باب الشقة المغلق أتعجب لما آل إليه حالنا هكذا بين يوم وليلة ، وشعرت بالخجل الشديد والبواب يقول ى فى حياء إن « الحقائب » لديه فى انتظارى ، فحملت أشيائى مهموما ورجعت الى شقة الأسرة التى أحسنت صنعا حين احتفظت بها . . وأنا اتعجب لما فعلته زوجتى بى لأول بادرة خلاف بيننا ؟

وذهبت الى أسرتها بعد أيام لأعرض على أهلها الأمر فلم أجد لديهم إلا السكوت على ما جرى وانتظرت حتى تهدأ العاصفة ، ونتوصل معا الى حل للمشكلة ، ليس من أجلها ولا من أجلى ولكن من أجل الطفل الوليد ، ولكن هيهات أن أتوصل معها الى أى حل مرض .

والآن يا سيدى فقد مضت أسابيع بدون أية بادرة تراجع عن الموقف الذى اتخذته زوجتى . . ولم يبق لى سوى كرامتى التى امتهنتها « صاحبة العصمة » بتصرفاتها هذه ، فاتخذت قرارى بأن أطلقها ثأرا لكرامتى الجريحة وبغض النظر حتى عن مصلحة ابنى ومستقبله .

فهل ما توصلت إليه هو القرار السليم ؟

اننى فى حيرة من أمرى وأريد مشورتك حول ما اعتزمته من قرار ولسوف اعتبر صمتك عن الرد على تأييدا للقرار . . فهل تفيدنى بالرأى الصريح فى ذلك ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لوصح ما تقول من أنه عند أول بادرة خلاف بينك وبين زوجتك ولهذا

هذا السبب وحده ، قد قامت بتغيير كالون باب الشقة التى اشتريتها لها ، وألقت لك بمتعلقاتك الشخصية لدى البواب ، لو صح هذا على وجه الدقة ، لقلت لك على الفور إن القرار الذى اتخذته هو القرار الصحيح الوحيد للتعامل مع مثل هذه الزوجة الجاحدة ، حتى ولو كان قرارا ظالما من الناحية الانسانية لطفلكما الوليد !

اما انه قرار ظالم لهذا الطفل ، فلا جدال فى ذلك لانه سوف يعود عليه بأوخم العواقب ويحرمه من حقه العادل فى أن ينشأ بين أبوين يرعيانه ويقدمان له الحماية النفسية والاجتماعية ، وأما انه القرار الوحيد الصحيح للأسف بالرغم من ذلك ، فلأن من تتحول عند أول بادرة خلاف الى نمرة شرسة لاترعى لأحد حرمة ، ولا تبقى لرأب الصدع أملا ، فتنهض على الفور الى تغيير كالون باب الشقة التى اشتراها لها زوجها من ماله ثم تلقى له بملابسه ومتعلقاته لدى بواب العمارة على هذا النحو المهين . . مثل هذه الزوجة لا علاج لها إلا بصدمة الطلاق المزلزلة التى تفيقها من غرورها وتنبهها الى ان من تتوهم انها تملك عليه نفسه حتى لا يجرؤ ذات مرة على ان يتمرد على ارادتها انها يستطيع كذلك ان ينزعها من حياته كما ينزع الانسان الشوكة المغروسة فى لحمه . . ويتحمل آلام نزعها المؤقتة ليستريح من أوجاعه الى الابد .

فاذا تبصرت ذلك بالفعل . . وتعلمت بدرس التجربة ان الفجر فى الخصومة لا يورث إلا قتل الحب ولو كان عملاقا ومتمكنا ، فقد ينفتح الباب فى المستقبل للتفاهم معها حول بداية ثالثة على أسس جديدة . .

وبغير شروط استغلالية مهينة ، إيثارا لمصلحة الطفلين معا وليس طفلكما وحده .

لانه فارق كبير يا صديقى بين أن يختلف زوجان حول أمر من أمور الحياة ويتجادلا فيه ويتخاصما لبعض الوقت بشأنه ، وبين ان يقفز أحد الطرفين هكذا من قمة الوفاق الى قمة العداء بلا تدرج فيطرد الآخر من جنته ويُشهد الغرباء على مهانته وإذلاله . . وقد كان فى مقدوره حتى لو رغب فى فصم العلاقة مع شريكه ان يفعل ذلك بما يحفظ عليه كرامته ، ويبقى للحب أملا فى التفاهم بعد حين . ومن يفعل ذلك لابد أن يشعره الطرف المهان بأن من الأمور مالا يقبل التهاون معه . . ولو دفع المرء ثمن ذلك من سعادته واستقراره ومشاعره العاطفية ، بل وحتى لو دفع أيضا بعض الأعزاء من أبنائه ثمن حمق أحد أبويه وفجره الى ان يتعلم الطرف المعتدى درس المحنة ويستشعر مسئوليته المشتركة عن سعادة هؤلاء الأبناء .

وما دامت زوجتك لم تتعلم بعد درس التجربة ومازالت سادرة فى غيها بدليل عجزك حتى الآن عن التوصل معها الى حل ملائم ، فليكن الانفصال اذن هو الحل الذى يحفظ عليك كرامتك ، ويضع هذه السيدة أمام مسئولياتها عن طفلها البرىء . . وطفلتها أيضا التى عوضتها الاقدار بأب مثلك ، ومازالت فى حاجة الى أب بديل يرعاها ويحميها من غوائل الحياة .

والحق انها لم تفعل ما فعلت طلبا لهذا الطلاق وإلا لكانت قد

استخدمت حقها فى تطليق نفسها منك ، لكنها أقدمت عليه فقط بهدف ترويضك واخضاعك وتلقينك درسا لا تنساه عقابا لك على تحديك لارادتها السامية فى أول بادرة خلاف بينكما .

ولاشك انك اخطأت حين استجبت لرغبتها فى شراء الشقة باسمها ، وليس يعنينى هنا ان تستجيب لرغبتها فى أن تكون لها العصمة فى عقد الزواج أو لا تكون ، لكن تلازم هذين المطلبين معا ووضعهما امامك ؛ فى صيغة الشرط الذى لا تقبل التنازل عنه لإتمام الزواج ، كان ينبغى له ان يثير شكوكك منذ البداية حول مفاهيم هذه السيدة عن الزواج ونظرتها للحياة والمستقبل ، وينذرك منذ البداية بمغالاة هذه السيدة فى الاعتداد بنفسها واحساسها بمدى سطوتها عليك ، وثقتها فى امتثالك لكل رغباتها وأوامرها . ولاشك أيضا فى انها لم تحمل لك بعض ما حملت لها أنت من حب ومن مشاعر عاطفية سامية ، فلقد غدرت بك مرتين حتى الآن بغير تردد ولا تدرج ، وفى ذلك وحده كل الكفاية للحكم على شخصيتها ومدى وفائها ومدى احترامها لحقوق الآخرين عليها . .

والامام ابن حزم الاندلسى يقول :

أفعال كل امرىء تنبىء بعنصره

والعين تغنيك عن ان تطلب الأثر !

وبدلا من أن تشكر اقدارها التى عوضتها بك عن تجربتها الاولى

الحزينة فى الزواج فإنها لم تتعلم من دروس هذه التجربة سوى درسها الفاسد فقط وهو الخوف من المستقبل وتقلبات الايام وحدة احساسها المادى بدرجة غير طبيعية ورغبتها فى أن تؤمن نفسها بكل الضمانات ولو كان ذلك على حساب من يرتبط بها ، ولقد استنامت الى احساسها بسطوتها عليك وشدة رغبتك فيها ففزعت بشدة حين لمست فيك بعض الرغبة فى العطاء لشقيقتك الوحيدة . . وبعض القدرة على عدم الامتثال لارادتها فى كل شىء . . فكان ما كان من أمركما معا .

والمثل الانجليزى القديم يقول إن العاقل له عينان تبصران ، اما الأحمق فليس فى وجهه سوى تجويفين ينظران ولا يبصران . . ولا يتبصران . .

وكذلك المغرور بقوته او جماله وأوهام سيطرته على شريك حياته، ولابد من تلقين مثل هذا المغرور - ان لم يفق من غروره - درسا قاسيا يعيده الى جادة العدل والحق والانصاف ويضىء تجويف عينيه ويعيد إليهما قدرتهما على الابصار الواعى لحقائق الحياة .





نزوات الرجال

أنا سيدة فى الخامسة والأربعين من عمرى أعمل عملا مرموقا ومتزوجة منذ عشرين عاما ، وأم لعدد من الأبناء ، وقد تقدم زوجى لخطبتى وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى ، وكان هو فى ذلك الوقت يكافح لكى يبنى حياته ويقوم بواجبه والتزاماته تجاه أسرته ، فتحملت معه صعوباتت البداية ، ورضيت بأن أعيش معه فى بيت أهله لفترة طويلة حتى يتمكن من تدبير مطالب الحياة وتوفير مسكن الزوجية ، وعشت فى بيت أهله كواحدة من أهله أنام فى غرفة البنات إلى أن يرجع زوجى من أسفاره الكثيرة وراء عمله ، ثم تحسنت ظروفنا بعد ذلك وأثمر كفاحنا المشترك فى الحياة فأصبح لنا مسكن مستقل وجميل وجاء الأبناء الذين ملأوا علينا حياتنا واكتملت بهم سعادتنا ، وحقق زوجى نجاحا ملحوظا فى عمله ، حققت أنا كذلك نجاحا لا بأس به وتعاونا معا على الحياة بلا فرق بين مالى وماله ، واستقرت سفينة الحياة بنا بعد سنوات من الزواج فى إحدى المدن الصغيرة حيث تعيش أسرة زوجى . ثم احتجت

ذات يوم إلى من يساعدنى فى شئون البيت فجاءنى زوجى بفتاة من قريباته البعيدات تستحق المساعدة ، فعملت معنا ورحبت بها كأخت صغيرة لى وكواحدة من قريبات زوجى وليس كشغالة . وقضت معنا فترة من الزمن ثم شكت من بعد المسافة بين بيتنا وبيت أسرتها ، فأعفيتها من العمل معنا وتمنيت لها التوفيق فى حياتها وسعيت بقدر جهدى لتزويجها بعد أن تأخرت بها سن الزواج ، فلاحظت فتورها وعدم حماسها لذلك ، ودهشت لتهربها من محاولاتى لتعريفها بشاب رشحته للزواج منها ، وتعجبت لذلك كثيرا ثم نسيتها ونسيت أمرها فى غمار انشغالى بشئون أسرتى وأبنائى إلى أن فوجئت ذات يوم بوالدى يصارحنى مشفقا بأن زوجى متزوج من هذه الفتاة عرفيا منذ فترة ليست قليلة وأنه يستأجر لها شقة صغيرة بالقرب من بيت أمها ، وتعجبت لما قاله أبى كثيرا ورفضت تصديقه إذ كيف يتزوج زوجى ذلك الرجل المرموق فى مجتمعه وأسرته وعمله من فتاة غير جميلة وغير متعلمة ولا ذكية مثلها ، لكن والدى أكد لى معلوماته وقال لى إنه لم يبلغنى بما قال إلا بعد أن تقصى حقيقة الأمر وتأكد منه ، وقررت ألا أسبق الأحداث وأن انتظر زوجى لأسأله عما سمعت به ، وجاء زوجى من سفر قصير له ، فواجهته بما سمعت به ، فإذا به لا ينكره ولا ينفيه ، وإنما يعتذر عنه فقط بأنها نزوات الرجال التى لا تؤثر على حبه ، واحترامه ، وحاجته الدامغة لى ، لأنه لم يحب سواى .. إلخ ..

ولم أتمالك نفسى حين سمعت ذلك ، وغضبت منه غضبا هائلا

ورحت أردد باكية وذاهلة : حسبى الله ونعم الوكيل ، ولست أعرف كيف مضت تلك الليلة ، ولا كيف انقضت ساعاتها الثقيلة على نفسى ، وفى اليوم التالى جاءنى من أهلى من يقول لى إنها لم تكن الزيجة السرية الوحيدة له ، وإنه قد « فعلها » قبل ذلك منذ أحد عشر عاما وبنفس طريقة الزواج العرفى السرى ودامت زيجته بضعة أشهر ، ثم كررها بعد ذلك مرة أو مرتين أو ثلاثا ، وازداد ذهولى وانهيارى وواجهت زوجى بما سمعت مرة أخرى فلم ينكره ، ولم يجد ما يقوله سوى أنها « نزوات الرجال » وإنه يحبنى ولا يحب سواى ، بل إنه كان يقارن دائما بينى وبين من يتزوجها ، فتكون نتيجة المقارنة دائما لصالحى ويزداد حبا لى واحتراما وإعجابا !

وثارت نفسى على زوجى ثورة رهيبة وخيرته بين أمرين لا ثالث لهما إما أن يختارنى أنا وأبنائى . . وإما أن يختار هذه الفتاة غير المتعلمة ويطلق سراحى ويقطع ما بينى وبينه من رابطة الزوجية . . فوعدنى بطلاقها لكنه راح بالرغم من ذلك يماطلنى فى تنفيذه يوما بعد الآخر ، ويعد بإتمام الطلاق ولا ينفذ الوعد . إلى أن ضقت بكل شىء فهجرت البيت ولجأت إلى أهلى وانكشف المستور الذى حاولت تكتمه من قبل بقدر جهدى ، وفى اليوم التالى جاء زوجى إلى فى بيت أهلى مهرولا وباكيا ، ومؤكدا انه قد طلقها ، واشترط عليه والدى بعض الشروط المادية المحدودة لضمان بعض حقى لديه بعد ان اختلطت نقودنا طوال السنوات الماضية ، ولم يعترض زوجى على شىء من ذلك ورجعت إلى

بيتى وأنا حزينة كسيرة الخاطر ، أفكر وأتعجب كيف رضى زوجى لنفسه وهو الذى يعتز بى ويفخر بين أهله ، أن يتزوج علىَّ فتاة عاطلة من الجمال وجاهلة كهذه الفتاة ، بل وكيف رضى لنفسه بأن يتزوج سرا قبلها واحدة أو أكثر . . علم ذلك عند ربى . .

لقد وهبنا الله من نعمه الكثير والكثير ، فأنعم علينا بالأبناء الممتازين وبالنجاح المهنى فى عمله وعملى . . وبالحياة الميسورة . . وأهم من كل ذلك بالوفاق الزوجى ، فلم نختلف طوال عشرين عاما خلافا جادا ذات يوم ولم نتغاضب ونتخاصم ونتشاجر كما يفعل بعض الأزواج والزوجات ، فما معنى هذا الجحود يا سيدى لنعم الله علينا ؟

إننى أحاول بكل جهدى أن أغالب نفسى ومشاعرى لكى أقف إلى جوار زوجى بعد ما حدث لكنى اعترف لك بأننى قد فقدت معظم احترامى السابق له رغم أننى لم أفقد الحب له . . وإننى كثيرا ما أتحدث إليه بشىء من الاستعلاء ورفع الصوت ، وهو الأمر الذى لم أعتده من قبل مع زوجى وأضيق بنفسى من أجل ذلك لأننى كنت أود أن أظل إلى النهاية الزوجة المطيعة المحبة التى تحترم نفسها وزوجها وأبناءها والمحيطين بها . . لكن ماذا أفعل مع نفسى التى لم تهدأ بعد ولم تصفح ، اننى لا أنكر أن زوجى يتحملنى ويتحمل عصبيتى معه الآن ، وانه مازال يكرر على انه يحبنى ولم يحب سواى وأن كل ما فعله ليس سوى نزوات الرجال ، فما هى نزوات الرجال هذه يا سيدى التى يبررون بها الخيانة والخداع وجحود نعم الله عليهم ! إننى أحاول بقدر جهدى أن

أدفع سفينة الحياة إلى الأمام وأن أساعد أبنائى على تخطى تلك المحنة التى أثرت كثيرا فى معنوياتهم وحالتهم النفسية ، فماذا تقول لى يا سيدى وبماذا تنصحنى أن أفعل لكى أتجاوز أحزانى التى أشعر أنها سوف تلازمنى إلى النهاية ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من يطلب احترام الآخرين له ، عليه أن يلتزم بالنهج القويم فى الحياة ويسلك فى حياته الخاصة والعامة السلوك الذى يبعث الاحترام فى نفوس الآخرين له ، ولا يضعه موضع انتقادهم أو انتقاصهم أو استهجانهم لتصرفاته . فالاحترام إحساس ذاتى لا إرادى يصدر من داخل الإنسان ولا يستطيع أن يرغم نفسه على احترام من لا يشعر له به ، فإذا رشحتنا سلوكياتنا فى الحياة لنيل احترام الآخرين لنا فمن واجبنا ألا نعتبره حقا إلهيا أبديا نحظى به إلى آخر العمر بغض النظر عما نفعل أو نختار من اختيارات الحياة ، ذلك أنه رهين باستمرار التزامنا بالنهج القويم الذى رشحنا له ، وقد نفقد هذا الاحترام كله أو بعضه إن لم نحافظ عليه ولم ننمه ، أو إذا خرجنا فجأة عن التزامنا الأخلاقى الذى أهلنا له .

بل لعلنا فى هذه الحالة نفقده بأسرع مما اكتسبناه ، لأن بناء الاحترام يتطلب التزاما أخلاقيا طويلا ، وسلوكا جادا أمينا مع الحياة لفترة طويلة حتى يقتنع الآخرون بجدارتنا بنيل ثقتهم واحترامهم ، أما فقد كل ذلك فلا يتطلب منا إلا تصرفا طائشا واحدا أو سلوكا مستهجنا واحدا نستجيب فيه لغرائزنا البدائية أو خطرات نفوسنا الأمارة بالسوء فتهتز ثقة

الآخرين بنا ويراجعون أنفسهم فى مدى جدارتنا بنيل احترامهم . .

وليس يحق لمن لا يرد نفسه عن خطراتها ونزواتها ورغائبها . . ولا يبذل أى جهد لمقامة هوى النفس ونداء الغرائز الوحشية ، أن يبكى على افتقاده لاحترام من حوله له . . أو ينفس على من أخذوا أنفسهم بالحرمان من كثير من اللذائذ والمتع المتاحة والشهوات الجامحة ، لظفرهم دونه باحترام الآخرين لهم .

فالمثل الإنجليزى القديم يقول إن المرأة التى تتقاضى أجرها لا يحق لها أن تطالب بالزواج !

وكذلك فى رأيى الإنسان الذى لا يرد نفسه عن متعة سانحة . . أو لذة عابرة . . أو مال محرم ، أو أى إغراء آخر من إغراءات الحياة ، العديدة، فإذا كنت يا سيدتى قد فقدت معظم احترامك السابق لزوجك بعد أن تكشفت لك نزواته وزيجاته السرية العديدة السابقة ، فلست أستطيع أن ألومك على ذلك ، لكنى أرجو لك فقط أن تحتفظى له بما بقى فى نفسك من ذبالة هذا الاحترام لكى يمكن البناء عليه من جديد إذا أثبت بسلوكياته فى قادم الأيام جدارته بذلك ، ولكى يتوافر لكما الحد الأدنى من العلاقة الصحية بين زوجين وأبوين لعدد من الأبناء يحتاجون إلى تأكيد القيم لديهم ، والحفاظ على رموز الأب والأم والمثل العليا لديهم، ولا بأس إلى جانب ذلك بأن يشعر المخطىء بأن لأفعاله ثمنا فى الحياة واجب الأداء ، وأنه لا ينجو أحد من دفعها ، فكما استمتعنا بلذة المغامرة والنزوة وبالاستجابة لهوى النفس وخطراتها علينا

أيضا أن ندفع الثمن العادل لكل ذلك فى علاقتنا بمن استجبنا لغرائزنا على حساب وفائنا لهم وعهدنا معهم . .

فإن كان فى موقف زوجك منك شىء يستحق الاعتبار ، فهو فقط فى إنه كان « يتزوج » ولا يتورط فى علاقات محرمة ومرفوضة دينيا وأخلاقيا ، حتى ولو كان زواجه العرفى السرى هذا لا يختلف كثيرا عند معظم الفقهاء عن العلاقة الخاصة السرية ، لافتقاده لركن الإشهار والإعلان ، وغير ان ذلك أيضا لا يعفيه من خيانة العهد معك . . ولا من حرمانك من حق الاختيار بين الاستمرار معه وهو زوج لأخرى عرفيا أو طلب الانفصال عنه سواء أكان هذا الارتباط عرفيا أو رسميا .

أما نزوات الرجال هذه التى يبرر بها خياناته السابقة لك فهى ليست صكا للغفران ينال صاحبه العفو والمغفرة بمجرد إشهاره فى وجه من يحاسبه عن سلوكياته ، ولا هى امتياز خاص بالرجل يشبع به شهواته كلما بدا له أن يفعل ذلك ، ثم يتوقع من الآخرين بمجرد الاحتجاج به أن يغفروا له ما فعل ويتجاوزوا عنه ولو أدرك من يتشدق بها - لتبرير ضعفه عن مغالبة هوى النفس - معناها الحقيقى ، لما سعد به ولما ارتضاه لنفسه . .

ففى قواميس اللغة إن كلمة نزوة مشتقة من الفعل « نزا » أو « انتزى » وكلاهما بمعنى وثب أو تسرع ، وهى قرينة لكلمة مماثلة لها تماما فى المعنى هى « بدَوات » فيقال أن فلانا ذو بدوات بمعنى انه قد يسنح له الرأى «فجأة » فيتبعه دون ترو ، والقاسم المشترك بين الكلمتين هو التسرع

والخفة والطيش وعدم تقدير العواقب عند الإقدام على الفعل ، فهل فى هذا المعنى ما يشرف أحدا لكى يتمسح به ويدعيه لنفسه ويبرر به أفعاله وسلوكياته ؟

الحق إنها ليست نزوات الرجال ولا النساء ، لكنه بطر الإنسان وتطلعه الدائم لنيل الحد الأقصى من المتع والأشياء كلما أتيح له ذلك ، كما أنه أيضا اعتقاده العجيب بأنه كائن فريد مميز يحق له أن ينال من المتع ما يشاء ولو أضير بذلك بعض أقرب البشر إليه .

ولاحد لطمع الإنسان يا سيدتى ولا لمطالبه من الحياة ، ولعل ذلك قد يفسر لك تساؤلك المرير عن معنى هذا الجحود لنعم الله الجليلة على الإنسان وتطلعه للمزيد منها حتى ولو أدى سعيه إلى ذلك الى تبديده لبعض ما غمره به ربه من نعم جليلة كان حريا به أن يشكر ربه عليها كثيرا .

غير أن الحياة بالرغم من كل ذلك تفرض علينا فى كثير من الأحيان أن نتفهم بعض هذا الضعف البشرى ونتجاوز عما نستطيع احتماله من الهنات والعثرات لكى تظل السفينة طافية فوق ماء النهر، ومادام زوجك قد رضخ لمطلبك بطلاق هذه الفتاة واستجاب لمطالب والدك لتأمين مستقبلك ماديا وأكد تمسكه بك ورغبته فيك فلا بأس بأن تحاولى احتواء الموقف وتجاوزه طلبا للمصلحة المشتركة بينكما وهى الأبناء، وطلبا للسلام مع شريك الحياة الذى لم تفقدى حبك له ويصعب إن لم يستحل فصم الخيوط المتشابكة والمتلاحمة بينكما على مر السنين .

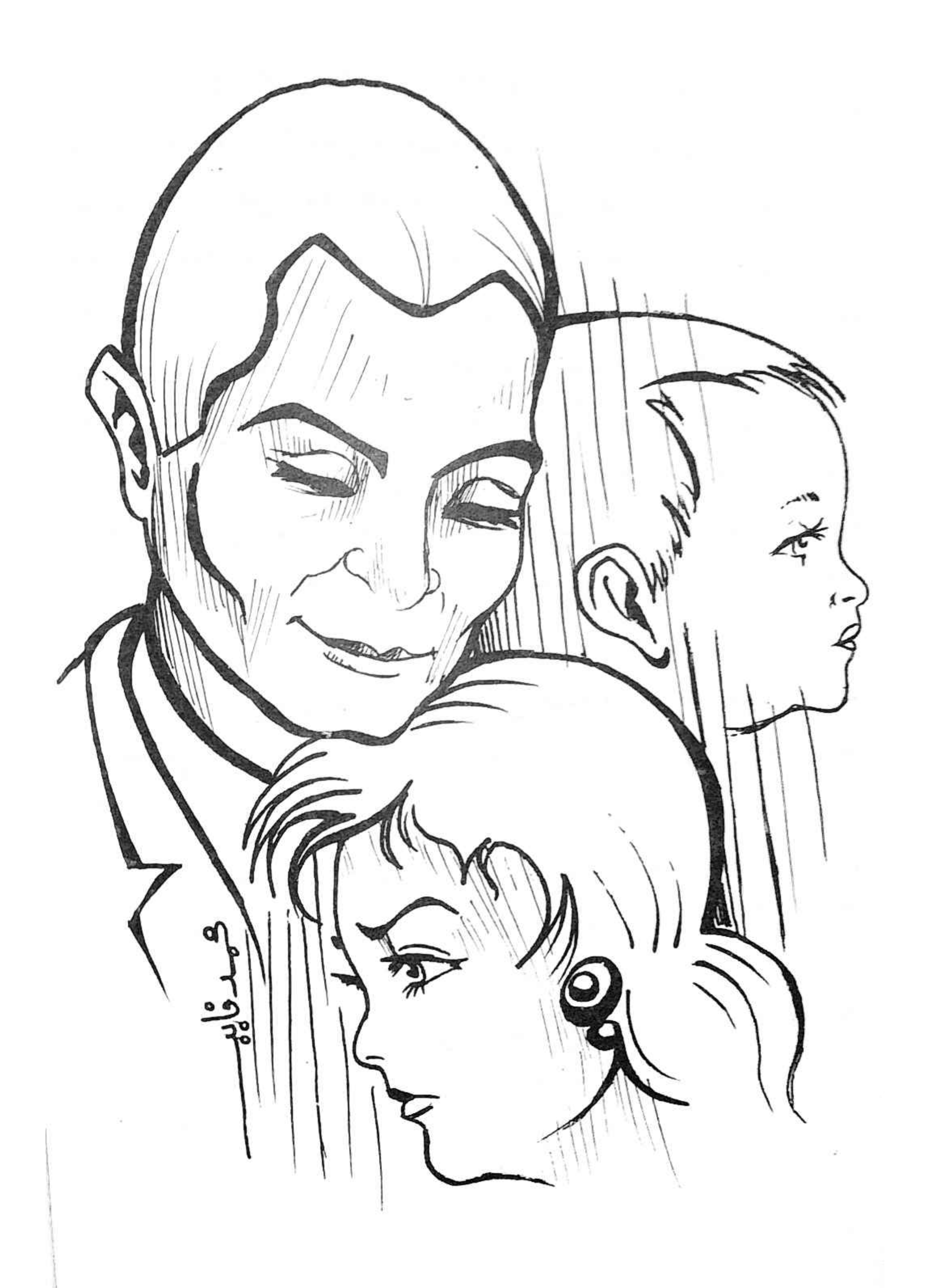
ومستقبل الإنسان دائما أمامه وليس وراءه ، فإذا التزم زوجك

بالإخلاص لك وتجنب ما يثير شكك فيه أو فى تجدد ضعفه أمام هوى النفس وغرائزها فلا بأس بذلك ولننس معا أو نحاول بقدر الإمكان نسيان ما كان من أمره معنا ، ولتستفيدى أيضا بدرس التجربة . . فتحاولى معرفة دوافعه لهذه الزيجات السرية المتعددة على مدى رحلتك معه ، لتحاولى تحصين « الثغور » التى تتسلل منها هذه النزوات العابرة إلى حصونه ، ولتزيدى من التصاقك وارتباطك به لكيلا يجد « منفذا » جديدا للتطلع إلى الأخريات ، ولا تغفلى مرة أخرى عنه اعتمادا على الثقة الغافلة فيه ، فيستجيب من جديد إلى نداء المغامرة والغرائز إذا أمن المخاطر فبعض البشر يا سيدتى قد « يضطرون » إلى الاستقامة الخلقية حين يتعذر عليهم العبث . . أو حين يتخوفون من عواقبه الوخيمة على حياتهم .

. . ولا بأس بأن نعين الإنسان على نفسه ونسد عليه منافذ العبث والمغامرة . . أو نضيقها عليه بقدر الإمكان لكيلا تغريه بها ويستجيب لها .

والثقة المبصرة فى الآخرين من حسن الفطن ، على أية حال ، وهى شىء آخر خلاف الثقة الغافلة التى تعمى المرء عن بوادر الخطأ ومقدماته ، فلا يتدخل فى الوقت المناسب لوأده وحماية أعزائه منه . .

ففكرى فى كل ذلك يا سيدتى . . وامنحى نفسك فرصة جديدة مع زوجك لتجاوز هنات الماضى . . والحفاظ على الحاضر والبناء للمستقبل . .





طائر الحرمان

لم أكن أتخيل أنه سوف يأتى يوم أكتب لك فيه مثل هذه الرسالة ، ذلك أن من يعرفوننى يعرفون عنى قدرتى على اتخاذ القرار وحل مشاكل العمل ، لكنه فيما يبدو فإن هذه القدرة على الحسم واتخاذ القرار فى العمل قد لا تمتد إلى حياة الإنسان الشخصية فى بعض الأحيان .

فأنا يا سيدى رجل أعمال شاب أعمل فى مجال السياحة ، وناجح جدا فى عملى والحمد لله بمقاييس النجاح فى هذا الزمن ، فأمتلك وأساهم فى بعض المشروعات السياحية وأدير بعضها الآخر بنفسى . ولقد استشهد والدى فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، وأنا ما زلت غلاما صغيرا ، فقامت أمى على تربيتنا على أكمل وجه وعانت الكثير وتحملت الكثير ، وهى تقوم بدور الأم والأب فى حياتنا ، وكبر أخى الأكبر وتزوج من سيدة كانت تشعر ـ هداها الله ـ بالغيرة الشديدة من أمى لما لها من مكانة عظيمة فى نفوسنا ونفوس المحيطين بنا بسبب كفاحها معنا ، فراحت تلح على أخى حتى أقنعته بالهجرة من مصر وهاجر معها وتركنى

أنا وأمى قبل أن أنهى دراستى الجامعية واقتصرت علاقته بنا على الاتصالات التليفونية التى يجريها غالبا من مقر عمله حتى لا تدرى بها زوجته وتعرف أنه يداوم على الاتصال بنا كثيرا .

وكنت خلال دراستى الجامعية أعمل فى شهور الاجازة وأدخر ما أكسبه لأبدأ به حياتى العملية بعد التخرج ، فتخرجت فى كليتى وبدأت عملى فى مجال السياحة ، ووفقنى الله فانتقلت من نجاح إلى نجاح وتحول المبلغ الصغير الذى بدأت به رحلتى إلى ثروة أشكر الله عليها وأحمد له فضله ، وبدأت أفكر فى الزواج فكان كل ما يشغلنى هو ألا أكرر تجربة أخى بعد زواجه مع أمى ، وألا أتزوج من انسانة تكرر قصة زوجته معها ، خاصة أن أمى تعتبر أن الله سبحانه وتعالى قد كافأها على كفاحها معنا بنجاحى فى الحياة العملية وتوفيقى فيها . .

وخلال هذه الفترة تعرفت على شابة رائعة بكل المقاييس تعمل بإحدى الهيئات الأجنبية ، وتجمع بين ثقافة المرأة الغربية واهتمامها بمظهرها ، وبين تدين المرأة الشرقية وأصالتها وتزوجنا بعد خطبة قصيرة وبدأنا حياتنا الزوجية فى بيت جميل قبلت أمى بعد إلحاح شديد من جانبى أن تشاركنا فيه .

وسعدت بزوجتى التى تشعرنى رغم ثقافتها وعملها المرموق بأننى السيد أحمد عبدالجواد فى ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة فضلا عن أنها تحب أمى وترعاها إلى حد أنها قد عرضت عليها أن تستقيل من عملها المهم لتتفرغ للعناية بها بعد أن اشتد عليها المرض .

لكن الإنسان لا يحصل دائما على كل ما يتمناه يا سيدى ، كما تقول كثيرا فى ردودك ، فلقد تزوجنا منذ ثمانى سنوات وتوافرت لنا كل أسباب السعادة وراحة القلب والبال من عشرة جميلة هادئة وحب متبادل وعطف يظلل حياتنا وحياة مريحة من الناحية المادية . . لكننا رغم كل ذلك لم نرزق بأولاد ، وقد حاولنا ومازلنا نحاول الانجاب بمساعدة أفضل الأطباء فى العالم فى هذا المجال ، ولقد اتفقوا جميعا على أنه لا يوجد لدى أو لدى زوجتى عيب أو مانع ملموس يحول دون الحمل ، لكنها إرادة الله التى يجب أن نرضى بها وبما قسمه لنا فى حياتنا ، ولقد امتثلت لهذه الارادة الالهية ورضيت بها فكان ذلك هو السبب فى صفاء نفسى حتى خلال الفترات القليلة التى قد يجتاحنى فيها بعض الحزن .

أما زوجتى فإن الأمر بالنسبة لها يختلف . . فلقد أصبحت فى الفترة الأخيرة حزينة دائماً على خلاف مرح شخصيتها المعهود ، وعصبية فى كثير من الأحيان على خلاف هدوء طبعها، ربما بسبب الآثار الجانبية لبعض الأدوية التى وصفها لها الأطباء ، بالاضافة إلى ملاحقة بعض الأقارب والأصدقاء لها بالسؤال عن الحمل ، وبالنصائح التى تقلب حياتنا إلى جحيم لبعض الوقت . . ناهيك عن عصبية فترة الترقب الشهرية التى تصاب بعدها بخيبة أمل شديدة تستغرقها فى دوامتها لبضعة أيام . . اننى أحاول مساعدة زوجتى والتخفيف عنها بكل ما أستطيع من جهد ، لكن أسفارى كثيرة ووجودى معها فى البيت يكون لفترات قليلة ، وقد أنشغل خلالها أيضا ببعض مشاغل العمل ، ولن

أستطيع أن أنفذ نصيحتك اذا نصحتنى بأن أقضى معها وقتا أطول مع ادراكى أن ذلك جزء مهم من الحل لكن ظروفى أقوى منى فى الوقت الحالى بسبب التوسعات التى قمت بها فى العمل ولأننى لن أستطيع التخفف من مسئولياتى هذه قبل عام أو عامين على الأقل فبماذا تشير علىّ أن أفعل مع زوجتى لكى أخفف عنها أحزانها مع مراعاة ظروف عملى هذه . . وهل تستطيع أن توجه إليها كلمة تساعدها بها على تقبل الأمور والرضا بما أراده وسوف يريده لنا الله سبحانه وتعالى . . وأخيرا فإننى أقول لمن يتصارعون حول المال وحده ان المال ليس كل شىء فى الحياة ، وان سعادة الإنسان لا يحققها إلا الرضا بما أراده الله للإنسان ، ولينظر من لا يصدقنى فى ذلك إلى حال زوجتى التى تبكى كثيرا وتشرد كثيرا ولا يخفف من حزنها شىء رغم توافر كل مطالب الحياة المادية لها . . ورغم رخاء حياتنا معا .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لاحظت خلال اقترابى من هموم الآخرين وأحزانهم لسنوات طويلة ، أن امتثال كل من الزوجين اللذين حرمتهما الأقدار من الانجاب قد يختلف أحيانا فى العمق والأثر أحدهما عن الآخر ، وفى كل الأحوال فلقد لاحظت أيضا أنه حتى بالنسبة للزوجين اللذين يتفقان فى عمق امتثالهما لمشيئة ربهما فيما يتعلق بالانجاب ، فإن الزوج قد يتقبل حياته ويتواءم معها ويتخلى نفسيا عن التعلق بأمل الانجاب ادراكا منه لاستحالته

وقبولا بأقداره ، أما الزوجة فإنها حتى وهى تقبل بحياتها بغير انجاب وترضى عنها نسبيا ، فإنها فى كثير من الأحيان قد لاتتخلى فى أعماقها عن الأمل الغامض فيه وقد لا تنجو فى أحيان أخرى من آثار تفاعلات هذه الرغبة المكتومة لديها على حياتها الزوجية إلا بعد أن يوغل قطار العمر فى طريقه وتتأكد نهائيا من استحالة هذا الأمل المعذب .

وفى تقديرى فإن ذلك لا يرتبط فقط بقوة غريزة الأمومة لدى المرأة ، وانما يرتبط أيضا باحساسها بالأمان فى علاقتها بزوجها وبهواجسها بشأن احتمال تأثر حياتها الزوجية بعدم الانجاب فى المستقبل أو احتمال شرود زوجها عنها فى بعض مراحل العمر المقبلة طلبا للانجاب فى حياة زوجية أخرى .

ولهذا فإن اشعار الزوج لزوجته بالأمان والثقة فى الغد عامل جوهرى مهم من عوامل مساعدتها على تقبل حياتها بغير انجاب والتماس التعويض عنه فى جوانب حياتها العاطفية الأخرى مع زوجها . .

وفى هذا المجال فإن الكلمة الشاردة من جانب الزوج عن أمله فى الانجاب حتى ولو كانت من قبيل الدعابة تؤلم مشاعر زوجته المحرومة أشد الإيلام وتوقظ لديها هواجسها الكامنة بشأن استمرار حياتها الزوجية مع زوجها ، بل انه حتى مغالاة الزوج فى الاهتمام بأطفال الآخرين قد تترك أثرا عكسيا لديها يشعرها بعمق إحساس زوجها بالحرمان وبالقلق الغامض ازاء تطلعه المحروم للأطفال والانجاب . ولأن الأحزان المشتركة ينبغى لها أن تقرب بين من يكابدونها وليس العكس ، فإن مثل هذين

الزوجين ينبغى أن يحرص كل منهما أشد الحرص على مشاعر شريك حياته ، وعلى أن يشعره فى كل لحظة بسعادته معه واكتفائه به ورغبته الأكيدة فى مواصلة الرحلة معه حتى نهاية العمر ، وكلما ترسخ إحساس الاطمئنان للغد فى نفس الزوجة ازداد تقبلها لواقع حياتها وازداد احساسها بالأمان مع زوجها .

ولاشك أنه من حق كل إنسان أن يتطلع إلى استكمال جوانب حياته الناقصة اذا كان ذلك متاحا وميسورا ، لكنه ليس من حقه أبدا أن يغالى فى تركيز أنظاره على ما ينقصه وحده فيحول ذلك دون أن يستشعر أهمية ما بين يديه ودون أن يرضى عما منحته الأقدار واسبغت به عليه من نعم أخرى عديدة ، ولأن الرضا لمن يرضى والسخط لمن سخط كما جاء فى مضمون الحديث الشريف ، فلن يسعد بحياته فى النهاية إلا من يقبل بها وبنواقصها التى تختلف من إنسان لآخر .

كما لن يسعد بها أيضا إلا من يتعلم بتجربة الأحزان أن يبتسم لألمه الشخصى كما ينصحنا بذلك الكاتب الأمريكى مارك توين أى أن يقبل به ويبتسم ـ رغم ذلك كله ـ ابتسامة الرضا بحياته ولن يسعد بها كذلك من يتعلق بالأمل المستحيل الذى لا ترشحه ظروفه لبلوغه مهما كابد من عناء، فيعذب نفسه بالتطلع إلى ما لن يدركه أبدا وبأحزان خيبة الأمل عند كل فشل . . لهذا فقد قيل قديما ان الرجاء عبد واليأس حر . . لأن الإنسان حين يرجو ما يتطلع إليه فإنه يسترق نفسه لما يأمل فيه ، ويترقب تحقيقه خائفا مرتعبا . . فى حين انه لو سلم بارادة الله وكف عن التطلع

إلى ما لم تشأه له الأقدار لتحررت طاقته النفسية من الأحزان والترقب وهواجس الانتظار وخيبة الرجاء .

ونصيحتى الوحيدة لزوجتك الفاضلة هى ألا تسمح لهواجس الترقب والخوف من المستقبل بأن تفسد عليها حياتها وأمانها وسعادتها وأن تثق بربها ونفسها ويومها وغدها وأن تردد لنفسها دائما ما قاله أحد الصالحين فى ظروف مماثلة وهو : الخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى . .

أما أنت يا صديقى فإن كانت ظروف عملك لا تسمح لك الآن بأن تطيل من أوقات وجودك إلى جوار زوجتك لتخفف أحزانها وتطرد عنها أشباح القلق والاكتئاب والهواجس . . فإنك تستطيع على الأقل ، وإلى أن تسمح لك الظروف بقضاء وقت أطول معها ، أن تجعل اقترابك منها أكثر عمقا من ذى قبل حتى وأنت بعيد عنها جغرافيا ، فالاقتراب على مستوى السطح لا يحقق شيئا كثيرا فى ترسيخ التفاهم بين الشريكين ، وانما يحقق ذلك ما يسميه بعض خبراء العلاقات الزوجية الآن ، بالاقتراب عن عمق ، أى بتأكيد المشاعر لشريك الحياة فى كل حين ، وتأكيد اعتزاز الإنسان به وإشعاره بأنه شخص شديد الأهمية فى حياته وانه لا يزال يرغبه ويسعد بقربه ويفتقده اذا غاب عنه ولا يتصور حياته بغير وجوده فيها ذات يوم . .

وهذا هو الاقتراب فى « العمق » . . وليس فى « المكان » وهو لا يحتاج

إلى تقارب المسافات الجغرافية ولا الوجود فى الجوار لفترات طويلة وانما إلى تقارب القلوب والنفوس والمشاعر ، وقد تغنى لحظة واحدة منه عن ساعات طويلة من الاقتراب فى المكان لا يكون خلالها بين الشريكين ما يجمعهما على مستوى السطح من قرب المكان وطول الزمان . . فحاول ذلك يا صديقى مع زوجتك . . وضاعف من جهدك لإشعارها بالأمان والاطمئنان والثقة فى الغد ، ولسوف تنقشع سحب الهموم والأحزان عن سمائكم المشتركة تبعا لذلك بإذن الله . .



نظرة الاستعلاء

أنا موظف بمصلحة حكومية فى الأربعين من عمرى ، جمعت الأقدار بينى وبين فتاة من معارف أسرتى ، وارتبطنا بخطبة استمرت حوالى عامين تمكنت خلالها وبالديون والأقساط من تدبير تكاليف الزواج والمسكن ، وتزوجنا وبدأنا حياتنا الزوجية ، ونحن نحلم كغيرنا بالسعادة والامان ، وأنجبنا ثلاثة أطفال ، ثم بدأت منازعات الحياة الزوجية المألوفة بيننا ؛ بسبب سخط زوجتى الدائم على مستوانا المادى . . وتطلعها لحياةٍ أفضل .

وكان أكثر ما يثير زوجتى ، هو أن لى شقيقاً ميسورًا ، يعمل بالأعمال الحرة ، ويعيش فى بحبوحة من الرزق ، فحثتنى مرارًا على أن أستقيل من وظيفتى ؛ لأعمل معه بالأعمال الحرة ، وضغطت على كثيرًا من أجل ذلك ، وكلما قلت لها أننى لا أفهم فى الأعمال الحرة ولا أمل لى فيها ، وأن كل إنسان له رزقه المقدور ، وعليه أن يقبل به ، ثارت علىّ واتهمتنى بالكسل والتخاذل ، وتساءلت ماذا تزيد عنها فلانة « زوجة أخى » ؛ لكى تعيش حياة أفضل منها ؟ ثم تطالبنى بتوفير كل ما تحتاج إليه هى

والأبناء، وترفض ان تسهم فى ميزانية البيت بأى جزء من مرتبها ، مع إننى لا اقصر فى العمل ، وأعمل ساعات إضافية كل يوم ، ومجال عملى يتيح لى أبواب الرزق الحرام ، ولكنى أرفضه وأخشاه ، وأخاف منه على أبنائى .

كما أننى لست فى النهاية معدماً ، فقد انتقلت خلال سنوات الزواج بزوجتى وأبنـائى مـن شقة قديمـة مؤجرة فى حى شعبى إلى شقة تمليك لا بأس بها ، اشتريتها بالتقسيط على عشرين سنة ، عن طريق العمل ، واشتريت كذلك سيارة مناسبة جديدة أحمل بها زوجتى كل صباح إلى عملها ، وانتظر خروجها من عملها ؛ لأعيدها إلى البيت ، حتى ولو كنت لم أنته من عملى بعد ، كما أنى قد عملت أيضاً لمدة عام خارج مصر ، ورجعت إلى عملى فى بلدى قبل أن أفقده ، وإلى أبنائى ، قبل أن يطول افتقادهم لى .

ورغم ذلك ظلت زوجتى ساخطة ومتذمرة ؛ لأنها كانت تريدنى أن أغيب عن أبنائى بضع سنوات ، وليست سنة واحدة ، وراحت تتوعدنى بأنها ستهجرنى ، إن لم أتحرك وأفعل شيئاً يرفع من مستوى حياتنا . . ناهيك عن سوء عشرتها لى ومخالفتها لإرادتى فى كل شىء، من أكبر الأشياء إلى أتفهها . . فكل ما أريده ترفضه ، وكل ما أراه ترى هى عكسه دائماً ، وهكذا .

ومع ذلك . . فلقد تحملتها ، وتمسكت باستمرار الحياة معها من أجل أبنائنا الصغار إلى ان بدأت زوجتى تطالبنى بالطلاق بإصرار ، وتغرينى بأنها سوف تتنازل عن كل حقوقها ؛ فى سبيل الحصول عليه ،

وتحيرَّت فى أمرها طويلاً ، ورفضت منحها الطلاق أملاً فى ان تراجع نفسها، وسألتها مرارًا : وما ذنب هؤلاء الأطفال الصغار فى أن يتمزقوا بينى وبينك بعد الطلاق ؟ فكانت تجيبنى بأنه لا ذنب لهم ، ولكن هذا هو قدرهم . وسوف يحيون ويتجاوزون الأزمة ، كما فعل غيرهم من قبل.

وواصلت الضغط علىّ لمنحها الطلاق ؛ حتى طلقتها مرغمًا ، وهجرت بيت الزوجية، ورجعت الى بيت أسرتها . . ولم أقبل فى الحقيقة طلاقها ، إلا حين أسرَّ إلىّ أحد أقاربها بأنها تنوى الزواج من زميل لها فى العمل ميسور الحال ، وقادر على إسعادها كما تتصور ، فطلقتها ونفسى تغص بالمرارة . . وهونت الأمر علىّ بأنه أكرم لى أن اطلقها، حتى ولو تعذب أبنائى بالطلاق ، من ان ترتبط برجل غيرى ، وهى ما زالت زوجتى ، وتجرعت الألم صامتا ولم أنازعها فى شىء بعد الطلاق ، ولم أضع العراقيل بينها وبين أطفالها ، وتذكرت دائما ما قرأته لك نقلاً عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أن خير ما نعاقب به من لم يتقوا الله فينا ، هو أن نتقى الله نحن فيهم ، وأتقيت الله بالفعل فيمن لم تتق الله فىّ ولا فى أبنائى وابنائها ، وسلمت لها بما أرادت .

وترقبت أن تتزوج الآخر الذى هجرتنى من أجله بسبب ما يعدها به من حياة أرقى وأفضل ، فاذا الشهور تمضى بها وهى بلا زواج فى بيت أهلها . . وإذا بمن كنت أوصلها إلى عملها بسيارتى كل صباح ، تذهب إلى عملها بالميكروباص ، لأنها لا تستطيع تحمل نفقات سيارة

الأجرة كل يوم . . وشعرت ـ لا أخفيك ذلك ـ بشىء من الشماتة فيها . . وتساءلت : وأين الآخر الذى وعدها بجنات النعيم من بعدى ؟ ثم علمت أنه خذلها ولم يف بوعده لها . . ومرة أخرى شعرت بشىء أشد من الشماتة فيها . . ورجوت الله إن يعيد إليها عقلها ؛ لكى تعرف قيمة من كان يطلب سعادتها ورضاءها بلا جدوى .

ومر عام على الطلاق . . فإذا بى أعلم أن زوجتى السابقة قد تزوجت من زميلها ، وأنه احتاج إلى عام طويل من التفكير والتردد والضغط عليه ؛ لكى يتزوجها . .

وكما كنت صريحًا معك ، وقلت لك إننى قد شمت فيها حين خذلها ، فلابد أن أكون صريحًا معك أيضًا ، وأقول لك إننى شعرت حين عرفت ذلك بإحساس مؤلم من الضيق والخجل . . والابتئاس ، لا أعرف له تفسيرًا . . ثم هونت الأمر على نفسى بعد ذلك بأن هذه هى إرادة الله ، وان الحياة لن تتوقف بزواج زوجتى السابقة من غيرى . . واننى أستطيع أنا أيضاً الزواج من أخرى أجد لديها ما لم أجده لدى أم أبنائى من حب وتقدير وحنان .

وانشغلت بعملى أكثر من أى وقت سابق ؛ لأنتشل نفسى من أفكارى ، وواصلت التعامل مع زوجتى السابقة ، فيما يتعلق بأبنائنا ورؤيتهم ومطالبهم باحترام ، وبلا مشاكل من أى نوع . .

ولاحظت حين رأيتها بالمصادفة بعد زواجها عند ذهابى بأولادى إلى

بيت أسرتها ، أنها تنظر إلىّ نظرة الاستعلاء والتفوق ، مع أننا لم نتبادل سوى كلمات المجاملة العادية ، ورجعت من هذه الزيارة عاقدًا العزم ، أكثر من أى وقت مضى على أن أتزوج أنا الآخر، وأهتم بحياتى الخاصة . .

وبدأت أتلفت حولى باحثاً عن زوجة ، وصارحت أهلى برغبتى ، وبدأوا يعرضون علىَّ ترشيحاتهم من السيدات المناسبات ، وأناقش ظروف كل مرشحة على حدة ، وأفكر فيها بعمق وروية ، وحين استقر رأيى على إحداهن ، وهممت بأن أطلب من شقيقتى مفاتحتها برغبتى فى الارتباط بها ، فوجئت بزميلة زوجتى فى عملها تتصل بى وتطلب مقابلتى على وجه السرعة ، والتقيت بها فإذا بها تحمل رسالة من زوجتى السابقة بأنها ترغب فى العودة للحياة معى مرة أخرى ؛ لأنها لم تجد السعادة مع زوجها الثانى . .

ورغم إحساسى بالارتياح ، بل وبشىء من الزهو لهذه الرسالة المفاجئة . . . فإننى استمهلت زميلة زوجتى بعض الوقت ؛ للتفكير فى عرضها قبل الرد عليها ، واستغرقت أيامًا كاملة فى التفكير فيه ليلاً ونهاراً، ووجدتنى فى الموعد المحدد لإبلاغها بردى ، أجيبها بالاعتذار عن عدم قبول عودتها لى مرة أخرى ! لماذا ؟ هل هى شهوة الانتقام ؟ هل هى ذكريات التعاسة والخلاف معها ؟ هل هى رغبة التشفى فيها ؟ لاأعرف على وجه التحديد ، والله عليم بما أقول ، فلقد بكيت بمرارة ، حين أرغمتنى على طلاقها . . وشعرت بالهوان والضياع ؛ حتى كنت

استجديها الاستمرار ومواصلة الحياة معى ، وتمنيت فى أعماقى بعد طلاقها بأسابيع وشهور ، أن ترجع إلىّ نادمة .

بل وتخيلت نفسى مراراً ، وهى ترجع إلىّ باكية ، وتقول لى إنها قد أدركت الآن خطأها فى حقى ، وتريد أن تبدأ معى من جديد ، فأتردد فى القبول قليلا . . ثم لا ألبث أن أقبل راجيًا أن تكون قد تعلمت الدرس واستفادت من أخطائها . . فلماذ أرفض الآن يدها الممدودة إلىّ ؟ . لم اجد جواباً صريحًا عن هذا السؤال إلى الآن . .

ولعلك تساعدنى فى التوصل إليه . . ولقد اتصلت بى صديقتها مرة أخرى فأكدت لها من جديد رفضى . . وعجبت حين أبلغتنى برد فعل زوجتى السابقة لرفضى عودتها إذ قالت لها متعجبة : وما ذنب الأطفال الصغار فى أن يتمزقوا بينى وبينه ؟

وتذكرت على الفور ما كانت تجيبنى به ، حين أقول لها هذه العبارة المؤلمة نفسها ، وأنا أحاول إقناعها بالعدول عن طلب الطلاق ، وتعجبت كثيراً من تغير الأحوال والأقوال ، فكأنما قد انعسكت الآية وتبادلنا الأدوار ، ثم التقيت بها للحظات عابرة ، خلال زيارة الأبناء لها؛ ففوجئت بها تنظر إلىّ نظرات غريبة صامتة ، كأنما تتعجب بها من أنى أرفضها ، وأنا الذى كدت ان أقبل قدميها ؛ لكيلا تهدم بيتنا وتهجره، كما لاحظت أيضًا أن نظرة الاستعلاء والتفوق ، التى كانت تلمع فى عينيها فى اللقاءات السابقة قد انطفأت ، وحلت محلها نظرة واجمة ساهمة .

ولكننا رغم ذلك لم نتبادل كلمة واحدة حول الموضوع ، وانصرفت ، وأنا أفكر فى أمرها ، وفى أمرى معها .

إن صديقتها ما زالت تتصل بى من حين لآخر ، وتسألنى : أمازلت عند رأيى ؟ فأجيبها الإجابة نفسها ، ولكنى أعترف لك ايضًا أننى أتمنى فى أعماقى ألا تتوقف عن الاتصال بى ، وعن متابعة سؤالى عن موقفى من زوجتى السابقة . . لكيلا أفقد هذا الخيط الذى يربطنى بها .

فماذا تفسر هذه الرغبة الدفينة عندى ؟ وهل ترانى أتطلع لأن تستمر صديقتها تلاحقنى ؛ لكى أعطيها بعد فترة الضوء الاخضر بالقبول ؟ وهل تنصحنى بقبول عودة زوجتى السابقة إلى بعد كل ما فعلت بى . . علمًا بأنى قد بدأت ألمس بعض التغيرات الإيجابية فى شخصيتها ، من خلال حديث صديقتها عنها ، ومن خلال أقوال بعض أفراد أسرتى؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أما وأنك تود فى أعماقك أن تستمر صديقة زوجتك السابقة فى ملاحقتك والاتصال بك وحثك على قبول عودة أم أبنائك إليك ؛ فلأنك ترغب بالفعل فى أن ترجع زوجتك السابقة إلى بيتك وحياتك وأطفالك ، ولكنك تنكر على نفسك هذه الرغبة ، وتخجل من الاعتراف بها . . وتتمسك بالرفض ، لا نفورًا من شخص زوجتك السابقة أو زهدًا فى عودتها إليك ، وإلى أطفالها ، وإنما انتصارًا لكرامتك الشخصية

الجريحة ، وثأرًا لمعاناتك المريرة التى تجرعتها حين تمسكت بالطلاق منك . . وحين تزوجت غيرك .

وبقدر عمق الجراح ، يطول وقت الشفاء . . والمؤكد هو أن نفسك لم تشف بعد من جراحها ، وأنك مازلت فى مرحلة النقاهة مما أصاب النفس من شروخ ؟ والحق هو أن أعمق هذه الشروخ ليس هو شرخ إصرار زوجتك على الانفصال عنك ، وإنما شرخ زواجها من آخر نما إلى علمك أنها كانت ترتب للزواج منه بعدك ، بدعوى أنه أقدر على توفير الحياة اللائقة بها منك ، فهذا هو الجرح الحقيقى يا صديقى ، الذى يحول بينك وبين الصفح والنسيان خلال وقت قصير . .

ولو لم تكن زوجتك السابقة قد تزوجت هذا الشخص بالذات ، أو لو لم يكن هو موجوداً من الأصل فى خلفية الصورة من البداية ، لما احتاج الأمر منك إلى تردد طويل فى قبول رجوعها اليك ، فأنت كأى أب ، حريص على مصلحة أبنائه الصغار ، يسعدك أن ترجع أمهم اليهم ، وأن تقر بخطئها فى حقك ، وأن تعترف لك بقدرك الذى أنكرته عليك من قبل ، ولكنك « كزوج » تشعر بالمرارة ؛ لأن يكون سبب فراقها عنك وعن أطفالها هو رجل آخر ، حتى ولو كانت قد تزوجته بعد ذلك ، وحتى أيضًا لو كانت قد اكتشفت وهم السعادة ، الذى طلبته لديه بعيدًا عنك وعن أبنائها !

ومن ثم . . فليس غريبًا عليك أن تتردد بين الرفض الصريح المعلن . . وبين الرغبة الباطنية الخفية فى أن تواصل زوجتك السابقة سعيها

إليك ورغبتها فيك . . فالرفض هنا هو رفض الزوج و « الرجل » ، الذى يأنف من التجاوز بسهولة عن نقض العهود وخيانة الوفاء . والرغبة هى رغبة الأب ، الذى يهفو قلبه إلى استقرار أطفاله بين أبويهما ، وما زال يأمل فى أن يتجاوز الحواجز النفسية ، ويستعيد لهم حياتهم الآمنة المستقرة .

غير أنى - على الناحية الأخرى - لا أرى فى سعيها إليك ما يشير إلى أنها قد تعلمت من أخطائها شيئًا جديرًا بتسجيله لها ، أو أنها قد اكتسبت خبرة جديدة ثمينة من تجاربها السابقة . بل لعلى أراها فيه تكرر به الخطأ الأخلاقى نفسه ، الذى وقعت فيه من قبل ، حتى ولم تخرج فيه عن حدود العرف المحفوظ ، وهو أن تسعى - وهى فى عصمة زوج تحمل اسمه - إلى رجل آخر ، وتتفاوض معه عن طريق وسيط فى الارتباط به ، وتكرارها لهذا الخطأ حتى فى حدود العرف المحفوظ ينبىء بأنها لم تتغير كثيرًا إلى الأفضل من هذه الناحية على الأقل ؛ لأن سعيها غير المباشر إلى رجل آخر ، عدا زوجها - حتى ولو كان والد اطفالها - يتناقض بالضرورة مع أمانتها كزوجة ، ومع إخلاصها لمن ارتبطت به .

فإذا كانت صادقة العزم حقًّا على أن تكفر عن خطئها السابق فى حقك ، فليكن أول ما تقنعك به بصدق تغيرها ، هو أن تعترف بلا أخلاقية هذا السلوك من الأصل ، وأن تكف عن تلمس الخطى لنفسها قبل الانفصال عمن ترتبط به .

والإنسان الذى لا يتعلم من أخطائه ولا تجاربه لا أمل فيه ولا رجاء ،

والمرء ليس مطالباً فقط بأن يتعلم من أخطائه وتجاربه الشخصية ، بل ومن أخطاء البشر جميعا وتجارب الإنسانية كلها ، وفى ذلك يقول لنا الشاعر الألمانى العظيم جوته إن « من لم ينتفع بدروس ثلاثة الآف عام من عمر البشرية ، لم يتجاوز زاده من الخبرة الإنسانية خبرة يوم بيوم ، ولسوف يكرر أخطاءه أيضًا يومًا بعد يوم »

وبقدر الخطأ ، يكون حجم التكفير عنه يا صديقى . . فإذا كانت زوجتك السابقة قد تنبهت إلى أخطائها ، واستيقظت أمومتها ، وتنبه إحساسها بواجبها الدينى والإنسانى تجاه أبنائها . . فعليها أن تبذل فى إقناعك بذلك ، وفى السعى للعودة اليك ، الجهد نفسه ، الذى بذلته من قبل فى مطالبتك بالطلاق والإصرار عليه ، إن لم يكن أكثر ! وإذا كانت لم تسعد بحياتها الشخصية مع من هجرتك للارتباط به ، فلتطلب الطلاق منه ، ولتحصل عليه بغض النظر عن احتمال عودتها إليك أو رفضك لذلك ، ولتقبل بذلك أيضا ثمنًا عادلاً لخطأ هجرها لأطفالها ، وتمردها على زوجها ، الذى لم يقصر فى محاولة استرضائها والحفاظ عليها .

ثم فلتسع إليك بعد ذلك ، راجية أن تتجاوز عما جرى منها ، حرصاً على مصلحة الأطفال ، وأملاً فى تخطى المرارات ومواصلة الحياة إلى بر الأمان . . فهذه هى الخطوة الأولى على طريق التكفير عن الأخطاء . . والاستفادة بدروسها ، ولسوف يعينك ذلك بالتأكيد على اتخاذ القرار الملائم ، الذى يحقق صالح الأبناء ، ومصالح الطرفين بغير حساسيات ولا مرارات سابقة . .

إما أن تتفاوض معك ، وهى فى عصمة هذا « الآخر » على العودة اليك مرة أخرى ؛ لأنها لم تجد السعادة معه أو لم تجدها وهو الأرجح ، بعيدًا عن أطفالها فتقبل أنت بذلك على الفور ، وترجع المياه إلى مجاريها بلا عناء هكذا ، فليس ذلك مما يعينها على استيعاب درس التجربة ، ولا على الاستفادة منها ، ولا عجب فى ذلك ، ولا غرابة ؛ لأن « أسرع الاشياء نموًا أسرعها فناء ، وأبطأها حدوثا أبطؤها نفادًا ، وما دخل عسيرًا لم يذهب يسيرًا » كما يقول لنا الإمام ابن حزم الأندلسى . . . فاطلب من تلك الوسيطة ، أن تبرهن زوجتك السابقة على أنها قد تعلمت حقًّا من تجربتها بالكف عن هذا الخطأ الاخلاقى ، الذى تمارسه الآن بالتفاوض معك عن بعد ، وبأن تتخذ قرارها بشأن حياتها مع زوجها الحالى ، بغير شروط مسبقة ، ولا ضمانات من جانبك ، ثم فلتفكر أنت بعد ذلك ـ إن هى فعلت ـ فيما تتخذه بشأنها من قرارات ، مراعيًا فى ذلك ما يحقق صالح أطفالك قبل كل شىء ، وما يلبى أيضًا رغباتك الحقيقية ، حتى ولو لم تعترف بها بعد مرور الفترة الملائمة لتجاوز المرارات . . والصفح عن الأخطاء .





ميراث الحقد

أنا فتاة فى التاسعة عشرة من عمرى ، أدرس بإحدى الكليات المرموقة ، ويشهد لى الجميع بحسن الخلق والأدب الجم ، وأعامل الجميع من حولى بحب واحترام ، ماعدا شخصًا واحدًا ، أرجو ألا تكون قاسيًا على حين تعرف من هو !

فلقد نشأت يا سيدى بين أبوين متشاحنين باستمرار ، وسمعت من أمى دائمًا ـ وطوال الوقت ـ أنها منذ زواجها بأبى ، وهى تحمل له كل مشاعر الكراهية والاحتقار ، وكيف أن زواجها به كان مؤامرة دبرها أهله ؛ لكى يتخلصوا منه ومن طباعه التى لا يتحملها أحد ، فتعمدوا ألا يتيحوا لها خلال فترة الخطبة الالتقاء به كثيرًا ، وباعداوا بينه وبينها بمبررات مختلفة ، حتى أنها لم تره خلال الخطبة ، سوى مرة واحدة ، وللحظات لم تسمح لها بالحكم عليه .

ثم حين اكتشفت بعد الزواج طباعه السيئة ، كانت قد حملت فى ،

فقررت أن تضحى بنفسها من أجلى ، ومن أجل إخوتى الذين جاءوا بعدى ، وواصلت الحياة معه كارهة له منذ اليوم الأول .

هكذا راحت تصف لى ولإخوتى والدنا منذ طفولتنا المبكرة بأبشع الصفات وتلقنها لنا . .

ولأننى أحب أمى حبًّا شديدًا ، وارتبط بها ارتباطًا لا حدود له . . فلقد اكتسبت معظم صفات أمى ، وتشربت منها كرهها لأبى ، وأصبحت أصدق تمامًا ما تصفه به من البخل وضعف الشخصية ، وصفات أخرى عديدة ، أخجل من ذكرها ، ولا أستطيع إلا أن أصدقها، فتحولت إلى ابنة كارهة وعاقة لأبيها ، استمتع بمعارضته وتجاهله وبمعاملته ببرود أحيانًا ، وبعصبية شديدة فى أحيان أخرى ، وهو شعور إخوتى أنفسهم تجاهه ، كما أصبحت لا أطيق أن أجلس فى مكان واحد مع أبى ، أو أن أسمع صوته أو اسمه فى أى حديث ، ولكنى فى الوقت نفسه لا أطيق أيضًا أن أسمع أحدًا يغتابهُ بسوء أمامى، كما اعتاد أقارب أمى أن يفعلوا .

إننى أعرف أننى بسلوكى هذا تجاهه ، استحق لهيب جهنم لعقوقى لأبى ، ولقد حاولت الإقلاع عن ذلك مرارًا ، وتحسين معاملتى لأبى ، ولو حتى بالصمت وتحاشى الحديث معه ، ولكنى فشلت فى ذلك مرارًا أيضًا ، فقد كنت كلما هممتُ بذلك ، يقفز إلى ذاكرتى حديث أمى المرير عنه ، وكيف كان السبب فى مرضها بالسكر وضغط الدم ، وكيف أنها لم تنعم بزواجها منه كباقى النساء ، كما أننى لم أنس أبدًا ، كذلك ذكريات

المشاجرات العديدة التى كانت تنشب بينهما خاصة فى طفولتى ، والتى كانت تصل أحيانا إلى التطاول بالأيدى ، أو إلى اللجوء إلى قسم الشرطة.

كما أننى لم أنس أبدا ولن أنسى تشتتنا ، ونحن صغار فى بيوت أقارب أمى ، ومعاملتهم القاسية و إهمالهم ، حين كانت أمى تلجأ إليهم خلال خلافاتها مع أبى . . لم أنس كل ذلك ولن أنساه . .

وكانت النتيجة هى أن أصبح وجه أبى أو صوته كابوسًا يطاردنى ويفزعنى فى صحوى وفى نومى ، فحين استسلم للنوم ، يهاجمنى غالبًا كابوس مخيف ، أرى نفسى فيه ، أزف إلى شاب ، أقبل به فى أول الأمر، وحين يتم الزفاف اكتشف أنه أبى أو شخص آخر شبيه به ، ويتصرف تصرفاته نفسها التى كرهتها من أعماقى ، وأرى نفسى أفشل فى حياتى الزوجية ، وأواجه مصير أمى نفسه ، لكنى لا أستطيع التراجع فأضرب «أبى » فى الحلم ضربًا عنيفًا مبرحًا ، وأرميه بأبشع الألفاظ ، وهو يتحملنى صابرًا ، ثم يتحول فى نهاية الحلم أو الكابوس إلى وحش مخيف يقتلنى بنظراته .

إننى أشعر بشدة بتأنيب الضمير ، ولكن صدقنى أننى لا أظلم أبى ، فإن سلوكه لا يتحمله كثيرون ، حتى إخوته الذين ينفرون منه ولا يسألون عنه ، ولست أنكر أنه طيب القلب وحنون ، ويدللنى أنا بصفة خاصة ، ولكن ما أسمعه من أمى عنه وما رأيته منه ، يجعلنى أكرهه ولا أستطيع أن أشعر نحوه بمشاعر الابنة تجاه أبيها ، ولا بمشاعر

الاحترام ، كما أننى لا أجد فيه صورة الأب كما أتمناها ، ولا المثل الأعلى للأب والصديق ، الذى تتمناه كل فتاة .

إننى أموت رعبًا وخوفًا من المستقبل ، وفى حين أتحين الفرص لقبول أول شاب ، يتقدم لخطبتى هربًا من جحيم الأسرة ؛ فإنى أخاف بشدة من الارتباط بأى رجل ، إذ من يدرينى أنه لن يكون صورة أخرى من أبى ، وأمى تقول لنا ـ منذ الصغر ـ إنها لم تكتشف حقيقته إلا بعد الزواج ؟

إننى أخاف أن أواجه هذا المصير نفسه ، وأشعر شعورًا غامضًا بأن الله سبحانه وتعالى سوف يعاقبنى بشدة على عقوق لأبى فى الدنيا والآخرة ، وأن عقابه قد يكون فى ابتلائى بزوج له صفات أبشع مما كرهته أمى فى أبى ، وقد يكون فى حرمانى من الزواج نهائيًّا أو من الأمومة إذا تزوجت ، كما حرمت أنا أبى من بنوته لى .

فماذا أفعل يا سيدى ، وكيف استطيع تغيير معاملتى الجافة لأبى ؟

لكاتبة هذه الرسالة أقول :

إذا كان والدك كما تصوره لك أمك منذ طفولتك هو البشاعة التى لا يحتملها بشر ، والفرد الذى لا شبيه له ، ولا يمكن أن يأتى عملاً أو سلوكًا غير معيب أو منتقد ، حتى ولو من باب الخطأ . .

إذا كان كذلك فعلاً ـ وهو ما أشك فيه ـ فماذا عن والدتك التى اغتالت براءة مشاعرك منذ الطفولة ، وأفسدت عليك قيمك ومثلك

العليا ورؤيتك للحياة والمستقبل ، حين أورثتك هذا الميراث العظيم من الحقد على أبيك وكراهيته وكراهية كل الرجال معه ؟ ألا تتحمل هى أيضًا بعض اللوم عما فعلت بك وبإخوتك ، أو لا يدعوك ذلك إلى إعادة التفكير فى الأمر كله ، وفى علاقة أبويك كل منهما بالآخر ، فربما قادك ذلك إلى تعديل بعض أفكارك الخاطئة عن أبيك وأمك والرجال والمستقبل !

لقد فعلت بك أمك يا آنستى أسوأ مما فعل أبوك بها ، حتى ولو صح كل ما ترويه لك عنه، فوالدك - لو صح ما تنسبونه إليه - إنما قد جنى على أمك وحرمها من السعادة الزوجية ، أما والدتك «الشهيدة» التى ضحت بسعادتها من أجل أبنائها . . فلقد جنت على هؤلاء الأبناء أنفسهم ، بأكثر مما جنى أبوهم على أمهم ؛ حين صدَّرت إليهم مشكلتها مع زوجها الذى لم يرغمها الأبناء على الزواج منه ولا حيلة لهم فى طباعه وسلوكه ، وحين أورثتهم هذا الميراث المرير ، وما كان أسهل أن تجنبهم إياه ، وألا ترشحهم به للاضطراب النفسى ، وتقدمهم للحياة خائفين من المستقبل متوجسين منه ، كما هو حالك الآن يا آنستى .

فمن الظلم البين أن تورث أم أبناءها هذا الميراث المشئوم ، مهما كانت تعاستها بأبيهم ، ومن يضحى بسعادته الشخصية من أجل أبنائه لا يحق له أن يستأدى هؤلاء الأبناء ثمن هذه التضحية بإفساد رؤيتهم للحياة ، وقيمهم ، ومثلهم العليا ؛ إذ إن ذلك يتعارض أساسًا مع منطق التضحية من أجل هؤلاء الأبناء ، ويتعارض أيضًا مع الحب الحقيقى

الرشيد لهم والحرص الأمين على مصلحتهم ؛ « فالطفل الذى بلا أب كالبيت الذى بلا سقف » كما تقول لنا الحكمة البوذية القديمة ، ولقد رفعت عنكم أمكم هذا السقف المعنوى ، الذى يقيكم صواعق السماء منذ زمن طويل ، حين هدمت رمز الأب فى مخيلتكم ، ولم تقصر فى إشعاركم بكراهيتها الشديدة ، بل واحتقارها له أيضًا !

ولو لم تفعل ذلك بكم ، لربما تخففت حياتكم من كثير من أسباب الشقاء ، ولسمحت لمشاعركم الفطرية السليمة تجاه الأب بالنمو الطبيعى لها ، والاعتراف مما يمثله الأب فى حياة أبنائه من أمان وحنان ومثل عليا ، بل ولربما أيضًا كانت حياتها هى كذلك ، قد تخففت من بعض أسباب الشقاء بها ، حين تجد أبناءها يشبون فى جو عائلى أقرب إلى الصحة والسلامة مما هو الآن ، ويعوضون فى حياتهم ما حرمت هى منه من سعادة ، ولانحصرت أيضا مأساة التعاسة الزوجية بين طرفيها ، ونجا الأبناء مع دفع هذه الضريبة الباهظة لها .

ولم يكن ذلك بالصعب ولا بالمستحيل ، فما أكثر الأمهات اللاتى لم يسعدن بأزواجهن ، وحرصن رغم ذلك على ألا يسيئن إلى رمز الأب لدى أبنائه، ليس احترامًا لهذا الأب نفسه ، وربما كان لا يستحق احترامها الشخصى ، ولكن حرصًا على نفوس الأبناء من الاضطراب والتمزق ، وأداءً للواجب الدينى و الأخلاقى تجاه هؤلاء الأبناء .

فالتضحية التى يطلب صاحبها ثمنًا لها ، تفقد قيمتها ومعناها . . وتتحول إلى ابتزاز كريه للمشاعر والأحاسيس . .

والأم أو الأب الذى يشرك أبناءه ـ صغارًا كانوا أو كبارًا ـ فى همه بشريك حياته ، ولا يخفى عنهم كراهيته الشديدة ، بل واحتقاره له كما فعلت والدتك . . لا يحسن إلى هؤلاء الأبناء ولا يضحى بسعادته من أجلهم كما يتصور ، إذ أين تكون التضحية ، وقد استأدى الأبناء هذا الثمن الفادح لها بتسميم حياتهم وأفكارهم عن أقرب الناس إليهم، وعن الحياة بصفة عامة ، ويكفى ما تعانين منه أنت الآن من تمزق واضطراب وخوف من الرجال والزواج ، وتناقض فى المشاعر والأفكار ، دليلاً على بشاعة مثل هذه التضحية التى لا تستحق اسمها . . فأنت مثلاً كما تقولين ـ سامحك الله ـ تكرهين أباك من الأعماق بتأثير فحيح الأم التعيسة المستمر ضده فى أذنيك منذ الطفولة ، ولكن من ناحية أخرى تضيقين بمن يذكره بسوء فى غيابه ، ولاتعرفين تفسيرا لهذا التناقض !

وأنت أيضًا تتلهفين على الارتباط بأى إنسان يخرجك من هذا الجو العائلى المسموم ، ولكن تخشين بشدة الارتباط بأى رجل ؛ تحسبًا لأن يكون مثل أبيك ، وخوفا من أن تشقى به كما شقيت أمك بأبيك .

وأنت ترفضين أباك وتشعرين تجاهه بأبشع الأحاسيس ، وتترددين بين معاملته بجفاء أحيانًا ومعاملته بالعصبية الشديدة فى أحيان أخرى ، وتشعرين أنه يستحق منك كل ذلك، ولكنك من ناحية أخرى تعترفين له بطيبة القلب والحنان وتدليله لك أنت على وجه الخصوص ، وتجدين أثر ذلك فيما تشعرين به الآن من عذاب الضمير والإحساس بالذنب والإثم الدينى لعقوق أبيك والاجتراء عليه ، ومن خوف شديد مما ينتظرك من عقاب السماء لك على ذلك فى الدنيا والآخرة .

أما الكابوس الذى يزورك من حين لآخر وترين نفسك فيه قد تزوجت شابًّا رضيت به فى البداية ، ثم لا يلبث أن يكشف لك بعد الزفاف عن شخص أبيك « الكريه » ـ غفر الله لك ـ فتنهالين عليه ضربًا وسبًّا ، فليس ذلك سوى قمة ما أهدتك أمك إياه من ميراثها العظيم لك ؛ فلقد أورثتك الخوف الشديد من الزواج ، ومن الرجال بصفة عامة ، والتخوف الشديد من التعاسة قد يكون فى بعض الأحيان من أهم أسباب الوقوع فى براثنها ؛ لأن الخائف يسلك فى الغالب سلوكًا مضطربًا مترددًا ، قد يسرع إليه بما يخشى منه من حيث لا يدرى ، ولا عجب فى ذلك ، فحين « يجفل الحيوان يخطىء النظر » كما يقول لنا شاعر الرومان فرجيل ، وكذلك يفعل الإنسان ، حين يخاف بشدة فيخطىء النظر ، ويخطىء الحكم على الأشياء والأشخاص .

فإذا أردت يا آنستى النجاة بنفسك من كل ذلك ، والتخلص من إثم العقوق الذى يثقل ضميرك ، والتعامل مع أبيك بما أمرك به ربك ، فلن تستطيعى ذلك إلا إذا راجعت أفكارًا عديدة رسخت فى عقلك منذ الطفولة ، وقمت بتعديلها وتصحيحها ، ومن ذلك أن تتخلصى مما أرسته أمك فى عقلك من أن أباك وحده ـ وبلا شريك آخر ـ هو المسئول الأوحد عن شقاء الحياة بينهما بطباعه التى لا يحتملها أحد وسلوكه المعيب فى كل الأحوال ، فالحق هو أنه يندر أن يكون هناك طرف واحد من طرفى العلاقة الزوجية مسئول وحده ، وبنسبة مائة فى المائة عن شقاء هذه الحياة ، ودون أية مسئولية ـ ولو بقدر بسيط ـ على الطرف الآخر ..

فالمسئولية دائمًا مشتركة بين الطرفين ، وبنسب متفاوتة ، تجعل أحدهما المسئول الأكبر ، والآخر المسئول الأصغر عن ذاك .

ولو راجعت موقف أمك من أبيك الذى لا يطيقه أحد كما تقولين ، لاكتشفت أنها ليست مبرأة مائة فى المائة من كل خطأ ، أو تقصير ؛ إذ يكفى فقط أن أشير هنا إلى أنها لم تخف عن أبنائها ولا عن الجميع بالطبع كراهيتها واحتقارها له منذ اليوم الأول لزواجهما ، وهى جريمة كبرى فى حد ذاتها ، كما أنها لم تتورع أيضًا فى بعض الأحيان عن اللجوء للشرطة ضده ، مع أنه لم يكسر لها ذراعًا ولم يهددها بالقتل كما فهمت من سطور رسالتك ، وهذا السلوك وحده ، يكفى للتدليل على أنها لم تكن دائمًا الطرف المستسلم، الذى يتلقى الإساءة صابرًا ومضحيًا من أجل الأبناء، وليس هدفى من ذلك أن أسىء إلى صورة أمك فى مخيلتك، ومعاذ الله أن أفعل ، حتى ولو كنت غير راض عما أورثت أبناءها من ميراث كريه ، وإنما هدفى فقط هو أن تسلمى بأنك لا تصلحين كابنة ، لأن تصدرى الأحكام على أحد أبويك ، ولا على مدى مسئوليته عن شقاء الآخر ، ولا هو مطلوب منك أو من إخوتك أن يفعلوا ذلك من الأصل .

فليس من العدل أن يطلب أحد الأبوين شهادة الأبناء ضد أبيهم ، أو أمهم أو تأييده له ضد الآخر ، كما أن من الخطأ البين أن يشجع أحد الأبوين أبناءه على الانحياز إليه ضد الطرف الآخر ، وتبنى رأيه أو وجهة نظره فيه ؛ لأن موقف الأبناء من الطرفين، يختلف عن موقف كل منهما تجاه الآخر . . ذلك أن علاقتهما فى النهاية هى علاقة زوج بزوجته ، أو

زوجة بزوجها ، وهى علاقة ليست أبدية ؛ حتى ولو كانت مقدسة ويمكن فصمها دائمًا فى أى مرحلة من العمر ، أما علاقة الأبناء بالأبوين، فهى علاقة أبدية ، ولا يمكن فصمها .

فإذا اقتنعت أنت بكل ذلك ، أمكن لك أن تعدلى من أفكارك تجاه أبيك الذى ترينه الآن إنسانًا بشعًا لا يأتيه الحق من أمامه أو ورائه . . ولا يمكن أن يصدر عنه إلا كل ما هو مرفوض ومعيب ، ولأدركت أيضا أنه بشر كالبشر ، له عيوبه وله أيضًا فضائله ومميزاته ، ولأتاح لك ذلك أن تعيدى اكتشافه من جديد ، وأن تتعاملى مع الجوانب الطيبة والخيرة منه ، وتتركى شأن علاقته الزوجية بأمك لهما وحدهما ، يتدبرانها بما توجبه عليهما مسئوليتهما كزوجين وأبوين .

أما أنت وإخوتك ، فلستم الجناة فى قضية تعاسة أمكم الزوجية . . ولا أنتم القضاة فيها ولا الشهود ، وإنما أنتم أبناء مطالبون - فى كل الأحوال - بأن يعاملوا أبويهم معاملة كريمة وعادلة ، بغض النظر عن ظلم أحدهما للآخر أو إساءته له ، وأن يسمعوا إذا اضطروا للسماع شكوى أحدهما ضد الآخر ، على مضض ، وبغير أن يشاركوا فى إدانة الطرف المشكو فى حقه أو الشهادة عليه . . وبأن يسعوا دائمًا للفصل بين مشاعرهم تجاه أبويهم كأبناء ، وبين رأيهم فى طبيعة العلاقة الزوجية بينهما ، وكلاهما - فى النهاية - إنسان رشيد ومسئول عن أفعاله واختياراته فى الحياة ، ولا بأس بعد ذلك بأن يسعى الأبناء بالخير بين الطرفين ، ولو اضطروا أحيانًا للكذب الأبيض بهدف الإصلاح بينهما ، وإزالة المرارة من

النفوس ، وليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ؛ فينمى خيرًا أو يقول خيرا ، كما يقول لنا مضمون الحديث والشريف ، وإنما هو من يسعى بالوقيعة والشر بينهم ، حتى ولو نطق صدقاً !

أما التمركز فى خندق الأم ضد الأب . . أو خندق الأب ضد الأم والتأثر بسمومه ومرارته ، التى يختزنها ضد الطرف الآخر طوال العمر ، فليس ذلك من واجب الأبناء ، ولا هو من حق الآباء والأمهات عليهم ، ولا من التربية السليمة أو الدينية لهم . .

فعسى أن يعفى كل أم وكل أب الأبناء من مثل هذه الكوابيس المزعجة ، التى تعانينها أنت الآن ، وتضربين فيها بتأثير عقلك الباطن رمز الرجل كله فى صورة أبيك باعتباره مسئولاً عن قهر الأنثى ومصدرًا لشقائها ، وهذا للأسف بعض ميراثك الكريه من أمك ، غفر الله لها وللجميع ، وبئس هذا الميراث ، وهذا الانتقام الظالم من أبيك فى شخص أبنائه وسعادتهم ، وسلامهم النفسى ، ورؤيتهم الصحيحة للحياة حتى ولو لم تدرك ذلك أو تقصده . .





الآثار الجانبية

خلافاً لعادة بعض قرائك الذين يقولون لك دائماً فى بداية رسالتهم أنهم لم يتخيلوا أن يجيىء يوم يصبحون فيه أبطالاً لبعض مشاكل بابك العزيز ، فإنى كنت أشعر ـ منذ بدأت أقرأ لك قبل عشر سنوات ـ أنه سوف يجيىء حتماً اليوم الذى سأكتب لك فيه لأروى قصتى ، ولكن مشاغل الحياة شغلتنى إلى أن حدث منذ شهرين ما جعلنى فى أشد الاحتياج إلى ذلك .

فأنا سيدة فى الخامسة والثلاثين من عمرى ، نشأت فى أسرة مكونة من أبى وأمى ، وعدد من الإخوة ، كان ترتيبى بينهم الابنة قبل الأخيرة ، وكان أبى يشغل مركزاً محترماً ، وأمى سيدة طيبة ، لا تعرف من الدنيا سوى بيتها وأبنائها .

ومنذ وعيت للحياة ، وأنا لا أرى ولا أسمع فى بيتنا سوى الشجار والضرب من جانب أبى لأمى المسكينة بسبب ولغير سبب ، وحين اسأل أمى عن سر هذه الأحوال المؤلمة ، تجيبنى بأن أبى لم يكن بين الرجال من هو مثله فى طيبته وحنانه ، إلى أن تعرف بشلة من أصدقاء

السوء ، كانوا السبب فى تغيره ، بالإضافة إلى عصبيته وحدة مزاجه ، فعشت أيام طفولتى ، وأنا أخاف من اقتراب الليل ، ومن الاستغراق فى النوم ليقينى أننى سأصحو منه بعد قليل مفزوعة على صوت الدق العنيف على باب الشقة ، ثم يدخل أبى ويوقظنا جميعًا ، ويمارس هوايته فى الشجار والضرب ، ثم ننزوى فى النهاية أنا وأخى الأصغر فى حضن أمنا خائفين مرتعبين حتى الصباح .

وهكذا مضت أيام الطفولة غير السعيدة ، لم أشعر خلالها بعطف الأب ولا حنانه ، ولم أحس بما يحس به الأطفال من أمان وسعادة ، ورغم ذلك فلقد واصلت تعليمى بهمة ، وواصله كذلك كل اخوتى ، وقد ترسخ فى ذهن كل منا وبطريقة تلقائية ، أنه لن ينفعه أحد أو شىء فى الحياة سوى تعليمه ، فحرصنا على التعليم ، كأنما هو طوق النجاة الذى سينقذنا من هذا الجحيم ، وأصبح هم كل واحد منا هو أن ينهى تعليمه ، ليهرب من بيت الأسرة فى أقرب فرصة ، فشق طريقه فى التعليم ، متباعدًا عن باقى إخوته فى انتظار يوم الخلاص ، ولم ينشأ أى ترابط بيننا للأسف ، فيما عداى أنا وأخى الأصغر اللذين جمع بيننا صغر السن والخوف .

ومضت السنوات ، وتخرج الإخوة ـ واحدًا بعد الآخر وواحدة بعد الأخرى ـ واستقل كل منهم بحياته ، فتزوج منهم من تزوج ، وسافرت مع زوجها من سافرت ، وبقيت أنا وأخى الأصغر ، وحدنا مع أمى ، فى بيت الأسرة .

وحين بلغت الثانوية العامة ، توفى أبى فجأة وهو فى عنفوان قوته

وصحته على إثر حادث أليم ، وعلى الرغم من كل ما شكونا منه وعانيناه . . فلقد حزنت كثيرًا على رحيل أبى ، الذى تمنيت أن أشعر تجاهه بما تشعر به كل فتاة نحو أبيها . وبدأت مرحلة جديدة من حياتنا ؛ فتفرغت أمى لرعايتى أنا وأخى الأصغر، ووفر لنا معاش أبى الكبير حياة كريمة ؛ فتمتعت بحنان أمى الكبير ، رغم كل ما عانته من أجلنا ، والتحقت بالجامعة وتعرفت بمن ارتبطت به بعد ذلك .

واتفقنا على الزواج فور تخرجنا من الجامعة ، وظننت أن الحياة قد ابتسمت لى بعد طول انتظار ، فإذا بى أمرض ، وأنا طالبة بالسنة الثانية فى كليتى بمرض نادر وخطير لم يكن الأطباء حتى سنوات قريبة قد اكتشفوا له علاجًا ، وكان الموت هو نتيجته الحتمية ، وبعد رحلة الحيرة بين الأطباء ، توصلنا لمن استطاع تشخيص هذا المرض ، وقال لنا إن الأمل الوحيد هو جراحة عاجلة ومأمونة ، ولكنها سوف تخلف وراءها بعض الآثار الجانبية ، فبدأت دوامة العلاج والجراحة ، وتعطلت عن مواصلة الدراسة الجامعية عامين طويلين استغرقهما علاجى ، ووقف فتاى معى فى هذه المحنة ، وأصر على استكمال مشوار الزواج ، رغم محاولتى معه لكى أعفيه من ارتباطه بى ، ليدعنى لأقدارى .

وتزوجنا بعد أن سمح لى الطبيب بذلك ، وواجهنا معًا صعوبات البداية المألوفة ، ووجدت فى زوجى رجلاً فاضلاً بكل معنى الكلمة ، وحنونًا بكل ما يعنيه الحنان ، وعاشقًا لى ولبيته ولابنتيه ، اللتين رزقنا الله

بهما وجعلهما قرة أعين لنا ، وتحسنت أحوالنا المادية تدريجيًا ، والحمد لله ، والتحقت ابنتى بإحدى مدارس اللغات ، واشتركنا فى ناد كبير ، وكل ذلك وأمى معى طوال الوقت ؛ لأن أخى الأصغر كان قد سافر للخارج ، وترك لى رعايتها .

والمشكلة التى دفعتنى لأن أكتب إليك بشأنها ، هو أننى كنت دائماً أحب أمى حبًا كبيرًا ، وأحب زوجى وابنتى حبًّا لا يوصف ، ولكنى - ولسبب فى أعماقى لا أدريه - كنت لا أريد أن أعبر لهم عن حبى العظيم هذا ، وعلى حين كان من المفروض بعد أن خبرت الضرب والعنف والقسوة أن أنفر من كل ذلك فإنى على العكس من ذلك أضرب البنتين اللتين لا أحتمل أن تخدشهما نسمة الهواء بقسوة شديدة ، كما أعامل زوجى الذى أحبه أيضا بجفاء غير مفهوم ، أما أمى التى لا أظن أن فى الدنيا أمًّا قدمت لابنتها ما قدمته لى ولإخوتى ، وهى المضحية دائماً بنفسها وراحتها من أجلى والمتفانية فى خدمتى وخدمة ابنتى ، حتى لقد ربت البنتين ، وكانت تصحو من نومها فى نصف الليل لترعاهما ؛ حتى لا توقظنى ، ولم تبخل عليهما بشىء مهما غلا ثمنه .

أمى هذه يا سيدى ، كنت لا أعبر عن حبى لها أبدًا ، وكنت للأسف أتعامل معها بعصبية وضيق صدر ؛ فلا تغضب منى أبدًا ، ولست أعرف : هل ما لقيته فى طفولتى من عناء وخوف وقلق ، هو السبب فى ذلك ، أم أننى قد أصبحت عصبية ؛ بسبب الجراحة التى أجريت لى

فى صدرى ، ومضت حياتنا على هذا النحو حتى حدث ما زلزل كيانى ، فمنذ شهرين رحلت أمى عن الحياة فجأة بعد مرض ، لم يمهلها سوى ثلاثة أيام .

ومنذ ذلك الحين يا سيدى ، انقلبت حياتى رأسًا على عقب ، وأصبت بالاكتئاب ونوبات البكاء الطويل اللانهائى ، وكرهت الحياة ، وأهملت زوجى وبيتى وابنتى ، ولم تفلح معى محاولات زوجى لإعادتى إلى طبيعتى السابقة ، لقد قرأت لك أكثر من مرة عبارة ، تقول فيها : املأ عينيك من وجوه الأحباء والأهل والأصدقاء ، فقد يغيبون عنك بعد حين ، ولا تؤجل إفصاحك لهم عن مشاعرك الطيبة تجاههم إلى الغد ، فقد لا يكونون على مسرح الحياة ، حين يجىء هذا الغد . . إلخ .

وتفكرت فى هذه الكلمات ، حين قرأتها طويلاً ووأحببتها ورددتها لنفسى كثيراً ، وقررت أن أعمل بها ، ولكن الحياة جرفتنى فى زحامها ، فلم أعمل بها للأسف ، ولم أعبر عن حبى العظيم لأمى ، ولم أعفها حتى من بعض عصبيتى ، وإنى حزينة لذلك أشد الحزن، حتى ولو كان إخوتى يقولون لى الآن إننى كنت أحن الأبناء عليها .

لم أفعل يا سيدى ، وأشعر بلسع الندم القاسى على ذلك ، ولا أفعل الآن ذلك مع زوجى وابنتىَّ ، ولا أعرف السبب ولا أجد تفسيرًا له ، مع إنى أعرف دينى وأؤدى فرائضه ، وأعلم ابنتىَّ الصلاة وتعاليم الديـن، وأنـا الآن أرتـدى السـواد ، ليس حـداداً فقط على أمـى ؛ لأنى أعرف تعاليم دينـى بهـذا الشأن ، وإنما لأن السواد يعكس ندمى على تحفظى

فى إبداء مشاعرى تجاه أمى ، وندمى على فلتات عصبيتى معها ، كما يعكس حالتى النفسية ، وزهدى فى الحياة ، وفى كل شىء . . فكيف أستعيد بهجة الحياة ، كما يطالبنى من حولى ، وأنا التى لم أشعر بها مطلقًا من قبل ، وكنت منذ طفولتى فتاة حزينة ؟ إننى لا أعرف ماذا ينقصنى لكى أكون إنسانة سعيدة . . فهل عندك ما تقوله لى يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نعم يا سيدتى ، عندى الكثير الذى أقوله لك عن الآثار الجانبية ، التى مازلت تعانين منها ، وانعكست عليك فى بعض سلوكك تجاه الحياة والأعزاء من حولك ، ولست أقصد بذلك الآثار الجانبية لتلك الجراحة ، التى أجريت لك منذ بضعة أعوام ، وإنما اقصد به آثار تلك النشأة الخائفة الحزينة فى بيت مضطرب بالقسوة والعنف والشجار الدائم ، وينطوى فيه كل ابن من الأبناء على نفسه ، عازفًا عن الارتباط بالآخرين ، ومركزًا كل أمله فى يوم الخلاص القريب من هذا الجحيم !

فهذه النشأة الخائفة هى الجراحة القاسية الحقيقية التى تعرضت لها ، فاستأصلت من أعماق نفسك للأسف أحاسيس الأمان والثقة فى الغد ، والابتهاج بالحياة ، والتفاؤل بالمستقبل ، والحق أن الإنسان قد يدفع أحيانًا ثمنًا غاليًا لعجز الأبوين ، أو أحدهما عن أن يوفر له ما يحتاج إليه كل طفل ؛ لكى ينشأ سويًّا وقادرًا على التفاعل السليم مع مؤثرات الحياة ، وهو الطفولة السعيدة الآمنة .

وبعض ما تعانين منه الآن ، هو من بقايا هذا الثمن الباهظ لحرمانك

من هذه الطفولة الهانئة المستقرة ، فلقد تأملت طويلاً ما تقولين من أن إخوتك فى شدة معاناتهم للخوف والشقاء فى بيت الأسرة ، قد جعل كل منهم هدف حياته ، هو أن ينهى تعليمه ليفر ناجيًا بنفسه من هذا الجحيم ، وأنهم خلال انشغالهم بهذا الهدف ، الذى كان يمثل لهم طوق النجاة ، لم ينشأ بينهم أى ترابط ، مع أن وحدة الشقاء قد تقرب بين من يشتركون فيه ، وقد تزيد من ترابطهم فى وجه مصدر هذا الشقاء ، وقد تزيد أيضًا من تعاطفهم فيما بينهم كمحاولة لتعويض بعض ما حرموا منه من عطف الأب وحنانه ، ولكن حيرتى لم تطل كثيرًا أمام ذلك ؛ لأن التعاسة كما تجمع بين التعساء ـ فى معظم الأحيان ـ فإنها قد تفرق بينهم أحيانًا ، وتذكرت على الفور ما قاله الأديب الروسى العظيم ، أنطوان تشيكوف ، من أنه فى بعض الأحوال ، التى قد يخيل إلينا فيها أن تشابه البلوى ينبغى له أن يربط بين المبتلين . . فإنه قد تقع من الشرور ، أكثر مما يقع فى أوساط الهانئين نسبيًّا ، ولاشك أنه كان من ميراث التعاسة بالنسبة لبعض إخوتك الذين عانوا جحيم الخوف والقلق الدائم لأسباب الكدر وتنغيص الحياة ، أن تتنبه فيهم للأسف أحاسيس الأنانية ، التى تحصر اهتمام المرء فى ذاته ، وكيفية الدفاع عنها ضد الخطر الذى يهدد أمانها كل لحظة ، وكيفية النجاة بها من السفينة الغارقة .

وفى مثل هذه الظروف غير المريحة . . فقد يتركز التفكير فى « الأنا » ، ويتراجع التفكير فى « الآخر » ، وينطوى كل فرد على نفسه متخذًا موقفًا حياديا جامدًا من الآخرين ، ولست أستطيع رغم إنكارى ذلك على من يضطرون إليه كحيلة دفاعية نفسية ، أن ألومهم كثيرًا على ما دفعهم إليه

الشقاء من أنانية بعض التعساء ، ولكن اللوم - كل اللوم - على من اضطرهم إلى ذلك ، وقتل فيهم مشاعر العطف الأخوى والترابط العائلى ، وقد كان فى مقدوره أن يعفيهم من كل ذلك ، وأن ينشئهم تحت ظلال الحب الأسرى ، والعطف الصادق ، والقيم الصحيحة ، أما أنت يا سيدتى . . فلقد كان ميراثك من هذه النشأة التعيسة أن رافقتك بعض بصماتها ، التى لا مفر منها فى بعض الأحيان ، خلال رحلة الحياة ، فاكتسبت شخصيتك بعض الظلال والسمات الاكتئابية ، التى تدفع المرء لأن يستجيب لدواعى الحزن والتشاؤم ، بأسرع مما يستجيب لدواعى الابتهاج والسعادة ، وإلى التوجس من الغد وتوقع الكدر ، أكثر من الثقة فى المستقبل والتفاؤل به ، وقد يكون من هذا الميراث أيضًا ما تحكين عنه من عجزك النفسى عن التعبير عن الحب الذى تحميلنه لأمك وزوجك وابنتيك .

ولا عجب فى ذلك ، لأنه استمرار للخوف القديم فى أعماقك من الإفصاح عن المشاعر الحقيقية ؛ تجنبًا للمهالك والمتاعب من جانب أبيك ، فلا شك أنك حين كنت ترين أباك يضرب أمك بقسوة وينغص عليها حياتها ، كنت تشعرين غريزيًّا بالرغبة فى الدفاع عنها ضده ، وحمايتها منه ، وفى التعبير عن رفضك الصاخب لما يفعله بها أبوك ، وعن تعاطفك معها ، وكنت تدركين أيضًا أنك لو فعلت ذلك . . فلسوف ينالك من بطش أبيك وقسوته جانب آخر ، فلا تجدين إزاء ذلك مفرًّا من كبت مشاعر الغضب والحنق ، تجاه أبيك فى نفسك ، وكبت مشاعر التعاطف تجاه أمك أيضًا إيثارًا للسلامة ، وتسليمًا بالعجز

عن تغيير الأوضاع الخاطئة ، فاكتسبت ـ من حيث لا تدرين ـ « خبرة » اضطرارية فى كبت المشاعر ، وعدم الإفصاح عنها ، وتحولت هذه الخبرة ـ بمضى الزمن ـ إلى ما يشبه العجز النفسى عن التصريح بالمشاعر ، والإفاضة فى التعبير عنها ؛ حتى أصبح ذلك سمة مستقرة من سمات شخصيتك لا تعرفين أسبابها المباشرة ، ثم تواصل هذا السلوك من جانبك تجاه أمك ، حتى بعد زوال الخطر الذى كان يمنعك من الإفصاح عن مشاعرك تجاهها ، وانسحب هذا السلوك ، وهذا العجز النفسى أيضًا فى بعض مظاهره على تعاملك مع زوجك وطفلتيك ، الذين تحبينهم جميعًا أعظم الحب ، وتعجزين فى الوقت نفسه عن التعبير لهم عن ذلك بالكلمات ، حتى وإن استطعت التعبير عنه بالسلوك والأفعال !

والتعبير عن مشاعر الحب العائلى والحنان أيضًا خبرة ، يكتسبها الإنسان بالتجربة الشخصية أولاً حين يتلقاها ممن حوله ، وحين يشاهدها فيهم فيحاول تقليدها ، حتى تصبح سلوكًا مستقرًّا لديه ، ومن لم يخبر العطف الإنسانى ، قد يصعب عليه أن يمنحه لمن حوله لأن إناءه لم يتلق منه القدر الكافى الذى يسمح له بالعطاء للآخرين ، حتى ولو كانت بعض النفوس الرضية الطيبة ، التى حرمت منه فى حياتها تلهمها طبيعتها الخيرة إدراك أهمية ما حرمت منه هى بالنسبة للآخرين ؛ فتعطى ما لم تأخذ من قبل .

ولهذا . . . فقد قال أديب عظيم ، عاش طفولة قاسية ، تعرض خلالها للعقاب البدنى المؤلم مرارًا من أبيه : كانت طفولتى خالية من

العطف ، ومازلت حتى الآن انظر إلى العطف ، وكأنه شيء غير مألوف بالنسبة لى ، أو شيء لم تكن لى به خبرة كبيرة من قبل .

ومع أننى من أنصار مبدأ أنَّ من عانى أشد الألم ، ينبغى له أن يكون أرق قلبًا وعاطفة تجاه الآخرين ، ممن لم يعرفوه . . فإنى لا أستطيع على الناحية الأخرى أن أغفل أثر هذا الألم نفسه على بعض النفوس ، فيما تكتسبه لا إراديًا من بعض الجمود فى المشاعر ، وبعض التحفظ فى إبداء العطف الإنسانى تجاه الآخرين .

وعلى ضوء ذلك . . فقد تكون قسوتك على طفلتيك رغم حبك لهما ورغبتك الحقيقية فى إسعادهما ، وتجنيبهما كل ما عانيت أنت منه من خوف وحرمان من الحنان ، قد يكون ذلك تنفيسًا خاطئًا ، عما تعرضت له فى طفولتك من قهر وإيذاء نفسى من جانب الأب ، كما لو كنت تقولين لنفسك أحيانًا إنك تستطيعين الآن رد عدوان أبيك على أمك ، دون أن تخشى قهر الأب لك ، أو كأنك تقولين فى أعماقك حين تضربين ابنتيك بقسوة ، فى أحيان أخرى ، وماذا يكون هذا التأديب ، إلى جانب ما عانيت منه أنا ، وأنا فى مثل عمريهما من قسوة وعنف وخوف وتعاسة .

ولاشك أن كل ذلك تحويل نفسى خاطىء لمشاعر القهر العنيف ، التى كنت تشعرين بها تجاه أبيك إلى الجهة غير الصحيحة ، كما قد يكون لبعض ما ورثتيه عنه من بعض العصبية وحدة المزاج أثر فى ذلك ، فضلاً عما قد يكون لتلك الجراحة التى أجريت لك أيضًا من بعض الأثر على

ولاشك أنك تحتاجين إلى مراجعة نفسك فى كل ذلك ، وتحتاجين أيضا إلى مراجعة نفسك فيما يتعلق بمعاملتك لزوجك المحب المخلص بجفاء ، وفيما يتعلق بتحفظك فى إبداء مشاعرك الحقيقية تجاه الآخرين ، والتعبير عنها بحرية ، إذ يبدو أنك مازلت فى حاجة لأن تقتنعى نفسيًّا بأن الخطر الذى كان يحول بينك وبين التعبير الصحيح عن مشاعرك ، قد زال وانقضى إلى الأبد ، فإذا كانت قد فاتتك فرصة ثمينة ؛ لأن تملئى عينيك من وجه أمك الراحلة ، وتغرقيها فى طوفان من مشاعر الحب والعرفان والامتنان لها وهى على قيد الحياة ، فلقد يخفف عنك بعض ندمك على ذلك أنها كانت ـ بغير شك ـ تدرك بقلب الأم كل ما تحملين لها من مشاعر طيبة ، وتشفق عليك من ظروف طفولتك التعيسة ، ومما تعرضت له أيضًا ـ فيما بعد ـ من متاعب صحية شديدة ، فللقلوب أيضًا حديثها الصامت وتفاهمها العميق يا سيدتى ، وإن كان المرء يحتاج كذلك إلى ترجمة حديث القلوب هذا إلى لغة ناطقة .

والحق أننا فى حاجة دائمة ؛ لأن نعبر لمن نحبهم عن حبنا لهم ، وأن نسمع منهم أيضًا ما يؤكد لنا كل يوم حبهم لنا ، بالكلمات وليس بالتصرفات وحدها ؛ فالنفس راغبة دائمًا فى أن يذكرها الأعزاء كل يوم بحبهم لها ، واعتزازهم بها ، وليس الحب والتعبير العاطفى عنه حاجة نفسية ضرورية عند الصغار فقط ، وإنه كلما تقدم العمر بالمرء زهد فى ذلك كما يتوهم البعض ، بل إننا على العكس تمامًا ، تزداد حاجتنا النفسية إلى ذلك كلما تقدم بنا العمر ، ومن واجب الجميع أن ينتهزوا فرصة الأيام ، التى لا تطول ؛ لكى يعبروا عن عواطفهم الحارة

تجاه أعزائهم بأحرِّ الكلمات ، وأصدق التعابير تمامًا ، كما يتسارع حديث المودعين إلى المسافرين من نافذة القطار ؛ لكى ينهوا إليهم كل ما يريدون قوله لهم ، قبل أن تدق أجراس الرحيل ويتحرك القطار !

ولن ينالنا سوى الأسى ولسع الندم ، لو أضعنا الفرصة ، ورحل عنا الراحلون ، وفى نفوسنا غصة من لم يمهله الوقت ؛ ليؤدى ديون الحب والامتنان لمن أخلصوا له الحب والعطف طوال رحلة السنين ؛ فأكثرى يا سيدتى من الترحم على والدتك الراحلة ، والدعاء لها كل يوم فى صلاتك ، وتصدقى بما يطمئن روحها فى العالم الأفضل إلى أنها قد خلفت وراءها من مازالت على الود والامتنان مقيمة ، وتدعو لها بالخير وحسن المآب ، وعَوِّضى ما فاتك من التعبير لها عن حبك فى ابنتيك وزوجك ، وإخوتك الذين تصلين رحمهم ، وتعيدين ما تباعد بينهم من روابط مع الأيام .

ولن تستطيعى أن تفعلى ذلك ، إلا إذا خرجت من دائرة الأحزان ، وتفاعلت مع الحياة ، واستجبت لمؤثراتها ، واستردت إحساسك بمباهجها ، فمن لم يشعر ببهجة الحياة، لا يستطيع أن يهب السعادة للآخرين ، وأنت الآن مطالبة بإسعاد نفسك وزوجك المحب ، الذى تمسك باختياره لك فى وجه الآلام والمتاعب ، وطفلتيك اللتين ينبغى لهما أن تجنبيهما كل ما عانيت منه أنت فى طفولتك من تعاسة وشقاء ، وقديماً قال أحد الفلاسفة: هيا ننهض أيها الإخوان إلى الحياة . . فلقد طال جلوسنا فوق الأحزان !



القصة الشائعة

أنا سيدة عمرى ٣٨ عاماً ، زوجة وأم لثلاثة أطفال ، أكبرهم فى الثامنة عشر من عمره ، وأصغرهم عمره أكثر من عام قليلاً ، ورغم الحمل والإنجاب فما زلت فى ريعان شبابى ؛ حتى لا يكاد يصدق أحد أننى أم لثلاثة أطفال .

وقد التقيت بزوجى فى المستشفى الذى كنا نعمل به معًا فى إحدى مدن الجنوب ، فأنا طبيبة ولكنى اعتزلت العمل منذ اليوم الأول لزواجى منذ ١١ عاماً ، وتفرغت لزوجى وبيتى ، وأنجبت طفلى الأول ، ورضيت عن نفسى وزوجى وبيتى ، ومضت السنوات بنا عادية إلى أن أتممنا عامنا التاسع ، وحملت مرة أخرى لأنجب لطفلى شقيقاً أو شقيقة، واقترب موعد ولادتى ، التى تقرر أن تتم بعملية قيصيرية ، بعد أن تبين حملى بتوءم ، فإذا بزوجى يكلف بالسفر فى مهمة علمية بأحد المؤتمرات بالخارج ، فرتب لى دخول المستشفى ؛ لإجراء الجراحة

القيصرية ، وطلب منى ألا أغادر المستشفى إلى بيتى بعد الجراحة ، وإنما إلى بيت إحدى قريباتى ؛ لكى ترعانى عقب الولادة .

وتمت الولادة بسلام ، وخرجت إلى بيت قريبتى ، فأمضيت به بضعة أيام ، ثم عرفت فجأة أن زوجى قد رجع من السفر ، ولم يتصل بى ، واتصلت أنا به فاعتذر بأنه لم يرجع إلا منذ ساعات ، وبأنه كان على وشك الحضور إلى ، ثم طلب منى البقاء فى بيت قريبتى بعض الوقت حتى أسترد صحتى ، ولكنى لم أسترح لهذه الرغبة من جانبه ، وحزمت أمرى على الفور ، وجمعت ملابسى وحملت أطفالى ، ورجعت إلى البيت، فإذا بزوجى يستقبلنى بضيق شديد ، ويسألنى عما جاء بى ، وابتلعت المقابلة الفاترة بجهد جهيد ، وحاولت تفسيرها بإجهاد السفر، أو بتغير نفسه تجاهى بعد إنجابى لطفلين توءم ، سوف يشغلانى عنه بعض الوقت .

وحاولت رغم ذلك إرضاءه بشتى الطرق لأننى أحبه ، وقد سامحته من قبل كثيراً على أشياء مماثلة ، ولكن تصرفاته ازدادت سوءاً فى الأيام التالية ، فازداد إهمالاً لى ولأطفاله ؛ حتى لم تعد بينى وبينه من صلة ، سوى ما يتركه لى من النقود ، ولاحظت أيضاً أنه لا يهتم بنا جميعاً . . ولم يعد يشغله شىء سوى شراء ملابس جديدة له كل حين، وقدرت أنها ربما تكون حالة طارئة ، وسرعان ما تختفى فحاولت التقرب منه أكثر، فوجدته يتهرب منى باستمرار وابتذلت نفسى وكرامتى كامرأة فى التودد إليه أكثر وأكثر ، ففوجئت به يقول لى إننى جميلة جدا ، ولكنه للأسف

لا يستطيع أن يقترب منى ؛ لأنه قد مل الحياة معى ، ويريد الانفصال عنى ليبدأ حياة جديدة ، وعاتبته فى ألم على ما قال ، وسألته كيف طاوعه قلبه على أن يفكر فى هدم البيت بعد ١١ عامًا من الزواج ، وبعد إنجابنا لثلاثة أطفال ، يحتاجون إلى أبيهم وأمهم، ورجوته أن يعيد التفكير فى الأمر ، وألا يتخذ قرارًا يندم عليه فيما بعد .

وتركته لنفسه بعد ذلك ، مع قيامى بكل واجباتى كزوجة وربة بيت تجاهه ، فتمادى هو فى البعد عنا إلى ما لا نهاية ، وتركنا للقيام برحلة لمدة ١٠ أيام خارج المدينة التى نعيش بها ، ثم رجع من سفره ، وهو أكثر فتورًا وجفاءً ، ولا يريد أن يرانى أو يرى أطفاله ، وبحثت وراءه لأعرف سر هذا التغير الكبير ، فعرفت أنه قد تعرف بزميلة جديدة فى المستشفى نفسه منذ فترة ، وأنه قد ارتبط بها ، وحاولت إنقاذ بيتى وأطفالى من الخطر الذى يتهددهم ، فاتصلت بمدير المستشفى، الذى يعمل به زوجى ، وكنت أعرفه منذ فترة عملى السابقة معه ، وشكوت إليه مما عرفته ؛ فأجابنى مندهشاً بأن كل من فى المستشفى يعرفون هذه القصة الشائعة ؛ فكيف لم أعرف بها إلا الآن ؟

واستجاب الرجل لرجائى له لمحاولة إنقاذ بيتى و إبعاد زوجى عن هذه الزميلة ، فقرر ندبه للعمل لبضعة شهور فى مستشفى بمدينة أخرى قريبة ، ومع أن هذا الندب كان يوفر لزوجى استراحة مستقلة ، تسمح بإقامة أسرة ، فلقد رفض بإصرار الاستجابة لإلحاحى عليه بأن يصطحبنا معه إلى هذه المدينة الأخرى ، خاصة وقد كنا فى إجازة المدارس الصيفية

بالنسبة لطفلى الأكبر ، وتمسك بالسفر إليها وحيدًا ، تاركًا إياى وأطفاله فى مدينة لا أهل لنا فيها ولا أصدقاء ، سوى قريبتى التى أشرت إليها من قبل .

وسافر زوجى إلى مقر عمله ، ورجع منه وهو أكثر جفاءً وقسوة معى ؛ فلقد أحس بأننى كنت وراء هذا الانتداب الذى أبعده عن حبيبة القلب بضعة أسابيع ، واستدعى قريبتى وزوجها وحاكمنى أمامهما بتهمة إفشاء الأسرار العائلية إلى رئيسه فى العمل ، واستعدائه عليه ، مع أن الرجل لم يفعل ما فعل إلا بإحساسه كأب تجاه الخطر، الذى يهدد أطفالى ، وانتهت جلسة المحاكمة إلى إدانتى بالخطأ المشهود ، وهو نقل الأسرار العائلية إلى محيط العمل والزملاء ، مع أن القصة كانت على كل لسان فى مكان العمل منذ البداية .

ورغم ذلك . . فلقد تحملت وواصلت الحياة معه على أمل الإصلاح وزوال هذه الغمة ، فإذا بى أسمع زوجى الحبيب يتحدث همسًا ذات ليلة فى التليفون إلى شقيقه عن « خطته » لطردى من البيت ، وإجبارى على تركه باختيارى ، ولمست بعد ذلك بالفعل هذه الخطة ، ولم تكن تزيد عن ضربى كل يوم ضرباً مبرحاً ، بلا مبالاة لصراخ الأطفال وبكائهم وفزعهم ، ثم الخروج بعد ذلك مباشرة للقاء حبيبة القلب ، أو الاتصال بشقيقه ليروى له ما فعل !

وكانت النتيجة هى أن عجزت عن تحمل عناء هذه « الخطة » بعد فترة قصيرة ؛ فهجرت البيت ، ليس من أجلى ، وإنما من أجل الأطفال

الصغار وبكائهم المستمر وفزعهم مما يرون ويسمعون ، فما أن غادرت البيت ورجعت إلى أهلى .. حتى قام زوجى بتغيير كالون الباب ، ورفض أن يسمح لنا بأخذ أى شىء من البيت ، وتوقف عن إرسال أية نقود لى .

وبعد عودتى لأهلى ومدينتى القديمة .. عشت فى انتظار حل من السماء لمشكلتى مع زوجى لعدة شهور ، ثم مرض أحد أطفالى ذات يوم فأصطحبته إلى المستشفى المجاور ، وجاء الطبيب الأخصائى ليفحصه ؛ فـإذا بـه يتهـلل عنـد رؤيتى ، ويرحـب بـى بحـرارة شديـدة ، وإذا بـى أكتشف فيه زميلاً سابقًا لى فى أول مستشفى ، عملت به قبل زواجى ..

وتذكرت كيف كان هذا الزميل يحاول دائماً أن يتقرب منى ، وكيف تقدم لخطبتى من أهلى ، فرفضه أبى وقتها للأسف ؛ لأنه كان على وشك السفر للخارج للحصول على رسالته العلمية ، ولم يكن أبى راغباً فى سفرى ، فجاءنى هذا الزميل مودعاً ومؤكداً لى أنه كان يتمنى صادقاً أن يرتبط بى لولا رفض أبى ، ثم سافر إلى بعثته ، وتعرفت أنا بعد ذلك بزوجى وأحببته وتزوجته .

وفى موعد الاستشارة التالى ، وجدت هذا الزميل يحاول أن يحدثنى عن الماضى .. ويقول لى إنه قد عرف بكل ما حدث لى مع زوجى ، ويطلب منى الحصول على الطلاق منه ؛ لكى يتزوجنى لأننى - كما قال - مازلت فتاة أحلامه التى تمناها لنفسه منذ ١٢ عامًا ، ومازلت محتفظة

بجمالى ودماثة خلقى ، ولسوف يكون أباً رحيماً لأطفالى، وزوجاً سعيداً بى .

وراح هذا الزميل يلاحقنى بعد ذلك فى كل مكان ، ويسمعنى من الكلام ، ما كنت أتمنى أن أسمعه من زوجى ووالد أطفالى ، على الرغم من تهربى منه وامتناعى عن الرد على التليفون فى البداية ، ولكن ماذا أفعل يا سيدى ، والنفس تميل لما يرضيها ويمسح جراحها . . ويعيد إليها الثقة المفقودة فى بعض الأحيان ؟

لقد بدأت رغما عنى «أشعر » بهذا الزميل القديم ، وأخشى الآن أن أفقد مقاومتى معه ، وأحاول الحصول على الطلاق ؛ لأتزوج ممن يتمنى مجرد النظر إلىّ ، ولكن «الشقاء » كله فى أطفالى ، الذين لا أستطيع البعد عنهم ، ولا أعرف كيف سيكون مصيرهم مع أبيهم ، ولست أريد لهم إلا السعادة والاستقرار ، وكلما فكرت فى أمرهم شعرت بالرغبة فى أن أرجع إلى بيت الزوجية ، وأن أرتمى فى أحضان زوجى ، وأعيش معه فى سلام لنربى أطفالنا ، وأطلب منه أن يحمينى من خطرات النفس . . وشرور الدنيا . .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، وزوجى غارق فى « العسل » مع حبيبة القلب ، وقد خلا له ولها الجو بعد رحيلى !

إننى أرجوك أن تشير علىّ بما أفعل ، وأن تكتب كلمة لهذا الزوج الشارد ؛ ليفيق من غفوته ، وينقذ أطفالنا من التمزق والضياع ، وهم الآن الأهم من كل شىء وشكراً لك . .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أخطأت يا سيدتى ، حين اتصلت بمدير المستشفى ، وطلبت منه مساعدتك فى إبعاد زوجك عن شريكته فى القصة الشائعة بندبه أو نقله مؤقتاً إلى مكان آخر ، فمثل هذا التصرف لا يثمر عادة عودة الزوج الشارد إلى رشده ، كما هو الظن عند من يفعل ذلك ، وإنما يؤدى غالباً إلى إمعان هذا الزوج فى الشرود ، والمضى فى طريق اللاعودة ، ليس فقط لأنه يشعر بالحنق الشديد على زوجته ، التى يعتبرها قد أساءت إليه فى محيط عمله؛ حتى ولو كان هدفها من ذلك حمايته من الانجراف إلى هاوية تدمير الأسرة ، وإنما أيضًا لأن مثل هذه الإجراءات « الانتقامية » تضفى على القصة التى يعيشها الزوج وصديقته ظلالاً رومانسية ، مغلفة بالشجن والإثارة الانفعالية التى قد تعمق العلاقة بينهما ، وتزيد من روابطهما معاً ، وليس العكس كما يتصور آخرون .

«فاضطهاد » المجتمع المحيط لبطلى القصة العاطفية المماثلة ، قد يؤدى غالباً إلى «توحدهما » فى مواجهة الخطر المشترك الذى يواجهانه معاً، وليس إلى انفصالهما واقتناعهما بخطأ ما يفعلان ، وقد يضفى كذلك على كل منهما شيئاً من إهاب « البطل الرومانسى » ، الذى يغالب أقداراً أقوى منه تريد أن ترغمه على التخلى عن «حبه » ، ولكن هيهات أن يفعل أو يستسلم بعد كل ما تحمل من « تضحيات » غالية ، فى سبيل هذا الحب « العظيم » .

وما دام الجميع قد تكتلوا ضدنا ـ هكذا يقول بطلا مثل هذه القصة

لنفسيهما غالباً ـ فلم يبق لكل منا سوى الآخر ، ولابد أن نزداد تلاحماً وارتباطاً لمواجهة هذه الأقدار « الظالمة » ، وإلا ذهبت كل معاناتنا السابقة هباء .

ولا عجب فى ذلك يا سيدتى ؛ فالإنسان يميل بالفعل ـ فى بعض الأحيان ـ لأن يعتبر نفسه شهيداً لظروفه وأقداره ، التى يتوهم أنها غير رحيمة به . والضغط الشديد عليه فى مثل هذه الظروف ، قد يستثير فيه إرادة التحدى والإصرار على ما يفعل ، أكثر مما قد يرده إلى الطريق القويم .

ولقد قلت مراراً إن أفضل ما تفعله الزوجة التى يخونها زوجها ، إذا كانت راغبة فى استعادته ، وليس فى الانفصال عنه ، هو أن تتعامل معه بحكمة الأم ، التى تشفق على ابنها من استمراره فى الخطأ الذى يهدده بالدمار ، وتأمل فى عودته إلى الطريق القويم بإشعاره بالذنب تجاهها ، بلا صخب ولا ضجيج ولا استعداء للآخرين عليه ؛ فلا تقدم له المبرارت النفسية، التى ينقب هو عنها؛ ليقنع نفسه بأنه لم يظلمها ، حين نقض عهد الوفاء معها ، وإنما تتمسك دائماً بأن تظل « المثال » الأخلاقى المناقض للمثال الآخر المغامر ، الذى لم ير ما يمنعه من التورط فى قصة عاطفية غير مشروعة مع زوج وأب لأطفال صغار . .

وهذه المقارنة الصامتة فى أعماق الزوج ، والتى تزيد من معاناته مع الإحساس بالذنب ، قد تكفى وحدها ـ فى أحيان كثيرة ـ لإرجاع ذوى الضمائر الحية والقلوب الحكيمة عن غيهم ، بعد إبحار قصير فى بحر المغامرة . .

أما الحرب الشعواء الضارية على الزوج الشارد ، فلا عائد لها غالباً إلا اقتناعه الزوج بما يحاول أن يبرر به لنفسه ـ منذ البداية ـ إقدامه على خيانة زوجته والارتباط بغيرها .

وعلى أية حال يا سيدتى . . . فلقد بلغت الآن مفترق طرق ، عليك أن تختارى من بينها ما ترين فيه صلاح أمرك وأمر أطفالك الثلاثة ، فإما أن تراجعى حياتك مع زوجك ، وتحاولى اكتشاف الثغرات والأخطاء ، التى سمحت له بالشرود بعيدا عنك والارتباط بغيرك ، وقد تسفر هذه المراجعة عن الاستعداد لإيجاد نقطة التقاء جديدة مع زوجك ، واستئناف حياتكما الزوجية وتنشئة أطفالكما معاً فى بيت آمن مستقر ، وقد تسفر أيضاً عن تفهمك لبعض ما فاتك التنبه إليه فى علاقتك بزوجك ، فتتصلين به وتدعينه إلى كلمة سواء بينكما ، يعترف عندها كل منكما بما يتحفظ على الآخر فيه ، ويعد بتغييره والتخلص منه .

وهذا الاحتمال ليس مستبعداً رغم ظروف « القصة الشائعة » ؛ لأن تخلى زوجك عن أطفاله الصغار الثلاثة ، وعنك أيضاً ليس بالأمر الهين ، حتى ولو كان يتوهم ـ فى غمار قصته الرومانسية الحالية ـ قدرته عليه أو على احتماله . وإما أن يكون زوجك قد حسم أمره نهائيًّا على الانفصال عنك ، واستكمال بقية فصول هذه القصة مع شريكته فيها بالزواج .

وفى هذه الحالة . . فمن واجبه الأخلاقى أن يسرحك على الفور بإحسان ، وأن يكون عادلاً معك ومع أطفاله ؛ فيؤدى إليك حقوقك كاملة ، ويتحمل مسئوليته المادية عن أطفاله ، وهم فى حضانتك ، وقد يقبل بعد ذلك بالسماح لك باستمرار رعايتهم فى حضانتك ، إذا

تزوجت من زميلك القديم ، ليس لأنه غير راغب فى ضمهم إليه ، وإنما لأن شريكته فى الحياة الجديدة سوف يثقل عليها بكل تأكيد رعاية ثلاثة أطفال صغار ، بينهم توءم فى عمر عام واحد وبضعة شهور ، وبالتالى فقد يكون الحل الملائم لكل الأطراف فى مثل هذه الظروف ، هو أن تستمرى أنت فى رعايتهم ، حتى بعد زواجك ، وأن تتعاملى مع زوجك فيما يتعلق بشئونهم، وزيارتهم فى المواعيد الملائمة بلا مشكلات ولا منازعات ، يدفع الصغار ثمنها الظالم .

فإذا أصر هو على أن يضمهم إلى حياته الجديدة عند زواجك . . فلا مفر من مواجهة الأمر الواقع ، وتحمل تبعات اختيار زواجك مرة أخرى بعد الانفصال عنه ، ومع الأمل الدائم فى أن تبرأ النفوس من ضغائنها . . فلا تؤثر المرارات السابقة على تبادل رعايتهم مع أبيهم، وفقاً للظروف المتاحة .

وليس الأطفال فى تقديرى هم المشكلة العاجلة التى تواجهينها الآن ، وإنما المشكلة هى أننى أخشى أن يكون زوجك كبعض من يواجهون هذا الموقف فيرغبون غالباً فى إنهاء الحياة الزوجية الأولى بلا خسائر مادية من أى نوع ، أو بأقل قدر ممكن من هذه الخسائر ؛ ليبدأوا حياتهم الجديدة فى ظروف أفضل ، فيعمدون إلى إساءة معاملة الزوجة ، حتى تهجر بيتها ، كما فعلت أنت ، ثم يذرونها على حالها هذه انتظاراً لأن تطلب هى لطلاق منهم ، فيكون شرطهم لذلك هو أن تتنازل عن حقوقها المادية لديهم ، ولست أعرف شيئاً أبعد عن العدل الإنسانى والخلق القويم

والدين الصحيح ، وأدنى إلى الأنانية والفجور والروح المادية البغيضة من ذلك .

فإذا كان مفهوماً أن تتنازل الزوجة طواعية وبلا ضغط عليها من أى نوع ـ عن هذه الحقوق ـ أو بعضها ، لأنها هى الساعية إلى الانفصال والراغبة فيه ، فكيف نفهم أن يعمد ذو نخوة إلى إطالة فترة تعليق زوجته التى يرغب بالفعل فى طلاقها ؛ ليتزوج غيرها بلا عشرة ولاطلاق؛ انتظاراً لأن تجىء المبادرة منها ، فيحق له أن يزعم أنها الساعية فى الطلاق، ويطالبها بالتنازل عن حقوقها لديه ، كأنما كان ينافسها فى مباراة معيبة للاحتمال والصبر على هذا الوضع الشاذ ، حتى تضيق بها الحيل ، وترفع راية الاستسلام قبله !

ولا هدف لمن يفعل ذلك إلا التخلص من الأعباء المادية للانفصال ، حتى إذا خارت قوى زوجته قبله وطلبت الانفصال متنازلة عن حقوقها ، كان انتصاره فى مثل هذه المعركة انتصاراً شائناً، الهزيمة أشرف منه ، وأقرب إلى معانى الرجولة ، وتحمل مسئولية الإنسان عن أفعاله واختياراته فى الحياة .

بل وماذا ينتظر أيضاً ممن يرضى لزوجته بمثل هذا الوضع لهذه الأسباب وحدها ، إذا انهارت مقاومتها ، وهى مازالت تحمل اسمه أمام إغراء الكلام المعسول الجميل ، الذى تسمعه من غيره من الرجال فى فترة مباراة الصبر ، إلى أن يستسلم الخصم بلا قتال . .

ألا يدفعنى ذلك لأن أجازف بالقول أن مثل هذه الزوجة إذا أصابت إثماً خلال فترة التعليق الطويلة هذه فإن بعض أثمها على زوجها الذى لم

يصلح ما بينه وبينها ، ولم يحررها فى الوقت نفسه من ارتباطها به . .

إننى على أية حال يا سيدتى لا أرى أملاً كبيراً فى مناشدة أب لثلاثة أطفال أن يضع حداً لقصته الشائعة مع زميلته ويستعيد زوجته ، ويستأنف حياته معها على أسس جديدة ، تلبى له ما يريده منها ، لأن من لم يؤثر فيه فراق ثلاثة أطفال صغار ، أكبرهم فى الثامنة من عمره ، لن تؤثر فيه أغلب الظن كلماتى أو كلمات غيرى .

ولكنى ألمس ـ من ناحية أخرى ـ فى ثنايا كلماتك أنك ترغبين فى العودة إليه ، ليس فقط بإحساس الأم التى ترغب فى سعادة أطفالها ، وإنما أيضاً بقلب الزوجة ، التى لم تفقد بعد الأمل فى زوجها ، ومازالت تحتفظ له بنصيب كبير من مشاعرها ، ولا تتخيل ـ رغم كل ما جرى ـ أن تنطوى صفحتها معه على هذا النحو ، فإذا كنت قد بدأت كما تقولين « تشعرين » بزميلك القديم ، فما حدث ذلك إلا تلهفاً من النفس ، التى اهتزت ثقتها فى جدارتها بحب الرجل ، على أن تستعيد بعض هذه الثقة الهاربة منها . .

واذا كنت قد بدأت « تسمعين » للكلام الجميل ، الذى يهمس لك به هذا الزميل القديم ، اعتقاداً منك أن « السماع » فعل سلبى ، ولا يورطك فى الخطأ كما تتصورين فانى أقول لك إنه فعل إيجابى مكتمل الأركان ، وشديد الخطورة عليك ، لأنه قد وضع أقدامك بالفعل ـ ومن حيث تدرين أو لا تدرين ـ على خط البداية ، الذى إذا خطت عليه الزوجة ، تعذر عليها أن ترجع منه بغير أن تكابد إثم الاقتراب من حافة الخيانة ، التى تبدأ دائماً « معنوية » ، تكتفى بالسماع والصمت وعدم

قطع الخيوط وتتطور غالبا إلى ما هو أكثر من ذلك ، وقديماً قال الفقيه المحدث أبو سفيان الثورى : إن أول العلم الصمت ، ثم الاستماع إليه ، ثم العمل به !

وأظن أن هذا هو أيضاً الشرك الخداعى نفسه للنفس ، الذى يمضى فيه الإنسان ، حين يسمح لنفسه بما يتصوره عملاً سلبيًّا لا يورطه فى الخيانة حتى ليحق لى أن أقول إن أول الخيانة الصمت على محاولة طرف آخر الاقتراب منا رغم وضوح القصد ثم الاستماع للكلام الجميل . . ثم التأثر به !

فانقذى نفسك يا سيدتى من هذه الحافة الخطرة بالاتصال بزوجك على الفور ، وحسم الوضع كله حسماً واضحاً ، لا يدع مجالاً لأى تأويل، وذلك بالعودة إليه والبدء معه من جديد بعد كل ما جرى ، أو بفصم رباط الزوجية بينكما واختيار كل منكما لطريق جديد ، بعيداً عن الآخر . ولا بديل لذلك . . ولا عائد لإطالة هذا الوضع المعلق بينكما ، إلا تماديه هو فى الخطأ .

واقترابك أنت أيضاً من رماله الناعمة !





الأمانى

ترددت كثيراً قبل أن أكتب إليك لأننى إنسان من نوع غريب ، خلقت لكى أتعذب وأتألم ، وأصدقائى هم المرض والقلق واليأس والعذاب !

فأنا شاب عمرى ٣٩ عامًا ، أعمل مدرسًا ثانويًّا بمدينة صغيرة ، قريبة من القاهرة ، توفيت أمى وأنا فى العاشرة من عمرى ، وكنت شديد التعلق بها ، وبعدها مات أبى ، وكان قاسيًا ، وأذاقنى كل أنواع التعاسة والشقاء والبؤس ، لكن يرحمه الله ويسكنه جنته، ثم تخرجت وعملت ، وأعيش وحيدًا بمفردى فى شقة بمنزلنا بعد وفاة أبى .

أما السبب فى عدم زواجى حتى الآن . . فهو أننى مريض بالقلب منذ طفولتى ، وعانيت كثيراً من هذا المرض ، الذى سلبنى قوتى وصحتى ، وقد أجريت لى جراحة بالقلب عام ١٩٨٢، ثم جراحة أخرى عام ١٩٩٠ ، ومازلت أعانى من متاعب القلب، ومن نفقات

العلاج الباهظة ، وأجور كبار أطباء القلب بميدان باب اللوق بالقاهرة؛ لأنه لابد لى من متابعة حالتى مع طبيب كبير .

ولقد كانت أمنيتى أن أتزوج ، لأننى أعيش بمفردى، وأقوم بكل أعمال البيت بنفسى من نظافة وغسل الملابس والأوانى وإعداد الطعام . . . إلخ . وهذه الأعمال ترهقنى ، كما أن وحدتى تسبب لى الاكتئاب والحزن ، وقد فشلت كل محاولاتى للزواج لسببين : الأول عدم توافر الإمكانات المادية اللازمة لذلك ، والثانى هو رفض أهل العروس دائماً قبول شخص معروف فى بلدته ، بأنه مريض بالقلب ، ويعانى دائماً من الإجهاد والتعب لأقل مجهود ، ولا يعرف الناس أننى إنما أعانى من متاعبى النفسية ، بأكثر مما أعانى من مرض القلب .

كما كانت أمنيتى أن أكون كاتباً فى إحدى الصحف أو المجلات ، أو أن أكون ممثلاً لأن وجهى يساعدنى على ذلك ، وكانت أمنيتى كذلك أن أمتلك أرخص سيارة فى الوجود ، لأن المسافة بين بيتى وبين عملى كبيرة وترهقنى ، فلم تتحقق لى واحدة من هذه الأمانى حتى الآن ، فلم أتزوج، ومازلت أعانى من الوحدة والألم النفسى ، ولم أصبح كاتبًا ، ولاممثلاً ، ولم أستطع شراء سيارة رخيصة قديمة ، تخفف عنى عناء الطريق.

إن الماضى المؤلم يطاردنى دائماً ، ولست أرى المستقبل ، وإنما أشعر بدنو الأجل ، ولا أخاف من الموت ، بل أرغب فيه ؛ لكى أستريح من

متاعبى النفسية والصحية ، ولست أعرف فى الحقيقة لماذا أكتب لك هذه الرسالة ، ولكنى أشعر أننى قد نفست بها عن بعض أحزانى . . فهل عندك ما تقوله لى يا سيدى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

نعم يا صديقى لدى الكثير مما أريد أن أقوله لك، ولكنى سأضطر للإيجاز ؛ لكيلا أكرر ما سبق أن قلته من قبل فى حالات مشابهة ، فمن حق كل إنسان أن يحلم لنفسه بما يشاء ، ومن واجبه تجاه نفسه أن يسعى بالطرق المشروعة لأن يحقق أمانيه فى الحياة ، هدفاً وراء هدف بالتدريج ، وبالكفاح الطويل عبر رحلة العمر ، وليس دفعة واحدة ، ولا فى مرحلة سنية واحدة ! ولا غرابة فى ذلك ؛ لأن الحياة لا تهب أحداً كل ما أراد فى اللحظة نفسها ، وإنما تحقق له فى كل مرحلة من عمره هدفاً ، يتفق وطبيعة هذه المرحلة ، وبشرط أن تكون أمانيه وأهدافه فى الحياة بسيطة وقريبة وفى متناول يده ، إذا كافح بإخلاص للوصول إليها ، وليست من قبيل أحلام اليقظة . . أو طلب المستحيل ، الذى لا تؤهله لإدراكه قدراته ولا ظروفه ولا طبيعة الأشياء بصفة عامة .

وخلال سعيه المشروع لنيل ما يريد ويحلم به لنفسه . . عليه دائماً أن يؤمن بأنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، فيرضى بما استطاع الحصول عليه ، ويتعزى عما قصرت عنه أمانيه بأنه لم يقصر فى بذل الجهد لنيلها .

وفى استطاعة الإنسان دائماً أن يفلسف حياته ، وأن ينظر إلى أهداف الحياة كلها نظرة فيلسوف يرى العالم ألعوبة . . كما قال جمال الدين الأفغانى فما ناله منها ، لن يبلغ به الجبال طولاً ، مهما عظم شأنه ، وما فاته منها لم يكن ليستحق أن يقتل نفسه حزناً عليه ، لأنه قدر الله وكما شاء فعل ، ولأنه «وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» .

فإذا شكا بعد ذلك من جانب من جوانب النقص فى حياته ، رأى فيه بنظرة الفيلسوف هذه ما لا يراه الآخرون من أوجه الخير الخفية ، وأحال شقاءه به إلى رضا وقناعة ، كما فعل الفقيه المعذب ابن تيمية ، حين تعقبه الولاة بالحبس فى أكثر من بلد ، وبالنفى من أكثر من بلد ، فقال : « إن حبسى خلوة وإخراجى سياحة . . وقتلى شهادة»!

وإذا فشل المرء فى تحقيق أمنية ، بدت له فى شدة حرصه عليها ، وكأنها غاية الكون ، قال لنفسه : «وما أدرانى أننى كنت سأسعد بها لو حققتها » ، وتحول عنها إلى هدف آخر ، قريب المنال ، ويتلاءم مع ظروفه وقدراته ، فالفشل قد يكون بداية للنجاح فى طريق آخر من طرق الحياة ، لعله كان من البداية هو الطريق الأنسب له ، لولا أنه قد تعلق قلبه بغيره .

والأمثلة على من تمنوا فى بداية حياتهم شيئاً وفشلوا فى نيله ، فحققوا فى طريق آخر مالم يكونوا ليبلغوا بعض شأوه ، لو كانت الأقدار قد استجابت لهم ، وحققت أمانى الشباب الأولى لا حصر لها ولا نهاية ،

ويكفى أن أقول لك إن الجنرال فرانكو رئيس إسبانيا العتيد ، لأكثر من ٢٥ سنة ، كان يتمنى فى شبابه أن يصبح ضابطاً بحريًا ، ولكنه فشل فى الالتحاق بالأكاديمية البحرية الإسبانية فى طليطلة ، وربما لو كان قد نجح فى الالتحاق بها ، لأنهى حياته أدميرالا مجهولاً فى الأسطول الإسبانى .

فإذا كنت أنت قد تمنيت أن تعمل كاتباً أو ممثلاً ، ولم تحقق أمنيتك ، فدعنى أقل لك إن إجادة الإنسان لأى عمل يمارسه ، تكفى فى حد ذاتها لأن تشعره بالرضا عن نفسه وبالجدارة والامتياز ؛ فمقياس التفاضل - إذا كانت ثمة ضرورة للتفاضل - ينبغى أن يكون فى إتقان العمل ، الذى يمارسه الإنسان والإخلاص له ، وليس فى نوع العمل نفسه ؛ لأن من طبيعة الحياة أن تتنوع مهام البشر وأعمالهم المختلفة فيها ، وأن يحتاج المجتمع إلى كل هذه الأنواع بلا استثناء ولا تفاضل . وما أسهل أن يحوِّل الإنسان الأمنية التى حالت دون تحقيقها الظروف ، إلى «هواية» يمارسها ، إلى جانب عمله الأساسى فيرضى بذلك نفسه ، ويعبر عن ملكاته ؛ لأن أمانى الإنسان لنفسه لا حد لها ولا نهاية ، وليس من طبيعة الحياة أن تستجيب لكل ما تهفو إليه نفوس البشر ، وإلا لأصبح الجميع فجأة رؤساء دول ، ورؤساء وزارات ، ووزراء ، ورجال أعمال من أصحاب المليارات ، وفنانين ، وأدباء ، وأطباء ، وعلماء مشاهير فقط ، ولخلت الحياة بالتالى من البشر العاديين من أمثالنا ، ممن كان يسميهم الفيلسوف الألمانى نيتشة «تراب الإنسانية» ،

وهم قوام الحياة وعمادها ، الذى لا تقوم للحياة قائمة دونه .

وإذا أردتنى أن أقدم إليك مثالاً واحدا على المساحة الشاسعة دائما بين بحر الأمانى الواسعة وجدول الانجازات الضيق فإنى أقرأ عليك ما كتبه العقاد العملاق وهو فى أوج مجده وشهرته حين كتب يقول :

« كل ما كنت أريده وأطلبه من الحياة لم أبلغه ، ولا أرى أحدا بلغه ، ولا أرى أحدا بلغ كل ما طلب ، كما أنى لم أبلغ الغاية التى رسمتها أمامى فى مقتبل حياتى ولا قريبا من الغاية ، وإذا قدرت ما صبوت إليه بمائة فى المائة فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين » .

هذا ما قاله العقاد عن نفسه . . فلعلك إذا قدرت ما صبوت أنت إليه ،وأنت صبى صغير إلى ما حققته الآن ، وأنت مدرس ثانوى فى مرحلة النضج من حياتك ، فلربما زاد عما حققه العقاد بهذا المقياس القاسى !

وإذا كنت لم تحقق أملك فى شراء سيارة رخيصة ، تعينك على ظروفك المرضية ، أعانك الله عليها . . فإن أديبنا العظيم نجيب محفوظ لم يمتلك ذات يوم سيارة خاصة به ، ففى مراحل شبابه ورجولته وكهولته ، لم تسمح له الظروف المادية بشراء سيارة ، وحين سمحت له بها الإمكانيات فيما بعد اعتذرت « الصحة » عن عدم السماح له بهذه الأمنية البسيطة !

فإن بقى شىء يستحق أن تأسى عليه حقًّا ، فهو أملك العادل والمشروع فى أن ترتبط بشريكة حياة ، تخفف عنك وحدتك ، وتعينك

على أمرك وتدفع عنك شبح الاكتئاب والحزن . . والرغبة فى الموت ، لأن رخص الحياة مهما كانت آلامها فتنة ، وتمنى الموت إثم ، أرجو الله أن يعفيك منه .

ولقد قرأت الشهادة الصحية المرفقة برسالتك ، ووجدت مرضك المسجل به لا يحول فيما أعلم بينك وبين الزواج ، بل لربما كان الزواج مفيداً -لحالتك الصحية ، بما يوفره لك من استقرار نفسى وعاطفى واجتماعى ، والكلمة الأخيرة فى ذلك بالطبع للأطباء المختصين ، فإذا كان الآباء فى مدينتك الصغيرة يتخوفون من ارتباط بناتهم بمن كانت له مثل ظروفك الصحية ، فلماذا لا توسع دائرة البحث ؛ بحيث تشمل السيدات الناضجات من ذوات التجربة السابقة فى الحياة الزوجية ، وكثيرات هن من يرحبن بمشاركة شاب مثلك حياته ، والتعاون معك على أنواء الحياة .



الميراث المعنوى

لم أكتب رسالتى هذه إلا بعد تفكير عميق ، خوفاً من أن ينكشف أمرى بين من يعرفوننى ، فأنا سيدة فى الثالثة والثلاثين من العمر ، نشأت بين أب وأم على قدر عال من العلم والدين ، وعشت حياة عائلية هادئة ، وفى مستوى اجتماعى ومادى جيد ، وقد شاء لى قدرى أن أكون الابنة الوحيدة لأبوين ، لم ينجبا غيرى ، فتمتعت بحنانهما ورعايتهما طوال مراحل عمرى ، وإن كنت قد افتقدت الإخوة والأخوات بعض الشىء .

وقد واصلت تعليمى بتفوق ، حتى تخرجت فى إحدى كليات القمة ، وعملت بها عضوًا بهيئة التدريس ، وفى بداية عملى بهذه الكلية ، ارتبطت بعلاقة حب طاهر مع أحد زملائى المعيدين ، لمست فيه الأخلاق الكريمة ، ورحب به أبى حين تقدم إليه بلا تردد ، وقال لى إنه الشخص الذى يستحقنى بالفعل ، وتمت خطبتنا بلا مشاكل ، وكانت فترة من أجمل فترات العمر ، وتزوجنا بعد قليل ، وكان حفل زفافنا ليلة

من ليالى ألف ليلة ، وسعدت بزوجى كثيرًا وسعد بى ، وأطمأن قلبا أبى وأمى ، وسعدا بسعادتى وبتوفيقى مع شريك حياتى .

وبعد عامين فقط تزلزل كيانى برحيل أبى عن الحياة ، فشعرت حين وافاه الأجل ، أننى قد أصبحت واقفة فى العراء وبكيته بحرقة وحزنت عليه طويلاً ، فلم تمض سوى بضعة شهور أخرى على رحيله حتى فجعت مرة ثانية برحيل أمى عن الدنيا ، فأصبح الحزن حزنين وتحالفت علىّ الأحزان ، وتركت بصماتها على ملامح وجهى ، وحالتى النفسية ، ولم يخفف عنى بعض حزنى سوى زوجى الحنون الطيب . . وتنبهى إلى واجبى كأم لطفلين بريئين ، وككل حزن فى الحياة يبدأ كبيرا ثم يصغر ، فقد تواءمت مع حياتى بعد حين وتمنيت فى هذه المرحلة من عمرى لو كان لى شقيق يشد من أزرى ، أو شقيقة أبكى على كتفها ، وتبكى على كتفى، ونزور معًا قبرى أبوينا ، ونحيى ذكراهما ، ولكن أبى وأمى ، رحمهما الله قد تركا لى ميراثاً ماديًا ، يدر على دخلاً كافياً ، ولكنهما لم يتركا لى ميراثاً معنوياً ، يشد من أزرى كالأشقاء والشقيقات .

ولقد شغلت نفسى بعملى وأبحاثى ، وإدارة ما تركه لى أبى من أملاك، وزوجى وأطفالى ؛ فنسيت أحزانى . . واستعدت سلامى النفسى ، واطمأننت إلى يومى وغدى . . فإذا بى أفيق من ذلك كله بعد بضع سنوات أخرى على زلزال أشد وإذا بالأقدار الحزينة تسلبنى أيضًا وبغير سابق إنذار - زوجى المثالى ، الذى اعتبرته أخى وأبى وأنيسى الوحيد فى الحياة ، ويغيب الزوج والحبيب الغالى تحت الثرى ، بعد رحلة

زواج دامت عشر سنوات . . فلم أحتمل وطأة الحزن أكثر من ذلك . . وعجزت حتى عن تقبل العزاء فى زوجى الراحل ، وانهارت حالتى النفسية ؛ حتى احتجت إلى استشارة الطبيب النفسى والتردد عليه مرتين كل أسبوع لبعض الوقت .

وبعد شهور من رحيل زوجى عن الحياة ، تلفت حولى لأراجع حياتى؛ فوجدتنى أرملة حزينة فى الثالثة والثلاثين من العمر . . وأمًّا محطمة نفسيًّا لطفلين صغيرين ، تفتحت أعينهما على اليتم والحزن وملابس الحداد ، فحاولت مقاومة تيار الأحزان وتعويضهما عما فقداه بأقصى ما أستطيع من جهد ، ولكن كيف تستطيع ذلك من كانت وحيدة مثلى ، لا أخ لها ، ولا أخت ، ولا زوج .

لقد اشتدت حاجتى النفسية من جديد إلى الميراث المعنوى ، الذى حرمت منه . . وتمنيت لو كان أبى وأمى قد أنجبا لى شقيقاً ، يسأل عنى أو أختًا تشاركنى أحزانى ، ووجدتنى فجأة أكره كل شىء حولى . .

وأشعر بالسخط على كل شىء ، فحتى أبى وأمى ، لم أعد الآن أدعو لهما بالرحمة ، كما كنت أفعل دائماً ؛ لأنهما حرمانى من الإخوة الذين يعينون شقيقهم فى مثل هذه الظروف المؤلمة ، ولقد كان ذلك فى مقدورهما ، ولكنهما فضلا أن يدمرانى بغير وعى إلى آخر العمر ، فإذا كان لى من عزاء عن حياتى ووحدتى ويتم أولادى ، وترملى فى سن الشباب . . فهى أن الله سبحانه وتعالى ، وهو المطلع على كل شىء ،

سوف يجعل مثواى الجنة بإذن الله ، وهذا هو أملى ومطمعى ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

حين تضيق النفس بأحزانها ويمتلىء الإناء بما فيه من الهموم . . قد يتلفت البعض أحياناً حولهم ؛ ليبحثوا عن «طرف» خارجى ، يحملونه بعض مسئولية هذه الأحزان التى ضاق عنها صبرهم ، وهى « حيلة نفسية دفاعية» ، قد يلجأ إليها الإنسان بلا وعى منه فى بعض الأحيان ، فيتهم «الآخرين» بأنه هم الذين صنعوا مآساته التى يضيق بها ، مع أن عقله الواعى يسلم فى الوقت نفسه بأنه لاذنب لأحد فى أقدار الإنسان الحزينة . .

ولقد اختارت نفسك الحزينة أن تتهم أبويك الراحلين بالمسئولية عما تعانين من وحدة الآن فى الحياة بعد رحيل زوجك ؛ لأنهما لم ينجبا غيرك من الأشقاء ، وحاولت أن تبررى ذلك لنفسك بأنهما قد كان فى مقدورهما أن يفعلا ذلك ، ولكنهما قد «آثرا» أن «يدمراك» إلى نهاية العمر، مع أنه لا دليل على أنهما قد اختارا لك بإرادتهما أن تكونى ابنة وحيدة ، ولا دليل أيضاً على أنه قد كان فى مقدورهما بالفعل أن ينجبا غيرك ، ولم يفعلا ؛ إذ إن الأقرب إلى منطق الأشياء ، هو أن يتمنى الأبوان غالباً أن ينجبا أخًا واحدًا ، أو أختًا واحدة على الأقل للابنة الوحيدة ، خاصة إذا كانا من ميسورى الحال كما كان أبواك ، وعلى الرغم من ذلك فإن عقلك الباطن ، الذى يضيق الآن بواقعك الحزين . .

ويعجز عن احتمال ما تعرضت له من ترمل ، وفقد لشريك الحياة فى سن الشباب ، قد «آثر» أن يتحول باللوم النفسى إلى الأبوين اللذين قدما لك كل شىء . . ليس لأنهما يستحقان هذا اللوم بالفعل ، وإنما لأنه يشفق على النفس من التوجه بهذا اللوم إلى الأقدار الحزينة ، التى صنعت هذه الظروف كلها ، فلوم الأبوين هنا والتوقف عن الدعاء لهما بالرحمة ، لا يعكسان حقيقة مشاعرك تجاهما ـ لكنهما يعكسان فقط إحساسك المؤلم بالعجز عن مواجهة هذه الأقدار الحزينة . . وتهيبك النفسى من لومها ؛ خوفاً من عقاب الله للمتسخطين على أقدارهم . . وهكذا ، فلقد حدثت عملية « تحويل » نفسى للهدف ، الذى ترينه أنت مستحقاً للوم ، فأصبح الأبوين ، بدلاً من أن تكون الأقدار ، فإذا كان ذلك يعكس فى الوقت نفسه عمق الوازع الدينى فى أعماقك ، فكيف غاب عنك ، وأنت المثقفة المتدينة . . ما فى لوم الأبوين على ما لا حيلة لهما فيه من إثم لوم الأقدار على ما اختارته للإنسان من حياة ؟

ومن أدراك يا سيدتى ، أنه لو أن أبويك قد أنجبا لك أخًا وأختًا أنهما سيكونان من الصالحين الذين يرعون حق الإخوة ، ويشدون من أزر شقيقتهم فى محن الحياة ، بل ومن أدراك أيضاً أنك ـ مع افتراض وجودهما ـ كنت سترضين عن أقدارك أو تتصبرين عليها ، مع تسليمى الكامل بأهمية دور الإخوة الصالحين فى مساندة الإنسان وإعانته على الصمود لاختبارات الحياة . .

يا سيدتى لا لوم لأحد على أقداره الحزينة . . ولا لوم أيضًا على

الآخرين فيما جرت به عليه المقادير ، فسلمى بهذه الحقيقة فى أعماقك لتستعيدى سلامك النفسى الهارب ، وتقوى على مواجهة أقدارك بشجاعة ، فالواقع المؤلم قد يرغم الإنسان أحياناً على أن يحيا حياته بشكل صحيح ، حين يكف عن توهم وجود آخرين مسئولين عنها . .

وفى تقديرى أنك أكثر حاجة الآن لاستشارة الطبيب النفسى ، مما كنت عليه عند رحيل زوجك ، فلا شك فى أنك تعانين اكتئابًا واضحًا ، يفقدك الإحساس بقيمة الأشياء . . ويصبغ رؤيتك للحياة بلون قاتم . . ويسلبك القدرة على تقبل الواقع والحياة .

وبشىء من التدعيم النفسى ، عن طريق الطبيب المتخصص . . سوف تتجاوزين بإذن الله أحزانك . . وتقوين على مواجهة وحدتك . . وتتشجعين على التطلع للمستقبل ، ومواجهته بما يلائمك من خطط ملائمة لحياتك المستقبلية ، فأنت مازلت شابة ، والحياة ممتدة أمامك . . والسبل مفتوحة لك كذلك على مستوى الحياة العملية . . وعلى مستوى الحياة الخاصة أيضًا .

وإذا كان شتاء الأحزان قد جاء ، فليس الربيع ببعيد ، كما يقول لنا الشاعر الإنجليزى ، وكما ينبغى لكل إنسان مؤمن بربه وكتبه ورسله وملائكته وبقضائه وقدره خيره وشره ، وباليوم الآخر أن يؤمن دائماً . . وليس هناك من هو أجدر بنيل السعادة ، ممن استوفى نصيبه كاملاً من أحزان الحياة مثلك ؛ فترفقى بنفسك يا سيدتى وبطفليك الصغيرين ، اللذين يخسران كل شىء إذا واصلت الاستسلام للحزن والاكتئاب

بلا مقاومة . . فهم الأمل . . والعزاء للقلب الحزين . . وهم أيضاً الإخوة لمن لم يكن لهم أخوة مثلك . . وهم فدية الأعزاء الراحلين ، ورمز امتدادهم فى الحياة . . وما أغلاها من فدية . . وما أجملهم من عزاء . .

ولسوف تجيئك جوائز الحياة تترى فى الوقت الملائم ، فترقبيها أيضاً ، كما تترقبين الآن جوائز السماء . . والعاقبة دائماً للصابرين .





الحرب الشعواء

أنا رجل قاربت الأربعين متزوج ، ومتدين وزوجتى كذلك والحمد لله ، وقد رزقت منها البنين والبنات .

وذات يوم ألقى الشيطان شباكه حولى عن طريق امرأة متزوجة ، شاغلتنى فاستجبت لها ، ولم تتعد العلاقة بيننا الكلام والرسائل ، مع تسليمى بأنها ـ رغم ذلك ـ علاقة محرمة ، ثم أبلغ البعض زوجتى بأمر هذه العلاقة ، وعلى الرغم من الجرح الدامى الذى سببته لها بذلك ، فقد شنت على الفور حربًا شعواء ، ليس على شخصى الخاطىء . . وإنما على كل من يمسنى بكلمة أو يتقول على بشأن هذه المرأة ، ودافعت عنى بكل قوتها فى وجه الجميع برجاحة عقلها وبقلبها الكبير .

وقد اعترفت لها بما حدث حين واجهتنى به وغفرت لى خطئى وسامحتنى ، فعاهدت نفسى بعدها ألا « أنظر » إلى أى امرأة أخرى فى الوجود سواها ، ومضت على هذه القصة ست سنوات كاملة ، لم تشر

إليها خلالها زوجتى مرة واحدة ، ولو بلمحة ، أو إشارة ، كأنما لم تعبر سماء حياتنا ، وأشعرتنى دائما بأن ثقتها فىَّ قد تضاعفت بعدها، ولم تنتقص، فتعمق حبها فى قلبى ، وشعرت تجاهها دائماً بالحب والإعجاب والامتنان .

وما يدفعنى لأن أروى لك هذه القصة الآن هو أن صديقاً لى يتعرض لهذه الظروف نفسها بتفاصيلها، ولكن زوجته قد شنت حربها الشعواء عليه هو ، وليس على الآخرين كما فعلت زوجتى ، وأشعرته بأنها قد فقدت الثقة فيه نهائيًا ، حتى كاد ينهار تمامًا ، وتتحطم أسرته .

إننى أرجوك أن تناشد زوجة صديقى هذا أن ترفق به وتحتضنه ، وتقول له مثلما قالت لى زوجتى فى هذه الظروف نفسها وهو :

ـ لن أسمح لأحد بأن يأخذك منى . .

وأرجو أن ينقذ الله هذا البيت من الدمار على يديك وشكرا !!

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

التجربة خير برهان دائماً يا سيدى ، ولقد علمتنا تجارب الحياة أن الزوجة حين تواجه مثل هذا الموقف . . فإنها تجد نفسها دائمًا أمام خيارين : الأول ، هو أن تستسلم بلا مقاومة لطوفان الغضب الأعمى لكرامتها والرغبة الجارفة فى العقاب والانتقام ؛ فتدين زوجها بما فعل ، وترفض العفو عنه ، أو قبول اعتذاره ، وتطارده بالشك واللوم والاتهام على طول الخط ؛ فلا يكون لذلك من عائد غالباً إلا إنهيار الأسرة، أو

تسميم الحياة بالشك والاتهام إلى مالا نهاية ، فاذا استمرت الحياة الزوجية تفضيلاً لمصلحة الأبناء . . فإنما يكون استمرارها جحيماً مقيماً للزوجين . . كما يكون انهيارها جحيماً مقيماً للأبناء .

والخيار الثانى هو أن تتعامل مع الموقف بقلب الأم ، الذى يرفض الخطأ ولا يقبل به . . ولكنه يسعى فى الوقت نفسه للإصلاح ، وليس للعقاب والانتقام . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف . . فإنها تتعامل مع الطرف المخطىء بحكمة الأم ، وليس بقلب الزوجة الغيور الغاضبة لكرامتها الأنثوية فقط ، وتفتح الباب دائماً أمام مبادرات الإصلاح . . بأكثر مما تفتحه أمام نوازع الغضب والعقاب ، وتتهيأ نفسيًّا للصفح والغفران ، إذا قدم لها الطرف الآخر أبسط دليل ، على أنه قد وعى درس التجربة ، واستشعر الندم عليها .

وفى سبيل ذلك فقد تتغاضى بوعى وحكمة عن بعض مالا يرضى كرامتها كأنثى ؛ أملاً فى الإصلاح ، واختياراً لإنقاذ الأسرة من الدمار ، ومنطق هؤلاء الزوجات الحكيمات فى الشرق والغرب على السواء . . هو أنهن يواجهن معركة ، لا يتحقق الفوز المشرف فيها بالتصادم المستمر مع الزوج إلى حد فقده وانهيار الأسرة ، وإنما يكون الفوز الحقيقى فيها باستعادته ، وحرمان الأخرى من الاستئثار به ، وفتح أبواب التكفير أمامه عن خطئه فى حق زوجته . . ، والرضا بما يقدمه لها من قربى طلبًا لعفوها وعودة الحياة الطبيعية بينهما بعد هذه الزوبعة .

وفى كل الأحوال . . فإنه لا يحقق هذا الهدف أبدًا اتخاذ موقف

عدوانى صاخب من الزوج ، ولا ملاحقته بالشك والريبة فى كل تصرفاته ، وتحويل حياته إلى جحيم أبدى ، وإنما يحققه أن تتجاوز زوجته بأسى خيانته لعهد الوفاء معها . . ومثل هذا الأسى لا يصنعه الغضب العدوانى المدمر ، وإنما يصنعه الحزن النبيل على الوفاء الضائع . . والدموع الصامتة التى تشعر المخطىء بخطئه . . . ، وتستثير فيه الإحساس بالذنب تجاه من أخطأ فى حقها بالتطلع لغيرها ، مع استعداد الزوجة النفسى للتسامح ، واعتبار ما حدث « مجرد زلة ، وليس سقوطًا » على حد تعبير أحد الحكماء .

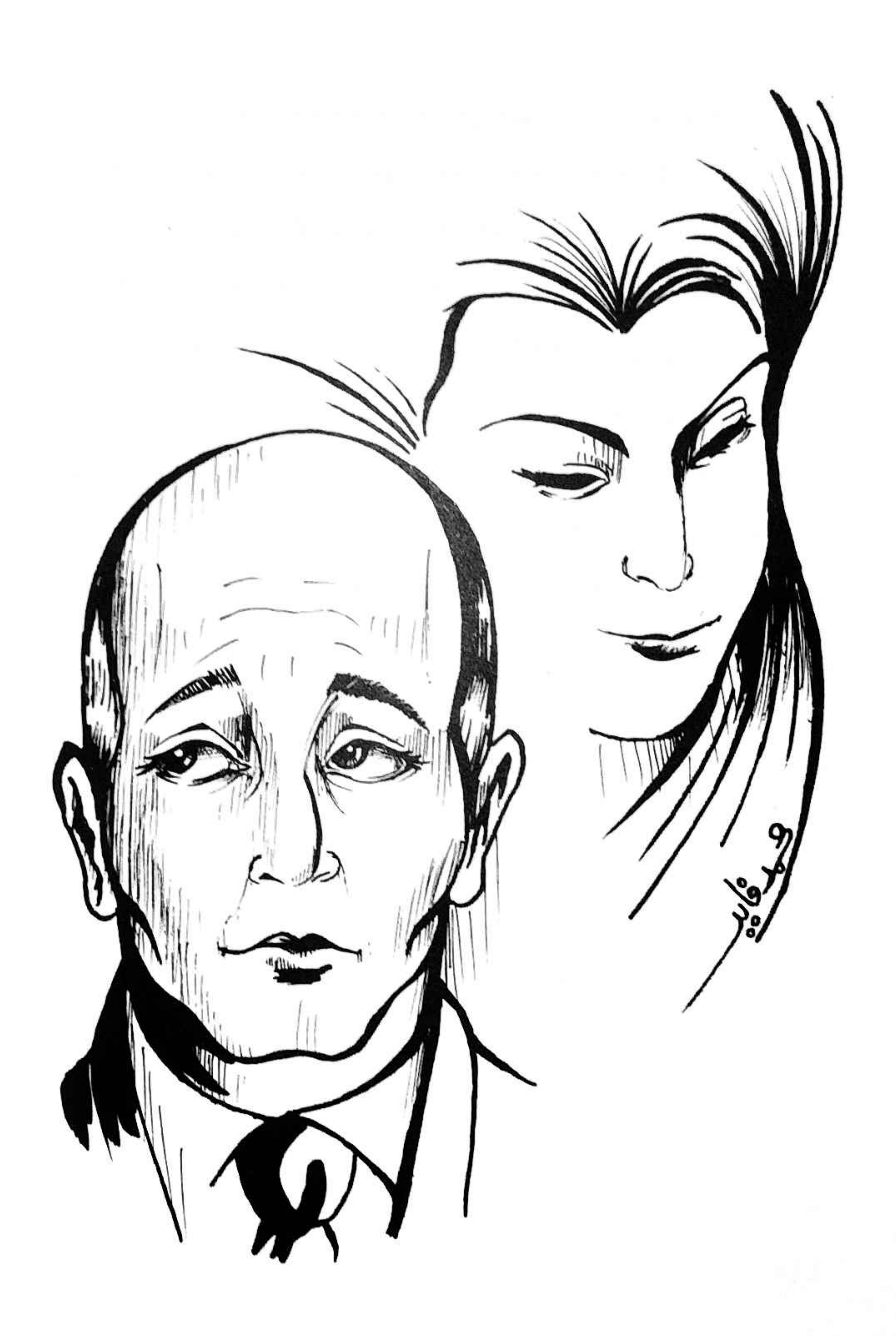
وقد يبلغ الفضل ببعض الزوجات الحكيمات أن يراجعن أنفسهن فى مثل هذه الظروف ، وأن يتلمسن الأسباب التى دعت الزوج للوقوع فى هذه الزلة ، ويصلحن منها ، وقد يبلغ بهن الفضل أيضًا أن يتجاهلن ـ فيما يلى ذلك من حياتهن مع أزواجهن ـ هذه الزلة ، فلا يشرن إليها أبدًا . . ولا يثقلن ضمائر أزواجهن بعد الصفح بتذكيرهم بها كل حين . . ولا يسمحن لها بإفساد حياتهن مع أزواجهن . . ناهيك عن السماح لها من الأصل بتدمير هذه الحياة من أساسها !

فأرجو أن تراجع زوجة صديقك نفسها ؛ وأن تستفيد بتجربة زوجتك الفاضلة معك ؛ لتعرف أن من أخطاء الحياة مالا ينبغى أن يتوقف الإنسان أمامه إلى الأبد ، وأن النشدد المغالى فيه حتى فى الحق ، قد تكون له عواقبه غير المرضية فى كثير من الأحيان ؛ إذ لا يكفى أن يكون الإنسان على حق فى موقفه ، وإنما يحتاج الإنسان أيضًا إلى الادراك ، وحسن الفهم ، والحكمة ؛ لكى يتجنب عثرات الحياة .

ولست أنكر على زوجة صديقك فى النهاية ، أن يساورها الشك فى تصرفاته الشخصية ، بعد ما ظهر لها من عدم وفائه ، لكنى أطالبها ـ من ناحية أخرى ـ بعدم الاستسلام تمامًا لهذا الشك إلى الحد الذى يفسد عليها الحياة . . ويحرمها من إحساس الأمان . . ويحرم زوجها نهائيا من الثقة ، ويقدم له « المبرر النفسى » لتبرير خطئه السابق فى حقها !

ذلك أنه مما يشجع أيضًا الاشخاص على التزام الطريق القويم فى الحياة ، هو أن نشعرهم بثقتنا فيهم . . وبأنهم جديرون بهذه الثقة ، حتى على الرغم مما تورطوا فيه من أخطاء سابقة قبلنا اعتذارهم عنها . . وسلمنا لهم بأنها لا تعبر عن شخصياتهم الحقيقية ؛ فالإنسان يميل غالبًا لأن ينهض بالثقة التى يضعها الآخرون فيه ، وحتى ولو كان قد خانها فى بعض لحظات الضعف البشرى العابرة .

ونصيحتى لزوجة صديقك ، هى أن تحاول التجاوز عما حدث ، وأن تشجع مبادرات زوجها للرجوع عن الخطأ واستعادة الثقة المفقودة فيه ، وأن تتعامل معه بمبدأ « الثقة المبصرة » التى لا تتشكك فى استعداده للعودة للطريق القويم ، ولا تركن فى الوقت نفسه إلى ثقة الغافلين العمياء فيمن أهدر هذه الثقة من قبل ، ولن يطول الوقت ؛ حتى يثبت لها زوجها أنه قد تعلم الدرس ، واستفاد بأخطائه . . وأصبح جديرًا بثقة زوجته فيه وحبها واحترامها له من جديد ، كما فعلت أنت مع زوجتك ، وكما أرجو أن يفعل صديقك مع زوجته أيضًا بإذن الله .





طعم النجاح

أنا سيدة فى أواخر الثلاثينيات من عمرى ، أعمل بوظيفة لها علاقة بعلم النفس ، وأم لولدين وبنتين وصلت كبراهما إلى المرحلة الثانوية ، وزوجى رجل فاضل فى أواسط الأربعينيات من عمره ، ويشغل منصبًا مرموقًا .

وقد مضت حياتنا معًا سعيدة وهانئة ، فلم ينغصها من حين إلى آخر، إلا بعض الموجات الطارئة من الغيرة الشديدة من جانب زوجى على ، ثم هدأت هذه الموجات الطارئة بعد أن كبر الأبناء ، وأضفوا على حياتنا البهجة والمرح ، وامتصوا غيرة أبيهم على زوجته بنوع من الدعابة ؛ خاصة من جانب ابنتنا الكبرى ، التى لعبت دورًا مهمًا فى امتصاص هذه الموجات ، واستقرت حياتنا الأسرية تمامًا والحمد لله منذ بضع سنوات ، واختفى كابوس الغيرة منها نهائيا كأنها كان سرابًا وتبدد .

واكتملت لنا أسباب الهناء ، فراح زوجى يواصل نجاحه فى عمله ، وينتقل من نجاح إلى نجاح ، حتى بلغ درجة المدير العام . . وراح

يتطلع إلى شغل منصب المدير العام فى هيئته بعد إحالة المدير الحالى للمعاش ، بوصفه المرشح الطبيعى للمنصب ، لكفاءته فى عمله ولشغفه الشديد به وتقاريره الممتازة فيه ، فضلاً عن نجاحه فى كل أمور حياته الاخرى ، حيث لم يذق أبدًا مرارة الفشل فى حياته . . وحيث أصبح لطعم النجاح نشوة خاصة لديه ، كما أكمل نجاح الأبناء هذه الصورة العائلية البديعة لأسرة سعيدة وموفقة وناجحة ، فكانوا دائماً فى عداد المتفوقين دراسيًّا ، فضلا عن أدبهم وتهذيبهم .

ولقد أصبحت مسألة تعيين زوجى مديرًا عامًّا لإدراته أو هيئته مسألة وقت ليس أكثر ، وسوف تتحقق بمجرد بلوغ المدير السن القانونية ، فإذا بزوجى يتعرض لأول عاصفة فشل فى حياته ، وإذا بمدير آخر يعين فى المنصب لكبر سنه عن سن زوجى فيصاب بإحباط شديد ، ويدخل فى صراعات مريرة مع زملائه ورؤسائه ، وتنهار صلاته الاجتماعية حتى مع اخوته ، ويتعرض ـ كما قال الأطباء ـ لما يشبه الصدمة العصبية القاسية .

وبعد أن كان زوجى شغوفًا بعمله ويذهب إليه مبتهجًا ومتشوقًا ، شعر بأنه قد سقط من فوق قمة النجاح إلى هاوية الفشل ، وأصبح لا يطيق الذهاب للعمل ، ويشعر بأن كل من حوله يكرهونه ، وإذا ذهب إليه ، لم يستطع البقاء به أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر ، ثم يرجع للبيت ، ويبقى به أيامًا فلا يغادره ، وراقبت ما طرأ على زوجى من تغيرات بقلق وإشفاق شديدين ، وأشرت عليه بأن ينتقل من هذا

العمل إلى عمل آخر ، إذا كان لا يطيق الاستمرار فيه ، ولكن الأحوال تدهورت أكثر وأكثر ، وبدأ زوجى يتردد على الأطباء النفسيين ؛ فشخصوا حالته بأنها حالة قلق نفسى واكتئاب ، ووصفوا له العقاقير المهدئة ، التى تجعله يكاد لا يستطيع الحراك .

وازداد قلقى على زوجى بحكم دراستى لعلم النفس ، وإدراكى لصعوبة علاج الاكتئاب النفسى ؛ لأن مريض الاكتئاب هو طبيب نفسه أولا وأخيرًا ، وبيده أن يقود سفينته إلى شاطىء الأمان . . وبيده أيضًا أن يغرقها فى بحر الاكتئاب بلا نجاة ، إذا استسلم له .

ورغم إرادة زوجى القوية . . فإنه لم يصمد لهذا الاكتئاب ، وانخفض وزنه سريعًا وشحب لون وجهه ، وراح يتدهور من فشل إلى فشل فى عمله ، وتوالت عليه الإنذارات والمشاكل ، ثم انتابته فجأة حالة غريبة من عدم الاكتراث بكل شىء . . ففقد الاهتمام بالعمل وبى وبأبنائه ، ولم يعد يسأل عن أحوالهم . . وفترت بل انقطعت علاقاته الاجتماعية ، وأصبح شيخًا حزينًا فى السبعين من عمره ، وفرض على نفسه العزلة التامة ، وخيم جو ثقيل من الحزن والكآبة على أسرتنا .

وانعكس كل ذلك بدوره على فى عملى ؛ فأصبحت شديدة العصبية مع من حولى ، وتسرب الحزن والغم إلى نفوس أطفالنا الصغار ، فلم يعودوا يلعبون كأقرانهم ، وأصبح زوجى يخشى أن يسير بمفرده فى الشارع ، وزادت العقاقير المهدئة من ساعات نومه ، وأصبح فى حالة يرثى لها من اللامبالاة وعدم الاكتراث للأشياء ، حتى تمنيت لو رجعت

إليه مرة أخرى موجات الغيرة الشديدة السابقة ، التى كنت أشكو منها من قبل ؛ لأنها أرحم كثيرًا من عدم اكتراثه بى وبأبنائه ، وبكل شىء الآن !

إن الانسان المؤمن هو الذى يمتص صدمات الحياة ويتجاوزها ، وزوجى رجل مؤمن وارادته قوية ، بدليل ما حققه من نجاح فى كل مراحل حياته ، ولكنى لا أعرف لماذا لم تنجح إرادته هذه فى أن تعينه على امتصاص الفشل وتجاوزه هذه المرة ، حتى حرت فى أمره ، وحار معى أطباؤه النفسيون .

إننى أقول له دائمًا إن أصحاب الهمم العالية هم الذين يتغلبون على الإحباط بالصبر والإيمان والإرادة القوية ، ولقد تحسنت أحواله النفسية بعض الشىء فى الفترة الأخيرة ، وجاءه منذ أيام زميل له بالعمل ، وأكد له أن المكان الذى يعمل به يقدر جيدًا ظروفه النفسية ، وأنهم يطالبونه بالعودة لعمله ، مع وعد بمعاملته معاملة خاصة إلى أن يتغلب على ظروفه النفسية ، ولكن زوجى لم يرجع بعد إلى العمل . .

ولست أتمنى على الله شيئًا الآن سوى أن يرجع لعمله مرة أخرى ، ويستعيد إقباله على الحياة ، وهو يقرأ « بريد الجمعة » بانتظام ، ويتأثر بقصص أصحاب المشاكل ، وبردودك الحانية عليها ، فهل أرجوك أن توجه له كلمة . . لعل كلماتك تخرجه من سجن الإحباط ، الذى يعيش فيه الآن وتعيد إليه الأمل مرة أخرى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا يعرف الانسان نفسه أهو من أصحاب الهمم العالية . . أى من «أصحاب العزائم» بتعبير الصوفية ، أم لا ، حتى تمتحنه اختبارات الحياة وعثراتها ورياحها المناوئة ؛ فالطريق السهل الذى ينتقل فيه الإنسان من نجاح إلى نجاح ليس اختبارًا حقيقيًّا لهمته وعلو نفسه ، حتى ولو كان قد حقق كل هذا النجاح بكفاءته ودأبه وكفاحه . .

وقد يمضى الانسان معظم حياته وهو يعتبر بلوغ الإهداف التى يطمح إليها من طبائع الأشياء ، فإذا ارتطم بصخرة قاسية اعترضت طريقه فجأة . . اكتشف مع هذا الاختبار فقط صلابة روحه أو هشاشتها ، فاذا كان من أصحاب النفوس الكبيرة ، سلم بأن الحياة نجاح وفشل وهزائم وانتصارات ، وآمن بأنه ليس محبوب الأقدار ، الذى ينبغى أن تتحقق له كل أهدافه فى موعدها المحدد ، ودون أدنى تأخير ، ووطَّن النفس على قبول الهزيمة الطارئة وصبر عليها . . كما سعد من قبل بالانتصارات المتوالية ، ولم يفقد إيمانه بربه ولا بنفسه ولا بخيرية الحياة ، وواصل السعى الشريف فى الحياة ، غير غافل عما أجزلت له السماء العطاء فيه من قبل ، ومؤمنًا بأن من واجبه تجاه نفسه أن يسعى بالطرق المشروعة إلى أهدافه .

أما بلوغها فليس من شأنه ، ولا من قدرته المحدودة ؛ لأنه يتعلق أولاً وأخيراً بإرادة إلهية تعلو فوق كل الإرادات ، وتوزع الحظوظ بين

البشر، لحكمة تجلُّ على الافهام القاصرة ، ولا يحق لأحد أن يعترض على ما قضت به . . أو ينكر على محظوظ ما غمرته به من عطايا .

وإنما يحق له فقط أن يلوم نفسه ، إذا كان قد قصر فى بذل الجهد والعرق لنيل اهدافه المشروعة . . ويسعى وراء هذه الأهداف باعتدال . . ، ويؤمن بأنه لا يحتكر الحق فى بلوغها وحده ، وأن هناك من قد تختصهم الأقدار بالفوز دونه ، مستهديًا فى ذلك بهدى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، حين قال : « اطلبوا الحوائج بعزة نفس فإن الامور تجرى بالمقادير » .

وليس من عزة النفس ، ولا من علوها ، ولا من كرامتها البشرية ، ولا من حسن الإيمان بالله ، ولا من الرضا بقضائه وقدره أن يتهالك الإنسان على طلب شيء ، حتى ليخيل إليه أن حركة الكون كله تتوقف على نيله له ، فإذا لم ينله ارتجت عليه الأرض وانهار صريعًا حسيرًا ، كأنما قد اختل ميزان العدل فى الكون كله ، فليس فى الحياة كلها هدف مادى يستحق أن تتوقف عليه حياة الإنسان وسعادته وصحته وسلامه النفسى وأمان من ترتبط حياتهم بحياته ويتحمل أمانة المسئولية عنهم على هذا النحو أبدًا .

وما فى الحياة كلها منصب واحد ـ مهما علا شأنه ـ يستحق أن تضطرب حياة الإنسان وحياة أسرته على هذا النحو المؤلم ؛ لأنه لم يفز به، وقد تكون الإرادة الإلهية قد ادخرته لما هو أفضل منه . . وقد تكون قد

حجبت عنه بحرمانه منه ما لم يكن يعوضه لو أصابه كل مناصب الدنيا .

وكرم الله وجه إمام المتقين على بن أبى طالب ، الذى أوصى ولديه ، فلم يوصهما بطلب الخلافة من بعده ، وهما من هما فضلاً وتقوى ، وإنما قال لهما : أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما . . وألا تبكيا على شىء زوى عنكما » .

ورحم الله إمام المجددين محمد عبده ، الذى قال إن الرجل الكبير يرى نفسه أكبر من منصبه ، فلا يهلع إذا فارقه ، والرجل الصغير يرى نفسه أصغر من منصبه ، فيرتاع إذا فقده .

ولقد سئل الاديب العلامة الدكتور أحمد أمين ، حين عين عميدًا لكلية الآداب فى الاربعينيات عما أضافه إليه المنصب الكبير ، فقال : أنا أكبر من عميد وأصغر من أستاذ !

أفإن « زوى عنك » منصب المدير العام يا سيدى ، تنهار وتسقط فى هاوية الاكتئاب النفسى ، وتضطرب نفسيًّا وصحيًّا ، وتضطرب معك حياة أسرتك كلها على هذا النحو المؤلم ؟

وأين علو نفسك . . وأين ثقتك بها . . وأين إيمانك بربك وبحسن اختياره لك ، وإن عميت عنك بعض حكمته الإلهية ؟

وأين تسليمك بأن أمر المؤمن كله خير إن إصابته سراء شكر . فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له .

وماذا كان يغنيك هذا المنصب ، لو كنت قد فزت به ، ثم أُضرت

ضررًا بليغًا فى صحتك أو حياتك العائلية ، أو فى أعزائك ، لا قدر الله ، لقد أجزلت لك السماء من العطاء الكثير والكثير ؛ مما يستوجب الشكر عليه أناء الليل وأطراف النهار ، فكيف ذهلت عن كل ذلك ، ولم تر من حياتك كلها سوى ذلك « الهدف » الصغير ، الذى طاش سهمك إليه فلم يصبه !

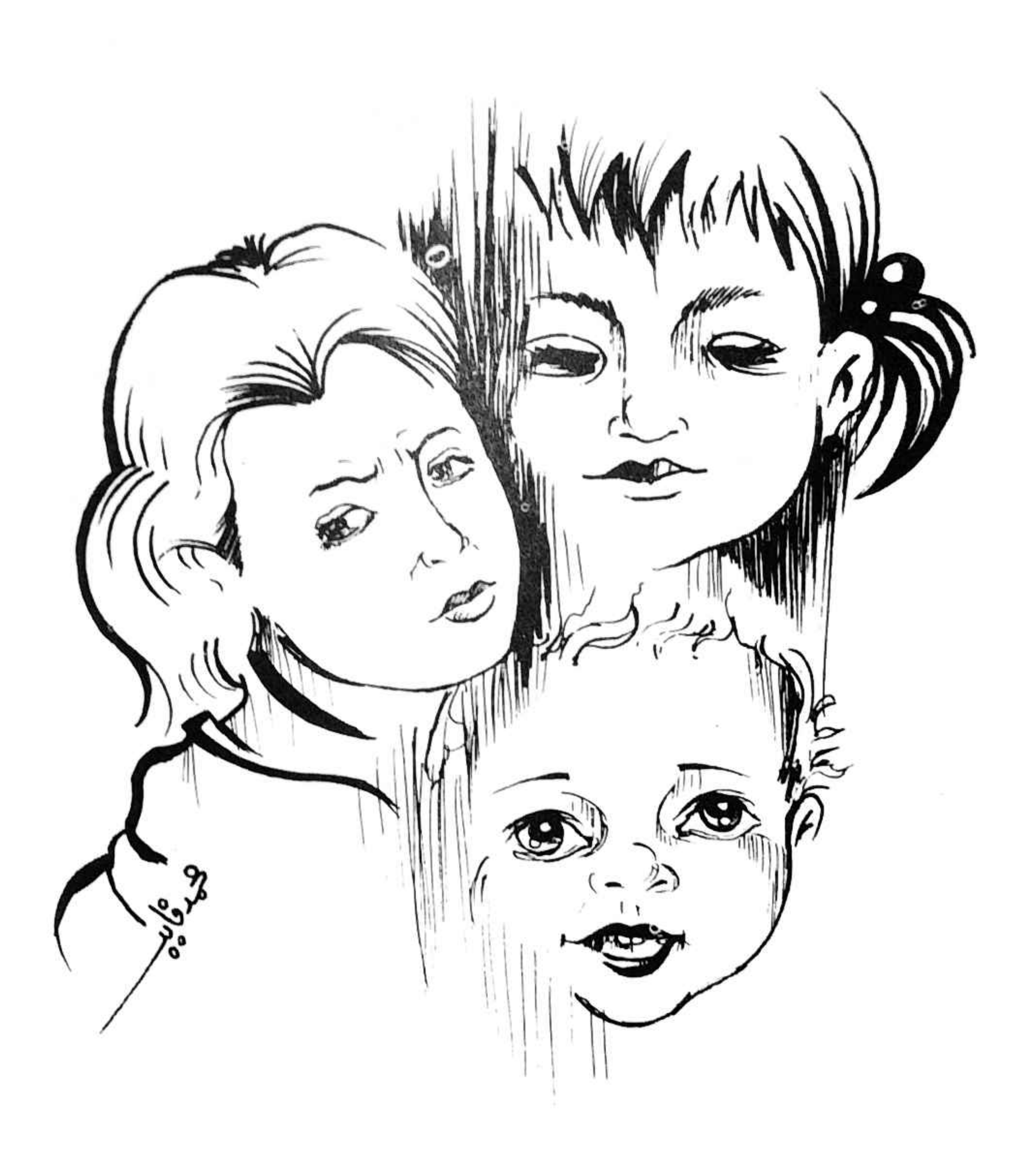
يا سيدى انهض من كبوتك . . وأعن نفسك على النجاة من وحش الاكتئاب ، فلقد وقعت فى براثنه . . وكانت آية ذلك هى كارثة عدم إكتراثك للأشياء التى أصابتك كعرض مؤثر من أعراض الاكتئاب ، وبعد أن كنت « شديد الاكتراث » بنجاحك العملى فى الحياة وطموحك إلى المنصب الإعلى . . إلى الحد الذى انقلب عليك بالأثر العكسى للطموح الضارى على صاحبه ، حين يواجه الفشل فيصاب بالإحباط الشديد . ويجره الإحباط إلى هاوية الاكتئاب . .

وفى هذه الهاوية تفقد كل الأشياء معانيها وقيمتها وأقدارها ، ويعبر المكتئب عن ذلك بالوجه الآخر للاكتراث المغالى فيه . . أى باللامبالاة بالأشياء كلها كبيرها وصغيرها .

ومع أننى ضد الطموح الضارى ، الذى لا يعرف حدودًا ولا تعقلاً ، وقد يقود صاحبه إلى التحايل على الوصول لأهدافه بالطرق الجانبية . . . إلا انه فى النهاية قد يكون أهون الضررين بالنسبة لكارثة عدم الاكتراث ؛ لأن عدم الاكتراث معناه عند المكتئب فقدان الأشياء لاعتبارها عنده وقيمتها واهميتها ، وقد يبدأ ذلك بأهداف الحياة ، ثم لا يلبث أن يمتد

مع مضاعفات المرض إلى عدم الاكتراث بالحياة نفسها وفقدانها للاعتبار عنده . . فيؤدى به ذلك إلى محاولة التخلص منها .

فاسْتعِد يا سيدى اهتمامك بالأشياء . . فلسنا نحسب فى عداد الأحياء ، إلا بقدر اهتمامنا بالأشياء والأشخاص والقيم السامية والأهداف المرجوة ، واخرج من عزلتك ، وشارك فى مباراة الحياة ومنافساتها الشريفة بفهم أشمل وأعمق للحياة ، مؤمنًا بأن أعظم الجوائز والعطايا ، إنما هى الصحة والسعادة الشخصية والعائلية وسلامة الأبناء ، ونجابتهم ، ورضاء النفس والضمير عن كفاح الإنسان الشريف فى الحياة ، مع تعلق القلب دائمًا بالأمل فى رحمة الله أن تتطلف به الأقدار، فلا تحمله ما لا طاقة له به . . وما لا يعوضه مال ولا منصب ولا جاه .





الابتسامة المتحجرة

فى البداية أود أن أقول لك إننى صديق قديم لهذا الباب ، ولا تلهينى مشاغل الحياة عن الاحتفاظ بأعداده السابقة ، وقد تشجعت أخيرًا على أن أشركك فى شجونى ، فأنا محاسب شاب عمرى ٤١ سنة ، نشأت فى أسرة يسودها الترابط والتلاحم وتعتز بأواصر القربى .

وكان قدوتى فى ذلك هو أبى ، الذى كان مثالاً للعمل الصالح والحرص على صلة القربى ، وقد نشأت فى كنف الطبيعة بالريف .

وبعد أن عملت واستقرت أحوالى ، ارتبطت بابنة عمى ، التى وجدت فيها ما لم أجده فى غيرها من الجمال والتفاهم والحب والقناعة ، وتزوجنا وسط فرحة الاهل ، ومضت حياتنا هادئة وجميلة ، يظللها الحب والتفاهم والاحترام المتبادل ، وتكلل الحب والوئام بمجىء وليدتنا الأولى؛ فكانت طفلة فى غاية الجمال والرقة ، وبعد ثلاث سنوات أخرى، هلت علينا طفلتنا الثانية ، واستقبلناها بالفرحة الطاغية ، فإذا بالفرحة تنحسر . . والابتسامة تتحجر على الشفاه . .

فقد جاءت طفلتنا الثانية ، وبها عيوب خلِقية فى ذراعيها ، وساقيها اللتين تكادان تلتصقان بمقعدتها ، كما أنها بغير معالم واضحة للقدمين . . وخيم الحزن والاشفاق على حياتنا ، وحملنا الطفلة إلى الأطباء فى المنصورة وطنطا والقاهرة ، واختلفت الآراء حول تقييم الحالة ، وتقرير الجراحة المطلوبة .

ولم نتوصل حتى الآن إلى أول طريق للأمل ، فسلمنا بإرادة الله ، وحاولنا أن نؤجل الإنجاب مرة ثالثة إلى أن يتضح لنا الطريق ، فحدث الحمل الثالث على غير ما خططنا له ، وأشفقت زوجتى من أن يجىء المولود الجديد بهذه العيوب الخلقية ، وراحت تتابع حملها عند أستاذين للطب بالمنصورة؛ لاكتشاف أى خلل فى الجنين ومعالجته فى الوقت المناسب ، فكان الأطباء يطمئنونا . .

وكان إحساس زوجتى يرفض الاطمئنان، وتتوجس دائمًا من المجهول، إلى أن صدق حدسها واكتشف أحد الأطباء ـ وهى فى شهرها الثامن ـ الحقيقة المفزعة ، وهى أن الجنين سيأتى إلى الدنيا وحالته كحالة طفلتنا المعاقة .

وتحققت المخاوف بالفعل ، وجاء وليدنا الثالث طفلاً جميلاً . يتفجر بالصحة والشقاوه ، ولكنه كأخته السابقة فى العيوب الخلقية ، ومادت الأرض بنا ، ولولا إيماننا بالله لانهرنا تمامًا . . ولكننا تمالكنا أنفسنا ، وتوقفنا عن الإنجاب نهائيًا .

وكلما تذكرنا ما حل بطلفينا ، أسودت الحياة فى وجهينا ؛ فجاهدنا

لكيلا نستسلم لأفكارنا والتمسنا الصبر والسلوى لدى خالقنا الأعظم، ولا أريد أن أطيل فى هذا الموضوع ، الذى يثير أشجاننا ، وإنما نحمد الله على أننا مازلنا نسير على أقدامنا .

أما زوجتى فقد طبع الهم بصمته المريرة على وجهها . . وكثيرًا ما رأيتها تبكى وحيدة ، فالتمس لها العذر ، وأشفق عليها مما تعانيه ، وأدعو الله أن يشفى أبناءنا ، رحمة بهذه الزوجة الطيبة ، وأود أن أوجه كلمة إلى قراء هذا الباب من المقبلين على الزواج من أقارب لهم ، وهى : ألا يقصِّروا فى إجراء تحاليل الوراثة قبل الزواج ؛ لكيلا يفاجئهم الخطر ، ويعانوا ما نعانى منه الآن ، فأنا مازلت من مؤيدى زواج الأقارب ، كلما كان ذلك ممكنًا . ولكنه من الضرورى إجراء الفحوص الطبية قبل الزواج لاكتشاف الأمراض الوراثية مبكرًا ، ومعالجتها فى الوقت المناسب والاستعداد لمواجهتها . . ولقد كنت أجهل هذه التحاليل للأسف حين تزوجت ، مع العلم بأنه لا توجد فى أسرتنا عيوب خلقية .

ولو كنت قد أجريت هذه التحاليل قبل الزواج ، وتأكدت من وجود أمراض وراثية لدينا أنا وابنة عمى ، لكنت تزوجتها أيضًا رغم ذلك ، حتى ولو أفنيت العمر فى سبيل ذلك ، ولكن بشرط أن نقرر معًا عدم الإنجاب ، إلا إذا ظهر لنا أمل من الطب الحديث فى تجنيب أبنائنا التأثر بهذه الأمراض الوراثية ، وحتى لو لم يظهر لنا هذا الأمل لكنا قد رضينا بأقدارنا . . واكتفى كل منا بالآخر ؛ لأن هذا هو اختيارنا الحر .

وإننى أتساءل الآن يا سيدى . . هل تستطيع استطلاع آراء أساتذة

العظام والتشوهات الخلقية المتخصصين فى حالة هذين الطفلين . . ومدى نجاح الجراحة وتكاليفها ، علماً بأن عمر الطفلة ٦ سنوات ، وعمر الطفل ١٨ شهرًا .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

قدَّر الله وكما شاء فعل يا صديقى . . غير أن هناك فارقًا بالفعل بين أن يشقى الإنسان بما كان يجهله ولم يتوقعه ، وبين أن يتعامل مع ما اختاره لنفسه بإرادته ، وقبل به منذ البداية ولم يفاجأ بشىء منه . ولهذا . . فإنى أضم صوتى إلى صوتك فى ضرورة أن يجرى المقبلون على الزواج الفحوص الطبية الضرورية ، واختبارات العوامل الوراثية ؛ تحسبًا لما يمكن أن يحمله إليهم المستقبل من ظروف غير مواتية ، واستعدادًا للتعامل معها بما يقتضيه من إجراءات واختيارات .

والطب الحديث يقول لنا الآن : إن كثيرًا من الأمراض والعوامل الوراثية يمكن التعامل معها بأمان ، إذا تنبه لها الطرفان قبل الزواج ، واتخذا الاحتياطات اللازمة لمواجهتها وتفادى آثارها .

والجينات الوراثية التى تنقل هذه العوامل إلى الأجيال التالية . . هى آية أخرى فى حد ذاتها على قدرة الخالق الأعظم جل شأنه ، فهى « شفرة » صغيرة ملغزة ، تحمل كل خصائص الإنسان ، وتنقلها أو تنقل معظمها إلى ذريته ، ومن عجائبها التى لم ينجح العلم ـ حتى الآن ـ فى تفسيرها أنها قد تنقل بعض هذه الخصائص إلى بعض الأبناء ، دون البعض الآخر.

وقد تعفى جيلاً من الأبناء من خصائصها المرضية . . وتخص به جيلاً يليه ، ولهذا فقد يفاجأ المرء بظهور بعض التشوهات الخلقية فى الأبناء ، على الرغم من عدم وضوحها من قبل فى محيط الأسرة الظاهر للعيان .

ومن هنا تأتى أهمية إجراء الاختبارات الوراثية والفحوص الطبية قبل الزواج ، حتى ولو لم يكن فى الأفق ما يوحى بأى توقع لمثل هذه العيوب الخلقية ، والإنسان مطالب بأن يتلَمَّس الطريق ، الذى يخطو إليه ، ويعرف مواقع أقدامه فيه ، ليس فرارًا من قضاء الله . . وإنما تلمسًا لمواجهة المستقبل بما يتطلبه من احتياطات ، أو تهيؤ نفسى للقبول به . . والتعايش معه .

وعلى أية حال . . فلقد حقق الطب الحديث تقدمًا هائلاً فى علاج التشوهات الخلقية وتحجيم أضرارها ، فلا تفقد الأمل أبدًا يا صديقى فى علاج تشوهات طفليك ، أو فى تحقيق الحد الأقصى المتاح لأطرافهما من الاستواء الطبيعى ، وتفضل بإرسال تقاريرهما الطبية وصور الأشعة الخاصة بهما إلىَّ ؛ لكى أعرضها على بعض كبار أساتذة جراحة العظام .

وأرجو الله أن يمكننى من أن أحمل إليك قريبًا ما تتلهف أنت وزوجتك الحزينة على سماعه من بشرى مطمئنة ، تضىء حياتكما بشموع الأمل من جديد . . وتبدد من سمائها سحابات الهموم والأحزان بإذن الله .





رباط الـــدم

أكتب لك هذه الرسالة ؛ لأرد بها على رسالة الزوج ، الذى يشكو من أن زوجته تعايره بمرضه . . ولكى أروى لزوجته هذه قصتى ، وأقول لها إن الزواج « عفة » وستر للزوجة ، وأنها بغيره لا تقوى على مواجهة الحياة ولو كان مريضًا ؛ فلقد كنت أعيش مع زوجى فى قمة السعادة ، وتزوجنا لمدة تسع سنين سعيدة ، كانت منها ثلاث سنوات اغترب عنى خلالها فى دولة خليجية . .

وكنت أنتظر عودته كل سنة بلهفة ، وأعد الأيام انتظارًا لها ، وكان زوجى إنسانا طيبًا كله شباب وحيوية . . ولكنه رجع إلينا من الغربة للأسف مريضًا بالالتهاب الكبدى والفيروسى النشيط اللعين ؛ نتيجة لخلع ضرس فى الغربة ، بغير احتياطات ضد العدوى .

وجاء زوجى فوجدته ذابلاً عليلاً ، وقضيت فترة الأجازة معه ، ننتقل بين معهد الكبد بالمنوفية ، وبين أطباء القاهرة ومعامل التحاليل ، وضاع شقاء الغربة فى العيادات والمعامل .

وفى النهاية قرر له الأطباء العلاج بحقن الانترفيرون باهظة الثمن ، وكان مطلوبًا له ٦٠ حقنة مبدئيًا ، فنصحت زوجى بالعودة مرة أخرى إلى الغربة ، لكى نستطيع شراء هذه الحقن الباهظة ، ورجع بالفعل ولكنه لم يعد إلينا بالشفاء كما رجوت ، وإنما بمضاعفات المرض الشديدة، ولأن زوجى هو « النعمة » التى تظلل حياتنا؛ فلقد حاولت أن أحارب مرضه بكل ما استطيع من قوة ، ولم أبخل عليه بما فى يدى .

فكانت لدى قطعة أرض صغيرة ، بعتها بمبلغ أربعة آلاف جنيه ، وكانت لدى سيارة أجرة مستهلكة وتالفة فبعتها بـ ٤٧٠٠ جنيه ، ولم أجد الحقن المطلوبة إلا لدى شخص يعمل بعيادة أحد كبار الأطباء ، ويتاجر فيها ، فاشتريتها بـ ٨٢٥٠ جنيها ، وقدمتها لزوجى الحبيب .

ومع ذلك فلقد تدهورت صحته سريعًا ، وبدأ الأطباء يطالبوننا بتوفير بلازما الدم له ؛ فأعطيت لزوجى كيسين منها خلال ٦ شهور . . وحل به قضاء الله ودمى يسرى فى عروقه ، وعمره لا يتجاوز ٣٤ عامًا ، وزالت عنى « النعمة » التى لم أتمتع بها سوى تسع سنوات فقط ، وذهب زوجى إلى لقاء ربه ، وترك لى ٣ أطفال صغار ، ومعاشًا لا يتجاوز ٤٨ جنيها . .

وعشت بلا حب ولا حنان من بعده . وخرجت إلى الحياة لأول مرة لأبيع الملابس الجاهزة بالتقسيط للموظفين فى المصلحة الحكومية التى كان يعمل بها زوجى وغيرها ، لكيلا أحتاج إلى أحد ، ولكنى أصبت

للأسف بالسكر والضغط ، وتوقفت عن البيع والشراء ، وغرقت فى الديون . .

فهل لو كان زوجى معى الآن كنت قد مرضت كما حدث لى ؟ وهل كنت قد عانيت كرب توفير ملابس العيد لأطفالى الصغار لكيلا يشعروا باليتم والحرمان ، كما عانيته قبل عيد الفطر الماضى ؟ وهل كنت قد وجدت نفسى الآن كالغريقة فى بحر المشاكل والهموم ؟

إننى أدعو هذه الزوجة التى تعاير زوجها بمرضه ، إلى ألا « تتبطر على النعمة » ، التى أعطاها لها الله ، لكيلا تزول عنها فتعرف مشاكل الحياة الحقيقية ، التى لم أعرفها إلا بعد رحيل زوجى . . وأدعو لها بالهداية ولزوجها بالشفاء ، كما أدعو الله أيضًا أن يكرمنى فى أبنائى ؛ وخاصة ابنى الأكبر ، الذى سيؤدى امتحان الشهادة الابتدائية هذا العام . . وأرجو لكم جميعًا الصحة والسلامة . .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أليس من المحزن حقًّا ألا يقدِّر كثير من البشر قيمة شركائهم فى الحياة، إلا حين يدهمهم القدر بحرمانهم منهم ؟

لقد عرفت أنت يا سيدتى بفطرتك السليمة قيمة ما كان بين يديك ، قبل أن يغيب عنك وتشبثت به ، وقدمت القرابين إليه ؛ حتى ليرحل زوجك عن الحياة ؛ ودماؤك تسرى فى عروقه ، ولكن المحزن حقًّا هو أن يتعامى الآخرون عن قيمة الموجود ، حتى يفقدوه ، ثم يبدأ نواحهم عليه وافتقادهم له بعد فوات الأوان .

ولقد تساءلت الطفلة فى رواية « عالم صوفيا » للكاتب النرويجى يوستن جاردنر ، التى ترجمها باقتدار الأستاذ أحمد لطفى : أليس من الظلم أن يموت الإنسان ؟ ثم راحت تتأمل الفكرة ، فما إن تقبلت فكرة الموت . . حتى شعرت أكثر من أى وقت مضى أى نعمة كبرى ، تنعم بها ؛ إذ تتردد فيها أنفاس الحياة !

فالحياة تحيل إلى الموت ، والموت يحيل إلى الحياة ، وما كنا لنشعر ذات يـوم بقيمة الحيـاة ، إن لـم نفكر أيضًا فى أننا سنموت فى يوم من الأيام ، ولا نملك ونحن نفكر فى الموت إلا أن يعترينا الشعور بروعة هذه المعجزة الإلهية ، وهى معجزة أننا ننعم بالحياة ، ولهذا فقد كانت صادقة كل الصدق ، تلك الجدة العجوز ؛ التى انبأها الطبيب فى الرواية نفسها . . أنها مريضة مرض الموت ، فقالت له :

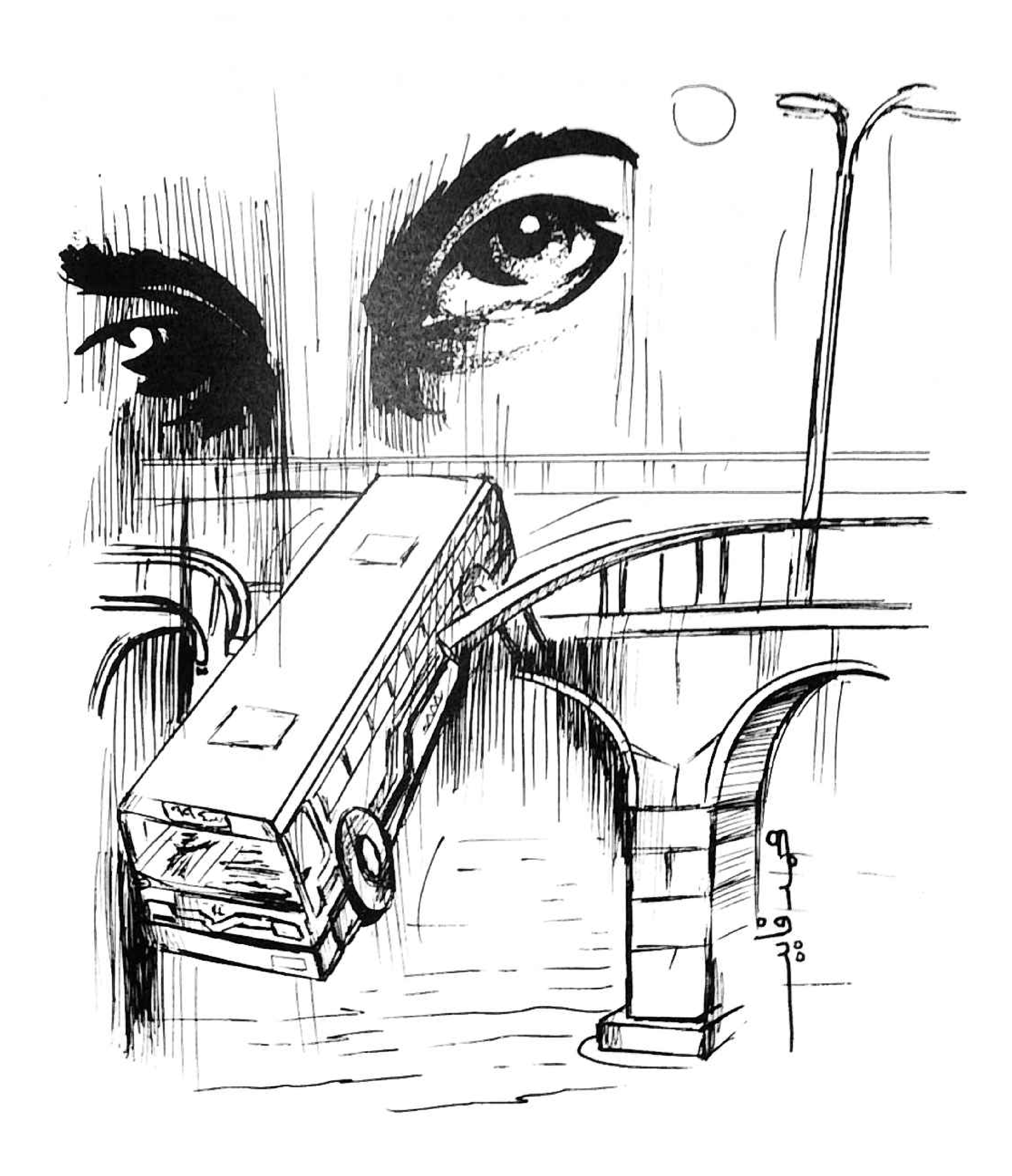
ـ الآن فقط أدرك روعة الحياة وجمالها !

فلماذا يـا سيدتـى لا ندرك « روعة » الحياة إلا حين يدهمنا المرض ، ولا « روعة » الأحباء إلا حين يفارقوننا ، ولماذا تحتاج مثل هذه الزوجة ، التى تعيِّر زوجها بمرضه ؛ لأن تروى سيدة مثلك لها تجربتك مع الحياة ، بعد أن فقدت الزوج والسند والحنان ؟ . . .

لقد أدركت يا سيدتى « روعة » الموجود ، رغم بساطته وسعدت به . . وحاربت للدفاع عنه وحمايته من الأخطار الداهمة ، إلى أن غلبتك أقدارك ، فإذا كانت سعادتك مع زوجك الراحل قصيرة ، فعزاؤك أنها

كانت أيضًا حقيقية وصادقة . . وبعض سلواك عنها فى أن زوجك إنما يتواصل فى أبنائه الذين ستواصلين العطاء لهم ، حتى يصلوا معك إلى بر الأمان .

وإذا كانت الصحة قد خانتك وحرمتك من مواصلة الكفاح لتوفير الحياة الكريمة لأبنائك الصغار ، فلم تذهب الحيلة بعد . . وهناك من الأعمال البسيطة ما تستطيعين ممارستها بلا عناء فى بيتك ، وبحيث تضمن لك حياة آمنة كريمة بإذن الله وأرجو أن تقرأ زوجة كاتب الرسالة الأولى ـ وكل زوجة أو زوج فى مثل موقفها ـ رسالتك هذه مرارًا وتكرارًا ، وأن تتفهم معانيها ودروسها ، قبل فوات الأوان .





الموعد المرتقب

أنا يا سيدى شاب فى الثامنة والعشرين من عمرى ، نشأت فى أسرة متوسطة وهادئة بين أبى ، الذى يعمل محاسبًا بالقطاع العام ، وأمى التى تعمل بالتدريس ، واختين تصغراننى ، وقد عشنا حياتنا فى ظل أبوينا ، اللذين كانا ومازالا زوجين مثاليين ومتفاهمين ، فنشأنا نحب الناس ، والأهل ، وتتفتح قلوبنا للآخرين بسهولة . .

ورأينا دائمًا أمى ترحب بأهل أبى ، وتحبهم وأبى يحرص على مجاملة أهل أمى باستمرار ، فكنا ننتقل بين بيت جدتى لأبى وبيت جدتى لأمى وأخوالى ، فلا نجد هنا وهناك سوى الحب والاعتزاز والإشادة بأبينا وأمنا .

وقد عشت طفولتى وصباى فى مسكن أسرتى السابق فى حى إمبابة ، حيث الحياة الشعبية والزحام والبساطة وأشياء كثيرة ، ثم جاءت لأبى فرصة للعمل بإحدى المؤسسات الاستشارية بدولة عربية ؛ فسافر إليها ،

وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ، وعمل هناك ست سنوات كاملة ، كان يتردد علينا خلالها كل صيف لمدة شهر، ثم رجع أبى حين تخرجت واستقر فى مصر ، وعمل بفرع تلك المؤسسة الاستثمارية فى مصر . .

وتغيرت حياتنا إلى الأفضل فى أشياء كثيرة ، فاشترى أبى شقة لزواجى فى المستقبل ، ووضع لكل بنت من ابنتيه مبلغاً كافياً من المال فى البنك لزواجها . .

ثم رأى أن الوقت قد حان للانتقال من مسكن الحى الشعبى إلى شقة أوسع وأجمل بحى راق ، فانتقلنا إلى مدنية نصر ، وتباعدت المسافات بعض الشىء بيننا وبين مسكن أهل أمى ، ومسكن أهل أبى فى الحى نفسه الذى نشأنا فيه ، ورغم سعادتنا بالعمارة الجديدة التى انتقلنا إليها ، ومدخلها الرخامى الأحمر الجميل ، والمصاعد الحديثة ، التى نستخدمها بديلاً للمصعد القديم المتهالك كثير الأعطال فى عمارتنا السابقة ، إلا أننى وشقيقتى شعرنا ببعض الوحشة ، فى هذا الحى الجديد، الذى يختلف كثيراً عن حيِّنا القديم . .

وشكت شقيقتاى دائماً من افتقادهما لصديقات المدرسة وجاراتهما فى إمبابة ، وشكوت أنا أيضاً من افتقادى لأصدقاء الصبا وكرة القدم فى الحى الشعبى ، فكان أبى يقول لنا إن هذه هى ضريبة الانتقال من «مستوى» إلى «مستوى» أرقى ، وان علينا أن نقبل بها راضين ، ونتطلع لصداقات جديدة مع أبناء هذا الحى الراقى ، ووجدت شقيقتاى فى زميلات المدرسة الجديدة بعض التعويض .

أما أنا فكنت لا أجد نفسى إلا بين أصدقاء الحى القديم ، وأزورهم كثيرًا وأقضى أوقات فراغى معهم ، ثم نجح أبى فى تعيينى بأحد البنوك الاستثمارية، وانشغلت بعملى فتباعدت زياراتى للحى القديم ، حتى كادت تنقطع . . ثم كلفت ذات يوم بمهمة عمل فى المركز الرئيسى للبنك بوسط المدينة ، وذهبت إليه ففوجئت بفتاة جميلة ومحجبة تحيينى بحرارة ، ثم تقول لى حين لاحظت ارتباكى :

ـ ألا تعرفنى يا أستاذ فلان !! أنا فلانة ، أخت صديقك القديم فلان؛ وتذكرتها على الفور ، وضحكت كثيرًا وتعجبت لرؤياها ، وقد استوت شابة جميلة ، وهى التى كنت أظنها مازالت طفلة ، كما رأيتها آخر مرة .

وتحدثنا عن شقيقها ووالدتها الطيبة ، التى طالما أطعمتنا أشهى الأطعمة فى بيتها ، ووالدها التاجر البسيط ، الذى تشع الطيبة من ملامح وجهه، والذى كان أبى يحبه كثيرًا ، ويشهد له بالأمانة وحسن السمعة . وعرفت منها أنها قد تخرجت فى معهد فوق المتوسط للعلوم التجارية ، وعملت بهذا البنك منذ ستة شهور .

وفى البيت رويت لأبى وأمى عن لقائى بهذه الفتاة ، ونحن على مائدة العشاء ، فذكرا والدها ووالدتها بالخير ، وروى لنا أبى أنه فى بداية زواجه حين كان الدخل شحيحاً ، كان يشترى احتياجات البيت من والدها بالأجل ، وكان الرجل سمحًا دائمًا معه ، ويصبر عليه إلى أن يؤدى إليه

دينه ، بغير أن يجرح مشاعره بكلمة واحدة ، وقال عنه أيضًا إنه تاجر شريف ، ولولا كثرة أبنائه لكان قد صنع ثروة .

وتكرر لقائى بعد ذلك بهذه الفتاة فى البنك ، فلم ألبث أن وجدت نفسى مشدوداً إليها برباط سحرى ، ووجدتنى أسعى من حيث لا أدرى إلى إحياء صداقتى القديمة بشقيقها ، وزرته بالفعل فى البيت ، وعرفت أنه قد حصل أيضًا على شهادة فوق المتوسط ، ويعمل موظفًا بالقطاع العام ، وأن شقيقتيه الأخريين قد تزوجتا من تاجرين صغيرين ، وشقيقه الأكبر يعمل مدرسًا بالوادى الجديد .

وسعد هذا الصديق القديم بظهورى مرة أخرى فى حياته سعادة كبرى ، وأصر على دعوتى للغداء فى يوم الجمعة التالى ؛ لنستعيد ذكريات زمان ، ونستمتع بطعام والدته الذى لا يبارى ، وحمَّلتنى أمى وأبى السلام لوالدته ووالده ، ونعمت بقضاء وقت جميل ومريح - لأقصى حد - فى كنف هذه الأسرة الطيبة ، وافتعلت بعد ذلك الأسباب، للذهاب إلى مركز البنك الرئيسى بوسط المدينة ، وإلى بيت صديقى لهدف لا يخفى عليك ، إلى أن انتهزت أول فرصة مناسبة . . وصارحت شقيقة صديقى بحبى لها ، ورغبتى فيها كزوجة ، وطربت غاية الطرب ، حين فوجئت بها تبتسم ، وتقول لى ببساطة ، وبلا أى محاولة للإدعاء أو التظاهر بالمفاجأة : كنت حاقولها !

ووجدت نفسى أضحك منتشيًا بردها ، حتى دمعت عيناى . .

وقلت لها : ألم يكن من الأفضل أن تتجملى ، وتتظاهرى بالدهشة والمفاجأة ، كما تفعل البنات الأخريات ؟

فإذا بها تلقى على درسًا آخر فى الصدق مع النفس والبساطة ، وتقول لى ، إنه ليس لديها ما يدعوها لذلك ، وهى التى كانت تدعو ربها كل يوم فى صلاتها ، منذ التقت بى فى البنك لأول مرة أن يجعلنى من «نصيبها» لأننى كذا وكذا وكذا ! وكل «كذا» منها شهادة مدح واعتزاز بى وبأخلاقى وأسرتى وأبى وأمى . . . إلخ .

ورجعت إلى بيتى سعيداً مبتهجاً ، وصارحت أبى برغبتى فى الزواج منها ؛ ففوجئت بـه لا يتحمس للفكـرة ولا يرحب بها ، ويقول لى إنه لا يعترض على الفتاة لشخصها أو لأسرتها فأسرتها أسرة طيبة وشريفة ، ولكنه يعترض فقط على «المستوى» ، الذى أرغب فى التصاهر معه ! . . فالفتاة ليست حاصلة على شهادة جامعية ، ووالدها ـ رغم طيبته وفضله ـ ليس طبيباً كبيرًا ولا مهندساً مرموقاً ، ولا أستاذاً جامعيًا لامعًا ، ولا رجل أعمال كبيرًا ، وإنما هو ـ فى النهاية ـ تاجر على قد حاله ، وليس بين شقيقاتها من تزوجت قاضيًا ، أو محاسبًا ، أو صيدلانيًّا . . . إلخ ، وشقيقاها الآخران موظفان صغيران ، فماذا يغرينى فى الارتباط بفتاة تجذبنى معها «إلى المستوى» الأدنى ، ولا ترفعنى إلى أعلى ، بعد أن تفتحت أمامنا مجالات الارتقاء الاجتماعى . . وفرص مصاهرة الأسر الكبيرة !

وصدمت فى حديث أبى صدمة هائلة ؛ فلقد كان يتكلم لغة جديدة

علينا ، ورغم ذلك . . فإننى لم أفقد الأمل فيه نهائياً ؛ لأنه ليس أباً ديكتاتورًا ولا قاسيًا ، وإنما أب عطوف ومتفاهم ، ويفتح الباب دائماً لمناقشته ، وأملت فى أن أجد لدى أمى عونًا لى عليه ، وتحدثت إلى أمى فى الأمر ؛ ففوجئت بها تؤيد أبى فى وجهة نظره ، وتؤكد لى - على استحياء - أنها تريد لى كأبى فتاة أفضل من هذه الفتاة ، التى لا عيب فيها سوى «مستواها» الاجتماعى ، الأقل من مستوانا !

وجادلت أمى طويلاً ، فلم أصل معها إلى شىء ، وانتهى الجدال بأن طلبت منى التفكير فى الأمر لفترة أخرى ، قبل أن نرجع لمناقشته من جديد .

وبعد أسبوع زرت صديقى القديم فى بيته ؛ ففوجئت به يستقبلنى بالعناق الحار والتهنئة بالخطبة القريبة السعيدة !

وقبل أن أفيق من ذهولى ، جاءت والدته بعد لحظات ، فإذا بها تزغرد زغرودة طويلة ، قبل أن ترحب بى بحرارة شديدة ، وتقول لى بابتهاج إنها لم تتمالك نفسها من الفرحة ، فزغردت رغمًا عنها حين رأتنى ، وأدركت أن فتاتى لم تخف شيئًا مما حدث بيننا ، وأن الجميع يعرفون برغبتى فيها ، وأسرتنى بساطة هؤلاء الناس ، وعدم تحفظهم فى إبداء مشاعرهم ، وعدم تصنعهم للتمنع أو التردد أمام طلبى ، وأسرنى أكثر ما قالته لى الأم من أنها أيضًا قد تمنتنى لابنتها ، . حين روت لها أنها قابلتنى بالصدفة فى البنك لأول مرة .

وعجبت لهذا الجو المريح من الصراحة ، وعدم إخفاء المشاعر أو

التظاهر بعكسها ، ولكنى شعرت بالحرج الذى أواجهه ، وأبى وأمى يرفضان ارتباطى بهذه الفتاة . . فتغلبت على حرجى ، وقلت للأم : إن الانتظار لن يطول بإذن الله . وسوف أتقدم لابنتها فى الوقت الذى تسمح به ظروفى وظروف أسرتى . . فقالت الأم إنها لاتطلب منى سوى شىء واحد ، هو ألا أزور ابنتها فى البنك ، إلا بعد قراءة الفاتحة . .

وإلى أن يتم ذلك فبيتها هو بيتى ، وأنا «أخوها» ، وهى «أختى» ، وأستطيع أن أتحدث معها فى صالون البيت فى أى وقت أشاء! . وبالفعل فلقد بدأت أزور فتاتى فى بيتها بانتظام ، وأجلس معها فى الصالون ؛ حيث يظل الباب مفتوحًا وأمها أو شقيقها يتحركان فى جوارى ، ولا يضيقان أبدًا بزياراتى ، وقد صارحت فتاتى بحقيقة الموقف فأكدت تمسكها بى وصبرها إلى أن أنال موافقة أبى وأمى ؛ لأنه بدونها لا يمكن أن ترتبط بى .

وقررت أن أعمل بالنصيحة ، التى تنصحها للأبناء حين يواجهون هذه المشكلة ، وألا أكف عن محاولة إقناع أبى وأمى باختيارى ، مؤكداً لهما أننى لن أخرج على طاعتهما ، ولكنى أطالبهما بإعادة النظر فى الأمر ؛ لأن عدم اقتناعهما به لن يكون له عائد ، سوى أن أحرم نفسى من السعادة التى أريدها ، أو أن أؤجلها إلى أن تلين القلوب ولو بعد حين!

وواصلت حياتى العائلية ، كما كانت من قبل ، ومن حين لآخر أعود لمناقشة أبى فى الموضوع ، فيطلب تأجيل البت فيه بضعة أسابيع أخرى ،

وهكذا . . . حتى مضت ثلاث سنوات كاملة ، عرف خلالها والدا فتاتى بموقف أبى وأمى بالطبع ، وتألما له كثيرًا ، وطلبا من ابنتهما أن تقطع علاقتها بى ؛ لكيلا تغرينى هى بالخروج على طاعة أبى ، وهو مالا يقبلان به ، ولكن فتاتى تمسكت بالصبر والأمل ، ورجت أبويها ألا يحرماها من مهلة أخيرة ، ستقبل بعدها بأى خاطب لها إرضاء لهما !

ورجعت إلى أبى مرة أخرى ، وأبلغته أن موقفى قد أصبح حرجاً للغاية مع أسرة فتاتى ، التى رفضت أكثر من خطيب تقدم لها ، وأمام صديقى القديم ، الذى بدأ يتحدث معى عن أننى لا أرضى لأختى بمثل ما تتعرض له أخته ، وبكيت وأنا أقول لأبى إننى لا أريد أن أخرج عن طاعته؛ لأنه أبى الذى يحبنى وأحبه ، والذى ظلّل حياتنا طوال العمر بالحب والعطف والعطاء ، ولكنى لا أستطيع فى الوقت نفسه أن أتخلى عن حبى ، ولا أريد الارتباط بأى فتاة أخرى فماذا أفعل . . وماذا يريدنى أن أمضى إليه ؟ .

وتأثر أبى بدموعى ، وقال لى دامعًا إنه ما دامت هذه هى رغبتى وسعادتى ، فإنه يترك لى الخيار . . وكل ما يرجوه هو أن أمهله ثلاثة أسابيع فقط ؛ لإنهاء بعض الشئون ، قبل أن يتوجه معى لزيارة هذه الأسرة وقراءة الفاتحة . .

ولم أتمالك نفسى ، حين قال ذلك . . فقبلت رأسه بفرحة طاغية ، وقبلنى هو مهنئًا ومبتهجاً ، وحددنا معًا الموعد السعيد ، عند غروب أحد أيام الجمعة فى شهر يناير الماضى ، وبشرت فتاتى بانفراج الأزمة ؛

فبكت حين أبلغتها بموافقة أبى وأمى على ارتباطنا ، ونهضت بانفعال ، وهى تقول لى إنها تحتاج إلى إعداد فستان لائق باستقبال أسرتى عند الحضور ، كأن موعد الزيارة بعد ساعات ، وليس بعد ثلاثة أسابيع . واشترت بالفعل فستاناً جميلاً بمناسبة قراءة الفاتحة ، وقضينا وقتاً بهيجًا مع أسرتها ، وهى ترتب للموعد المرتقب باهتمام شديد ؛ حتى لقد سأل والد فتاتى ابنه أمامى ألا يستطيع تدبير أمر إعادة طلاء صالة الشقة على وجه السرعة خلال يومين أو ثلاثة ، وأجاب صديقى القديم بالإيجاب . . . فتم طلاء الصالة خلال أيام ، وتمت أيضًا إعادة دهان باب الشقة من الخارج . . ليكون المكان لائقاً باستقبال أسرتى ، كما قالوا .

وسرَت فى بيتنا نحن روح جديد من البهجة والسرور ، وأبى يداعبنى كل يوم بالكلام عن الحب والزواج ، وقبل اقتراب الموعد المرتقب بعشرة أيام فقط يا سيدى ، ذهبت فتاتى لزيارة شقيقتها المتزوجة فى الحى نفسه للاستعانة بها فى شراء بعض احتياجاتها ، وانتهت مما أرادت ، ثم ركبت الأتوبيس إلى المدينة ، فإذا بهذا الاتوبيس بالذات ، ومن بين آلاف العربات يهوى بكل ركابه فى النهر فى الحادث المشئوم ، الذى هز الجميع منذ بضعة شهور ! . .

هل تصدق هذا يا سيدى ! هل تصدق ؟ وهل تصدق أنها من بين كل سيارات الأتوبيس التى تجرى فى الشوارع ، لم تختر سوى هذا الأتوبيس اللعين ؟ بل وإنها ركبت الاتوبيس فى ذلك اليوم ، وهى التى تنفق نصف مرتبها على سيارات الأجرة ! .

لقد قرأت لك ذات مرة كلمة ، تقول فيها إن بعض أحداث الحياة الغريبة ، يتردد الأدباء فى أن يكتبوا مثلها فى قصصهم ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالمبالغة . . .

فهل طرأ على بال أحد أن تكون فتاتى ، التى انتظرتنى ثلاث سنوات، ضحية لحدث من هذه الأحداث الغريبة ، التى لا يصدقها كثيرون؟

لقد ظللت ثلاث سنوات ، أعيش على أمل واحد ، هو أن يترفق بى أبى ويبارك زواجى من هذه الفتاة ، فهل من العدل أن تنتهى قصتنا هذه النهاية البشعة ، بعد أن وافق أخيرًا ؟

إننى لن أصف لك حال أسرة فتاتى بعد ما جرى ، أعانها الله وصبَّرها على مصابها ، كما أنى لن أصف لك حالى حين تلقيت الخبر الصاعق ، ولا ما عانيته ـ وما زلت أعانيه ـ إلى الآن ، حتى وصف لى الطبيب دواء منومًا لأستطيع به النوم . . لن أصف لك ذلك لأنك تعرفه جيدًا ، كما أنى لم أكتب لك طالبًا كلمة مواساة وإلا كنت طلبتها منذ وقع الحادث، وإنما أريد أحدثك عن شىء غريب آخر يفسد على حياتى الآن ، أكثر مما فسدت ويضاعف من معاناتى ، وهو أننى قد وجدت نفسى فجأة أشعر بضيق مكتوم وخانق من أبى . . وبضيق أخف من أمى ، وأتهمهما فى قرارة نفسى بأنهما اللذان حرما هذه الفتاة وحرمانى من السعادة التى كنا نستطيع أن ننعم بها ، لو لم يكونا قد عارضا زواجى ، لمدة ثلاث سنوات كاملة !

ومع أنى لم أصارح أبى بشىء من ذلك ولا أمى ، ولم أفعل شيئاً يترجم هذا الإحساس الغريب تجاههما ، إلا أن أبى يحسه ، وينظر إلى من حين لآخر بإشفاق وخوف ، كأنما يريد أن يتأكد مما يشك فيه ، وقد بادرنى - حين علم بالخبر لأول مرة - بأن ذكرّنى على الفور ، وهو مضطرب وحزين بأنه قد وافق على زواجى منها ، ولم يعاند للنهاية كما يفعل آباء آخرون ، ثم سألنى باستحياء : أليس كذلك ! أليس كذلك ! ! ورغم إعيائى وحزنى الشديد ، شعرت بالإشفاق عليه ، وهو يكاد يستجدينى كلمة تطمئنه إلى أنى لا أحمل له ضغينة بسبب موقفه السابق من زواجى .

ولكنه منذ ذلك الحين يا سيدى ، قام سدٌّ خفى بينى وبينه ، فأصبحت أجد نفسى دائمًا ، عازفاً عن الحديث والمسامرة معه كعادتى قبل ذلك ، كما أصبحت أيضًا قليل الكلام مع أمى إلى حد الندرة ، رغم أنها بكت طويلاً من أجلى وأجل فتاتى .

وأنا الآن أعيش حياة خالية من كل معنى ، وليس فيها سوى الخواء والجفاء الصامت مع كل من حولى ، وقد أصبحت ضيق الصدر باستمرار، ومكتئباً ، وصامتاً ، وأبى ينظر إلى «بخوف» من حين لآخر ، ويكاد يقسم لى أنه لم يفعل شيئاً إلا واجبه كأب يريد لابنه كل الخير .

أما أمى فهى تتودد إلى بطريقة مبالغ فيها ، وقد بات كل همها الآن هو أن تؤكد لى بطريقة غير مباشرة - فى كل مناسبة - أن الأعمار بيد الله وحده

سبحانـه ، وأننى لو كنت قد تزوجت فتاتى هذه منذ أول عام ، لم يكن الأجل ليتأخر عنها لحظة واحدة ، وأن كل ما كان سيتغير ، هو أننى كنت سأواجه الحياة كأرمل شاب معه طفل ؛ مما يصعِّب من أمر زواجى بعد ذلك ، فما أن أسمع أى إشارة من هذا النوع ، حتى أغادر البيت غاضبًا .

إننى لست معترضًا على قضاء الله وقدره ؛ لأننى إنسان مؤمن ، ولكننى تعيس للغاية بفقدى لسعادتى ، التى انتظرتها ثلاث سنوات ، وتعيس أكثر بما طرأ على مشاعرى تجاه أبى وأمى ، وأشعر بالذنب والإثم تجاههما ، كما أنى أيضًا تعيس بهذا الجفاء الصامت ، الذى حل بيننا منذ شهور ، وأريد أن أكسر هذا الحاجز ، وأعود كما كنت ابنًا بارًّا بأبيه وأمه وشقيقتيه ، ويحبهم أشد الحب . . .

فماذا أفعل يا سيدى ، لكى أرجع كذلك ، وبماذا تنصحنى ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أثارت رسالتك المؤلمة هذه تأملاتى وأشجانى يا صديقى . ومع أننى لا أريـد أن ألمس الجـراح التـى لم تندمـل بعـد . . إلا أننى رغـم ذلك لا أستطيع أن أمنع نفسى من تأمل هذه المفارقة الغريبة من مفارقات الحياة، وهى أن تأتينا السعادة أحياناً ، وقد أوشكت السفينة على مغادرة الميناء ، فلا نكاد نبتهج لها حتى يفجعنا صفير الرحيل .

بل ولماذا يكون شأن بعضنا مع الحياة كشأن هذه الطفلة الصغيرة ،

التى نُقشت هذه العبارة على لوحة ذكراها فى رواية «عالم صوفيا» للأديب النرويجى جاردنر : مارى الصغيرة . . هلَّت علينا . . ضحكت لنا . . ثم رحلت عنا !

إنهـا قصة قديمة . . والزمن ـ كما يقول المثل البرتغالى القديم ـلا يرحم الأشخاص الذين لا يؤدون المهام المرجوة منهم فى وقتها الملائم .

وفى مغزى هذا المثل قد تجسد التفسير الذى تبحث عنه لما تشعر به الآن من ضيق مكتوم تجاه أبويك ، وعزوف عن الحديث إليهما والتسامر معهما ، كما كنت تفعل من قبل .

فأنت للأسف يا صديقى تلوم أبويك فى أعماقك ، على أنهما لم يؤديا المهام المرجوة منهما فى الوقت الملائم! وتلوم نفسك ـ فى الوقت ذاته ـ لأنك تنطوى لهما على هذه المشاعر السلبية ، على الرغم من حسن نيتهما دائماً تجاهك ، وحرصهما عليك طوال الوقت ، وأنت الضحية الطبيعية لهذا الصراع النفسى داخلك ، بين مشاعرك السوية الأصيلة تجاه أبويك كإبن بار بهما وإحساسك الدينى الحميد بالنفور من كل ما يسىء إليهما من جانبك ، وبين هذه المشاعر السلبية العارضة التى تسللت إليك فى غمرة ضعفك النفسى بعد المأساة ، ولابد أن يثمر مثل هذا الصراع العنيف ما تشعر به الآن من ضيق واكتئاب وفتور تجاه كل شىء ، وميل للصمت وكتمان المشاعر .

غير أن الحوار المنطقى الهادىء مع النفس قد يكشف للإنسان ـ فى

كثير من الأحيان ـ خطأ بعض أفكاره ؛ فيؤدى به ذلك إلى تعديلها ، وتصحيح بعض مواقفه تجاه الآخرين وتجاه الحياة .

فالإنسان حين يشتد به كربه ، قد يتلفت حوله أحيانًا ، يتلمس طرفًا خارجيًا يلقى عليه باللوم ، ويحمله مسئولية تعاسته واكتئابه . .

ولأن والديك قد راوداك طويلاً على أن تتخلى عن هذه الفتاة الطيبة ، ولم يسلما لك بحقك فى الارتباط بها ، إلا قبيل رحيلها المأساوى بوقت قصير ، فلقد اتهمتهما ـ فى عقلك الباطن ـ بأنهما المسئولان ، بلا جدال ، عن تأخير سعادة هذه الفتاة وسعادتك معهما إلى اللحظة قبيل الأخيرة .

ولأنك انسان مؤمن بربك ، وتخشى غضبه وتسلم بقضائه وقدره ، فربما تكون قد فضلت أن يكون أبواك المسئولين عن وأد هذه السعادة الموعودة قبل أن تكتمل ؛ لإنكارك الدينى المفهوم أن تتوجه بهذه «المسئولية » إلى طرف آخر تجفل من لومه ، وهو الأقدار الحزينة . ولهذا فظنى هو أن لومك لأبويك ، هو فى الواقع عملية « تحويل نفسى » للمسئولية من طرف تجفل من التفكير فيه بوازع دينى محمود ، إلى طرف آخر بشرى ، قد يؤلمك أن تتهمه أيضًا ، ولكن محاذير لومه لا ترتفع بك إلى المشارف الخطيرة الأخرى التى تشفق على نفسك منها .

والحق أنه لا أباك ولا أمك . . هما المسئولان عن حرمانك من فتاتك ، ولا حرمانها هى من السعادة الموعودة ، وإنما هى الأقدار المقدرة

على الجميع من قبل أن يجيئوا إلى الحياة ، فإذا كان أبواك قد حجبا عنك موافقتهما على ارتباطك بفتاتك فى البداية . . فلقد كانت دوافعهما إلى ذلك بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معها - دوافع الحب لك والحرص على ما يريان فيه خيرك وصالحك ، ودوافع الاعتزاز بك وطلب الأفضل فى تصورهما لك ، وكلها دوافع نبيلة حتى لو أخطأت التقدير فى بعض الأحيان .

ورغم نبل الدوافع . . فلقد عدلا عن موقفهما فى النهاية ، وأكبرا فيك برك بهما وحرصك على ألا تخرج على طاعتهما ، وتنازلا عما تصوراه اعتبارات عائلية واجتماعية مهمة بالنسبة إليهما إرضاءً لك وطلبًا لسعادتك على النحو الذى تراه أنت .

فإذا كانت الأقدار قد ترصدت فتاتك بعد ذلك ، ووأدت حلمها وحلمك فى السعادة الوشيكة يا صديقى ، فما ذنب أبويك فى ذلك . . وما ذنب أى إنسان آخر فيه ؟؟

لقد عقدا عزمهما فى النهاية على مباركة ارتباطك بها ، وأحسب أنهما كانا صادقين فى ذلك ، بعد أن استشعرا عمق ارتباطك بهذه الفتاة ، وعمق إخلاصها لك وتمسكها بك ، فلا لوم عليهما إذن فى قصر عمر السعادة ، ولا فى الأحلام الموءودة ، فهو قدرك وقدر هذه الفتاة الطيبة التلقائية ، الصادقة مع نفسها ، المبرأة من كل لؤم أو إدعاء .

ولقد كان مقدورًا لها أن تغزو أيضًا قلب أبويك وشقيقتيك ، لو

أمهلتها الأيام أن تدخل دنيا أسرتك ، كما كان الأرجح أيضًا أن يستعيد والدك نفسه ، ويسعد صادقًا بمصاهرة ذلك التاجر الطيب ، الذى كان لا يعسر عليه فى اقتضاء دينه عنده فى بداية زواجه .

ولقد كان المحتمل أن يحدث ذلك بالفعل ، حين يرجع والدك إلى موطن الذكريات . . وأرض الكفاح مع صعوبات البداية ، ويتنفس أجواءها القديمة ؛ فالمعدن طيب أيضًا ، رغم ذلك التطلع العارض للمستوى « الأعلى » بدليل تسليمه لك برغبتك فى النهاية ، وتأثره بدموعك إلى حد أن يدمع لها وابتهاجه الصادق بفرحتك وبقرب تحقق الآمال ، ومداعباته السعيدة لك قبيل الموعد المرتقب .

وكل ذلك لا يستطيع أب أن يفتعله ، إذا كان قد استجاب لرغبة الابن رغمًا عنه أو لمجرد ألا يقطع خيوطه معه .

لقد تنازل الرجل صادقًا عن كل تحفظاته السابقة . . وربما يكون قد استسخفها أيضًا ، ورأى ـ وهو الذى نعم بحياة زوجية مثالية مع من أحبها وأحبته ـ أن السعادة هى الأهم فى الحياة الزوجية ؛ خاصة وأن الفوارق الاجتماعية شبه هامشية ، والجذور الاجتماعية واحدة بين الأسرتين .

أفلا يشفع له ذلك عندك فى أن تعفيه أنت من كل لوم ، أو لا يرق قلبك له ، وهو ينظر إليك « بخوف » مشفقًا عليك ، وعلى نفسه من مظنة لومه على مالا حيلة له ، أو لأحد غيره فيه ، إنه أب عطوف وبار

بك يا صديقى ، كما أنت بار به ؛ حتى ولو كان قد استغرق وقتًا أطول من المطلوب ، قبل أن يسلم لك برغبتك فى هذه الفتاة ، فلا تضاعف من تعاستك الأساسية بمعاناة التمزق بين مشاعرك كابن بار بأبيه وأسرته، وبين مشاعر الحنق المكتوم عليه وعلى والدتك ، بوهم مسئوليتهما عن قصر عمر السعادة التى أتيحت لك ولفتاتك .

ولا تكتم هذه المشاعر السلبية فى صدرك ، متصورًا أن إنكارها بدافع الخجل منها كفيل بالقضاء عليها بعد حين ، فلا إنكارها ولا كتمانها سوف يقضيان عليها ، وإنما سوف يعمقانها ويرسبانها فى عقلك الباطن، فتنعكس على سلوكك من حيث لا تدرى وعلى حياتك .

بل لعلى أنصحك ـ بلا حرج ـ أن تناقش هذه المشاعر نفسها مع أبيك وأمك بغير تعارض بين احترامك وحبك لهما ، وبين ذلك . . فلسوف تتخلص من كثير من بخارك المكتوم ، حين تعترف لأبيك بأنك قد « ظننت » فى غمار أحزانك على فتاتك ، أنه « ربما يكون » المسئول هو ووالدتك عما تعانيه الآن من حسرة ؛ لعدم الارتباط بهذه الفتاة قبل رحيلها بعام أو عامين ، ولعدم إسعادك لها قبل الرحيل ، فيشرح لك والداك نفسيهما بصدق ويتقبلان مصارحتك لهما بقبول حسن ؛ لأنها خطوة صحية على طريق العلاقة السليمة بين الطرفين ، بدلاً من انطوائك على مثل هذه المشاعر المؤلمة تجاههما ، وسعيهما الحائر لإبراء ذمتهما أمامك بطريق غير مباشر .

والمكاشفة فى النهاية هى طريق التفاهم والاعتراف بالأخطاء السابقة،

وتعديل الأفكار والمواقف ، على عكس الكتمان الذى يفيد دائما موقف الإدانة المسبقة بغير منح الطرف «المدان» حق الدفاع المشروع عن نفسه .

ولقد يخفف عنك أيضًا بعض أحزانك أن تعلم أن فتاتك الطيبة قد لقيت وجه ربها ، وهى سعيدة بقرب تحقق آمالها فيمن أحبته وتمنته لنفسها منذ اللقاء الأول . . ولرب أيام قليلة من السعادة الحقيقية الخالية من الكدر ، أفضل كثيرًا من عمر طويل من التعاسة والشقاء والحرمان، ففكِّر دائما فى فتاتك على أنها قد رحلت عن الحياة ، وقلبها سعيد ومبتهج بقرب تحقق الآمال . . ففى ذلك بعض العزاء . . . نعم فى ذلك بعض العزاء . . وشكرًا .



النقطة البيضاء

أنا إنسان عمرى ٢٩ عاماً ، نشأت فى بيت ريفى ، تقيم به عائلة كبيرة العدد، تضم أبى وأمى ، وخمسة من الأخوة أصغر منى ، بالإضافة إلى أعمامى الثلاثة وزوجاتهم وأولادهم ! ، فكان البيت دائماً كمعسكر الجيش ، نتسابق نحن الأطفال فيه إلى مكان الطعام ، فمن يسبق يجد لنفسه مكاناً حول صينية الطعام الكبيرة ، ومن يتأخر لا يجد لنفسه موطىء قدم حولها ، وعليه أن يكون من السابقين فى المرة القادمة .

وكان « القانون » السائد فى أسرتى الريفية هذه ، هو أن يذهب الصغار إلى المدرسة الابتدائية ، وأن يعملوا فى الوقت نفسه عملا يشق على الرجال فى الأرض ؛ فإذا نجح الصغير فى المدرسة مع ما يقوم به من أعمال شاقة ، انتقل إلى السنة التالية ، أما إذا رسب فلا نقض ولا إبرام ، ولا مفر من خروجه من المدرسة ، وتفرغه للعمل فى الأرض لأنه «خائب» .

ونظراً لأننى قد نشأت ، وأنا أسمع الكبار يرددون هذا المنطق

الغريب كل يوم ، فلقد نقش فى أعماقى منذ الصغر ، وحاولت جاهداً ألا أتوقف ـ تحت أية ظروف ـ عن الدراسة ، وكنت أخرج من المدرسة ، وأرجع للبيت وأذهب إلى الأرض . . فينقضى النهار فى العمل دون أداء الواجب الدراسى ، أو أختبىء فى بعض الأحيان لأؤدى الواجب المدرسى ، قبل أن أرجع للبيت ، وأتعرض للعقاب والحرمان من الطعام، وتحملت العقاب صابراً ، وواصلت التعليم بإصرار غريب ؛ حتى ظهرت نتيجة امتحان الشهادة الابتدائية ، فإذا بى الأول على المدرسة .

وعند ذلك فقط بدأت نظرة الأسرة لى تتغير بعض الشىء ، وتركتنى أسرتى ألتحق بالمدرسة الإعدادية بالمدينة المجاورة ، وتم تخفيف الأعمال الزراعية عنى بعض الشىء ، وكان أبى الموظف الصغير ، يرجع من وظيفته إلى الحقل مباشرة فيعمل فيه عملاً مضاعفاً ؛ حتى يعفينى أنا منـه ، لأن قانون الأسرة هو أن يعمل كل من فى البيت فى الأرض ، ومن لا يعمل لا يأكل ، وكذلك كانت تفعل أمى ؛ لتساعد على إعفائى من نصيبى من العمل والتفرغ للدراسة ؛ حتى حصلت على الشهادة الإعدادية ، وكنت من العشرة الأوائل فى مدرستى .

وبدأت الأسرة « تعترف » بتفوقى لأول مرة ، ولا تعترض على عدم إسهامى فى الأعمال الزراعية .

وفى المدرسة الثانوية ، مات أبى الطيب يرحمه الله فى حادث بشع ، وحرمت من الأب الذى لم يضربنى مرة واحدة فى حياته ، وكان يعمل فى

الأرض بدلاً منى ، وبعد رحيله عنا بعام واحد ، لحقت به أمى الطيبة ، وتجرعت الكأس المريرة مرة ثانية ، وأنا أستعد لامتحان الثانوية العامة بعد شهر واحد ، وتزلزلت بى الأرض ، وخيل إلىّ أننى نسيت كل ما استذكرته من قبل ، وكدت أحجم عن دخول الامتحان ، إلا أننى تمالكت نفسى فى النهاية ، وتذكرت مسئوليتى عن إخوتى وأخواتى ، الذين اعتبرت نفسى أبا لهم بعد وفاة أبوينا ، ودخلت الامتحان ، ونجحت بمجموع أهلنى للالتحاق بكلية الهندسة .

وتخرجت بعد ٥ سنوات ، ولم أوفق فى العمل معيدًا بالكلية نفسها كما كنت أرجو لنفسى ، وسافرت بعد التخرج للعمل فى دولة عربية ، وكنت من قبل بداية دراستى الجامعية أحب فتاة من أبناء بلدتى حباً صامتاً ، لم أفصح عنه لاعتقادى أن ظروفى وظروف إخوتى بعد رحيل أبوينا ، لا تسمح لى برفاهية الحب والتطلع للارتباط .

وخلال عامى الثانى فى العمل والغربة ، علمت فجأة أن هذه الفتاة قد تم عقد قرانها بين يوم وليلة وأنها ستزف إلى عريسها خلال شهور ، ولم أحزن كثيراً عليها ؛ لأننى قد تعودت على أن تحرمنى الحياة من كل شىء أحببته ، فضلاً عن أننى لم أكن أعرف : هل كانت تبادلنى الحب الصامت ، أم لا تشعر بى .

ثم رجعت إلى مصر فى الإجازة التالية ، وذهبت إلى كليتى لأزور أحد أصدقائى المعيدين ، فإذا بى ألتقى بها بالمصادفة ، وإذا بها تصارحنى بأنها قد أحبتنى طوال السنوات الماضية ، وانتظرتنى طويلاً ، حتى

يئست منى ، وأنها على استعداد لأن تحصل على الطلاق قبل الزفاف ، وترتبط بى .

فمادت بى الأرض وتعجبت لماذا تعاندنى الحياة على هذا النحو . . ولماذا لم تسمح لى الظروف بأن أعرف أنها تبادلنى الحب ، إلا بعد عقد قرانها . . وكيف أسوغ لنفسى أن أشجعها على فك ارتباطها بمن ارتبطت به ، وأنا الإنسان المتدين الذى يكره أن يسرق ما ليس له ، وسألتنى الفتاة عما سأفعل معها ؛ فطلبت منها أن تترك الأمور للمقادير ، مؤكداً لها أنه لو كان مقدوراً لنا أن يجتمع شملنا فى حياة واحدة ، فلسوف يجمعنا الله ، إذا أراد لنا ذلك ولو فى يوم زفافها .

ورجعت إلى عملى ، وبعد أسابيع أخرى علمت بزواجها بمن ارتبطت به ، فبكيتها ليل نهار ثلاثة شهور متواصلة ، وحاولت أن أتناساها وأن أبدأ مشروع خطبة تقليدية ، حين أرجع فى الإجازة ، وأقدمت على ذلك بالفعل أكثر من مرة طوال ثلاث سنوات بعد زواج فتاتى التى لم أرها بعد ذلك أبداً ، ففشلت كل محاولاتى ، ووجدت نفسى لا أشعر بأى ميل تجاه أية فتاة رشحها لى الأهل والأصدقاء .

والآن هناك فتاة أعرف أنها تحبنى فى صمت منذ سنوات ، كما أحببت أنا فتاتى فى صمت بضع سنوات ، ولست أحب هذه الفتاة ، ولكنى لا أكرهها أيضاً . . فهل أتزوجها استمراراً لإيمانى بأن الحياة لاتعطينى أبداً ما أريده وإنما ما تريده هى . . أم أبدأ مشروع خطبة تقليدية أخرى ، حين أعود إلى بلدى فى الإجازة، وسنوات العمر تجرى ،

ومجتمع الغربة لا يتيح لى الالتقاء بفتيات ، لكى أرتبط بواحدة منهن على أساس عاطفى . . وأخيراً أريد أن أسألك : لماذا تقسو علينا الحياة هكذا ؛ فتحرمنا مما يريده القلب دائماً ؟ وهل رأيت من قبل « لوحة حياة » سوداء كمثل لوحتى هذه على مدار ٢٩ عاماً ، بلا أية نقطة بيضاء فى سوادها ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أما وإننى قد « رأيت » من قبل « لوحات حياة » مثل لوحتك ، أو أشد جهامة منها . . فلقد رأيت ولمست وشهدت من هذه اللوحات ، ما تعتبر لوحتك هذه بالقياس إليها لوحة فضية اللون ، وليست سوداء كما تظن .

وأما أن لوحتك تخلو من كل نقطة بيضاء فهذا أمر غير صحيح ، وتفسيره المنطقى المفهوم هو ميل الإنسان الغريزى للرثاء لنفسه . . وارتياحه « الاكتئابى » الغريب ؛ لأن يعتبر نفسه أحياناً « أتعس إنسان فى الوجود » كما يتردد كثيراً على ألسنة البعض ، وكأنهم قد اطلعوا على أحوال ٥ مليارات من البشر ، يعيشون على سطح الكرة الأرضية ، و« درسوا » حياتهم ، وخرجوا بهذه النتيجة المنطقية العجيبة !

يا صديقى الشاب إن كنت قد جاهدت جهاد الأبطال ؛ لكى تواصل تعليمك فى بيئة لا تشجع على استمرار التعليم ، وفقدت أبويك الطيبين خلال رحلة الحياة وآلامها ، فلقد حفلت « لوحتك » إلى جانب هذه الظروف المؤلمة بالكثير من النقط البيضاء والمضيئة ، أولاها هى قصة

هذا الكفاح نفسه من أجل التعليم وسط أصعب الظروف، وعطف أبويك عليك ، وتشجيعهما لك على مواصلة التفوق والتعليم، ولو أديًا هما عنك نصيبك من العمل الشاق فى الأرض ، ونجاحك فى النهاية فى الالتحاق بكلية مرموقة هى كلية الهندسة ، وتخرجك فيها ، وعملك كمهندس بدولة عربية ، ونجاحك فى هذا العمل واستمرارك فيه حتى الآن . . فضلا عن « التاج الذهبى » ، الذى لا يراه على رؤوس الأصحاء إلا المرضى والمبتلون ، أفليست هذه كلها نقاطاً بيضاء لامعة فى اللوحة ، التى تظنها سوداء قاتمة !

ثم ماذا عن الحب الذى حرمت منه ؛ لأن الحياة قد « اعتادت » ألا تعطيك ما يهفو إليه قلبك ، كما تقول ! ومن كان المسئول عن ضياع هذا الحب من بين يديك ، وقد كان فى مقدورك الفوز به والدفاع عنه ، لو كنت قد أقدمت على خطوة إيجابية واحدة فى الطريق إليه ؟ إن فتاتك التى أحببتها فى « صمت » بضع سنوات ، لم ترتبط بغيرك إلا بعد عامين من تخرجك أنت وعملك بالخارج ، فماذا أعاقك عن الإقدام على الارتباط بها خلال هذه الفترة ؟ ولماذا ننتظر نحن دائماً حتى ينبهنا الآخرون إلى قيمة ما كان معروضاً أمامنا ، ولم نتلهف للفوز به ، إلا بعد أن خطا نحوه غيرنا ؟

إنك لم تحزن على هذه الفتاة ، حين علمت بزواجها وأنت فى الغربة ، كما تقول ، ولكن الأقدار هيأت لك أن تلتقى بها ذات يوم ، وأن تعرف رغبتها فيك ؛ فماذا فعلت حين علمت بذلك ؟ وماذا كنت تنتظر من

هذه الفتاة أن تفعل ، وقد طالبتها أنت بأن تدع الأمور تجرى فى أعنتها ، وقد يجمعكما الله إذا قدر لكل منكما أن يلتقى بالآخر فى حياة مشتركة ؟

إن ارتباط شخصين بعاطفة قوية ورغبة كل منهما الصادقة فى الآخر ، مبرر كاف لأن يسعى كل منهما لأن يزيل العقبات التى تحول دون اجتماع شملهما ، فإذا كنت قد رأيت شبهة حرمة دينية فى ذلك ـ استنادًا إلى الحديث الشريف ، الذى ينهانا عن أن يخطب المرء « على خطبة أخيه حتى يذر »أى يدع خطيبته بإرادته هو ـ فإن الوضع هنا مختلف . . لأن المقصود بالحديث الشريف ـ فى تقديرى ـ هو ألا تنافس أخاك على طلب يد فتاة سبقك آخر إلى خطبتها ، وليس يدفعك إلى طلبها سوى ما دفعه هو إليها ، وهو الطموح إلى مصاهرة أبيها وأسرتها . . وليس لكل منكما رغبة خاصة فيها لشخصها وحده أو سابق ارتباط بها ، فتفسد عليه الأمر بتقدمك بطلب يدها ، وهى مخطوبة إليه ، أو وهو قد طلب يدها ، ولم يتلق بعد جواباً شافياً .

ولقد كان الناس يتصاهرون بالأحساب والأنساب ، فكلا الخطيبين سواء بالنسبة للفتاة المرغوبة ، ولا رأى شخصى لها فى أحدهما أو كليهما ، والتفاضل بين المتقدمين إليها يكون بالأنساب والأحساب والمال ، وظهور الخطيب الآخر هنا يفسد الأمر بالفعل على أخيه ، الذى سبقه إلى التقدم لخطبتها ، ويضعه موضع المقارنة معه ، وهذا هو المنهى عنه .

أما أن تكون الفتاة راغبة فيك وأنت راغب فيها ، وتعرض عليك فك ارتباطها بمن ارتبطت به ؛ لأنها تحبك أنت ولا تحبه . . . فإن الحديث

الشريف الآخر الذى يقول « لم نر للمتحابين مثل النكاح » هو الأصح بالاتباع هنا ، لأنه يصحح الأوضاع ، ويعفى ذلك « الآخر » من أن يتجرع تعاسة الارتباط بمن لا تحبه هو وتحب غيره ، كما أنك لم تكن ـ فى كل الأحوال ـ لتتقدم إلى هذه الفتاة ، إلا بعد أن تحل هى مشكلتها مع من ارتبطت به ، ولم تكن خسائره لتصبح كثيرة فى مثل هذه الحالة ، وهو لم تجمع بينه وبينها حياة مشتركة ، ولم ينجب منها أطفالاً تطالبها حقوقهم عليها ، بأن تذر هى كل حديث عن مثل هذه الأمور العاطفية، بعد أن ارتبطت بأبيهم ، وجاءت بهم للحياة .

فأين عناد الحياة لك وإصرارها على أن تحرمك من كل ما أردت ؟ إننى أطالبك بأن تهون الأمر على نفسك ؛ لأن أغلب ظنى هو أن هذه الفتاة لم تكن تحبك فى صمت طوال السنوات الماضية .. وإنما كانت «تأمل » فيك فقط ؛ خاصة بعد تحسن أحوالك الاجتماعية والمادية ، وفارق كبير بين الحب القوى الحقيقى وبين « الأمل » السلبى الكامن ، الذى لا يعبر عن نفسه ، إلا فى لقاء تم بالمصادفة ، وكان من الممكن ألا يتم ، وألا تعرف أنت حتى به .

ولو كان ما تحمله لك هذه الفتاة هو الحب الحقيقى ، وليس مجرد الأمل الوردى فى شاب مقبول وظروفه أفضل ممن ارتبطت به على الأقل من ناحية القبول النفسى به ، لما اكتفت منك بهذا الوعد القدرى الغامض .. ولتمسكت بك وكافحت للفوز بك ، وحثتك على وعدها بالتقدم إليها .. بل ولأقدمت حتى بغير أن تحصل منك على هذا الوعد

على فك ارتباطها بالآخر ، لتغريك بالتقدم إليها . . أو لتشعرك بمسئوليتك الأدبية غير المباشرة عن هذا التطور فى حياتها .

وهى لم تفعل ذلك على أية حال . . ولا يدرى أحد ـ حتى أنت ـ هل كنت سترغب فيها حينذاك ، أم ستجد لنفسك من المبررات ما يصرف رغبتك عنها .

فهل تتوقف الحياة ؛ لأنك لم ترتبط بهذه الفتاة ، التى لم تتخذ أنت خطوة إيجابية واحدة للفوز بها دون غيرها ؟

إن الحياة لا تتوقف فى كل الظروف ، ومياه النهر لا ترجع إلى منابعه أبداً ، وإنما تواصل سيرها الحتمى إلى المصب ، ولو كانت النفس تحظى بنيل كل ما تهفو إليه ، لما كانت الدنيا دنيا ، ولما كانت جنان النعيم وعداً إلهيًّا للسعداء والموعودين ، فتخلص من هذه النغمة الاكتئابية ، وارض عن نفسك وعن حياتك وعن كفاحك البطولى للتفوق والدراسة والعمل ، وتطلع بقلب يخفق بالأمل إلى من حولك ، ولسوف تجد كثيرات بينهن يسعدن بك .

ولو أنك قد خيرت فى النهاية إذا لم يخفق قلبك لفتاة بعينها ، بين الارتباط بمن تحبك هى الأخرى فى « صمت » ، وبين التقدم إلى فتاة لا تعرفها ولا تعرفك ، وليس لأحدكما عند الآخر أى رصيد عاطفى سابق، وقد تنمو مشاعر الحب بينكما فى المستقبل ، وقد تموت بذوره فى جوف الأرض ، لنصحتك على الفور بأن ترتبط بمن تحبك ـ منذ سنوات

- حتى ولو كانت مشاعرك حيادية تجاهها حتى الآن ، لأنك « الفائز » فى كلا الحالين يا صديقى سواء نبتت بذور حبها فى قلبك بعد الارتباط ، أم لم تنبت ، ولأن هذا هو الارتباط الأقل تعرضاً للفشل من غيره ، لأن المرأة إذا كانت هى الطرف المحب فى علاقة الزواج ، أو الطرف الذى يحب أكثر . . فلسوف تصنع المستحيل لكى ينجح زواجها ، وتحميه من كل العواصف والأنواء ، حتى ولو لم يكن زوجها يحمل لها القدر نفسه من الحب ، أو حتى لو استمرت مشاعره « عائلية » متحفظة تجاهها للأبد .



السلك المشدود

أكتب رسالتى هذه لأقول لك إننى سيدة رحل زوجى عن الحياة فجأة منذ سبع سنوات ، إثر حادث سيارة تعرض له أثناء عودته إلى البيت ، فواجهت تجهم الحياة ، كأرملة لها ثلاث بنات على مشارف الزواج ، وابن فى عامه الأخير بالمدرسة الصناعية المتوسطة .

وبعد رحيل زوجى بأسابيع ، حصل ابنى على شهادته وشاركنى تحمل أعباء الحياة ؛ فعمل فى إحدى الشركات صباحًا .. وعمل كضابط أمن ليلاً ؟ ليساعدنى فى تدبير نفقات زواج شقيقاته ، وكلما عرضت عليه أن أعمل بإحدى المدارس القريبة كدادة أو عاملة نظافة ؛ لأخفف عنه بعض مسئولياته ، كان يرفض ذلك بشدة ، لأنه رجل البيت من بعد أبيه ، ولا يقبل أن أتعرض للبهدلة فى مثل سنى .

وهكذا ... واصل ابنى كفاحه وعمله الشاق ليلاً ونهارًا ، حتى تزوجت البنات واحدة وراء الأخرى ..

وكلما وفقنا الله فى زواج إحداهن ، شعرت وشعر معى بأن حجرًا ثقيلاً قد ارتفع عن صدرينا . . ودعونا الله أن يعيننا على رفع بقية أحجار المسئولية الثقيلة . . إلى أن تم زواج البنات ، وتنفسنا معًا الصعداء . .

وبدأنا نلتقط أنفاسنا ونستريح ، فاذا بالقدر يختطف إحدى بناتى - وهى فى ريعان شبابها - فترحل عن الحياة فجأة تاركة وراءها ثلاثة أطفال حيارى . . وإذا بزوجها يأتينا بعد قليل ؛ ليبلغنا أنه سوف يتزوج من أجنبية ويسافر إلى بلدها ، ولن يستطيع اصطحاب أطفاله معه ، لأن زوجته الأجنبية لن تستطيع تربيتهم وفقًا لعادتنا وتقاليدنا .

ولم يكن أمامنا إلا أن نقبل الأمر الواقع ، ونضم هؤلاء الأطفال الأيتام إلى أسرتنا ؛ لأنهم دمنا ولحمنا ، ورجعت أحجار المسئولية الثقيلة تجثم فوق صدورنا من جديد مع الأحزان والآلام ، وقبل أن نألف هذه الأوضاع الجديدة إذا بنا نفاجأ بابنتى الثانية تأتى إلينا مطلقة ، ومعها طفلتها الصغيرة ، فأصبح بيتنا يضم أطفال ابنتى الراحلة . . وطفلة ابنتى المطلقة التعيسة ، وأمًّا شهدت فى سبع سنوات فقط من ترملها من الأحداث ، مالم تشهده فى كل سنوات حياتها السابقة ، وابنًا يواجه أقداره بصبر ، ويكافح فى الحياة ليتحمل مسئولياته ، ولم يضق بوجود أخته المطلقة وطفلتها . . ولا بوجود الأطفال الثلاثة .

أما ابنتى المطلقة فهى تحنو على أطفال أختها الراحلة ، وتساعدنى فى تربيتهم . . ثم سافر ابنى فى مهمة عمل إلى الإسكندرية ذات يوم ،

فبحث عن عنوان شقيقتى ، التى تزوجت هناك منذ عشرين سنة ، وانقطعت الصلات بيننا تقريبًا طوال هذه الفترة ، وزارها وقوبل منها ومن أسرتها بالحفاوة والترحيب ، فتجددت الصلة بيننا مرة أخرى ، وأصبحت دائمة .

ثم جاءنى ذات يوم وأبلغنى أنه يرغب فى أن يتزوج ابنة أختى هذه . . ورحبت برغبته ، وتمنيت له الخير والسعادة من كل قلبى ، بعد ما عانى معى من أعباء الحياة طوال السنوات الماضية ، وتمت الخطبة بالفعل ، واستطعت خلال فترة الخطبة ، أن أجد له بتوفيق من الله شقة مناسبة قريبة منى ، واستطاع هو تأثيثها وتدبير تكاليف الزواج .

وتم الزواج منذ حوالى ستة شهور ، وسعدنا بسعادة هذا الابن المضحى الطيب ، الذى تتمثل فيه الرجولة بكل معانيها ، فإذا بزوجته ، ابنة شقيقتى ، ترفض منذ الأيام الأولى لزواجها أن تزورنى فى البيت ، بدعوى أنها لا ترغب فى ذلك ، لكيلا تتجشم عناء خدمتنا نحن والأطفال الثلاثة ، مع أننا لم نكلفها بشىء من ذلك ، ولم ننتظره منها ، وترفض أيضًا السماح لابنى بزيارتنا ، فلا يستجيب لها ويزورنا بمفرده .

ونشأت للأسف بينى وبين ابنة شقيقتى عداوة ، لا أعرف لها سببًا ، ولم أسع إليها ، ولم يمض وقت طوييل حتى هجرت بيتها ورجعت إلى أمها ورفضت العودة لزوجها مرة أخرى ، وحددت شروطها فى أمرين لا ثالث لهما ، هما : إما أن يوفر لها شقة فى الإسكندرية بجانب أمها وينقل

حياته إلى هناك ، وإما أن يطلقها ويرسل إليها نفقتها الشهرية ومنقولاتها ، وإلا لجأت إلى المحاكم .

إن زوجة ابنى يا سيدى حامل ، وقد علمنا أنها التحقت بوظيفة بالإسكندرية ، وإبنى حائر ، لا يريد أن يفقد زوجته بعد أن تحمل ما تحمل ، لكى ينشىء بيت الزوجية ، ولا يريد من ناحية أخرى أن يتخلى عنى ولا عن أخته المطلقة وأبناء أخته الراحلة .

وإننى أكتب إليك لكى ترقق قلب زوجته هذه ، وتناشدها العودة إليه ؛ لأن قلبه متعلق بها ، ولا يرغب فى طلاقها ، ولا يتحمل فى الوقت نفسه فراقنا ، وإننى أعد زوجته ، وأقسم لها أمامك أننى لن أتردد عليها فى بيت الزوجية ، بعد رجوعها إليه ، ولن أكون سببًا فى أية مشكلة لها ، لا أنا ولا ابنتى المطلقة ، ولا أحفادى الأيتام ، بل إننى لن أطالب ابنى حتى بأن يزورنى إرضاءً لها ، ويكفينى أن أشعر أنه بخير وقريب منى وإلى جوارى ، حتى ولو لم أره . .

ويكفينى يا ابنتى من فقدت من زوج راحل وإبنة رحلت فى ريعان الشباب ، فضلاًعن ظروفنا المؤلمة الأخرى ، ووجود ثلاثة أبناء يتامى ، تركهم والدهم ؛ ليتولاهم الله برعايته من بعده ، وإبنة مطلقة ومعها طفلتها .

إننى أرجوك أن تناشدها باسمى العودة إلى زوجها وبيتها ، خاصة وأنها حامل ، ولسوف يزيد من حسرتى أن ينشأ حفيدى بين أبوين

منفصلين : الأب فى القاهرة والأم فى الإسكندرية . . فقل لها يا سيدى على لسانى : عودى يا زوجة إبنى ، واعتبرينا أنا وابنتى المطلقة وأحفادى اليتامى فى حكم الأموات بالنسبة لك . . ولا تحرمى إبنى هذا من أول نسمة راحة وسعادة فى حياته منذ رحيل والده . . وشكرا لك يا سيدى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أحد « أحوال » الحب أن « يستذل » الإنسان نفسه للغير ؛ طلبًا لسعادة من يحب . ولاشك يا سيدتى فى أنك تحبين ابنك الشهم هذا أعمق الحب، وتطلبين له السعادة ، ولو على حساب كرامتك وحرمانك منه ومن حقوقك كأم عليه ، كأنما تريدين بذلك أن تبادليه تضحية بتضحية وإنكارًا للذات بإنكار أشد . .

غير أنى أتساءل أيستحيل حقًّا أن ينعم مثل هذا الشاب الطيب بالسعادة فى حياته الخاصة مع زوجته ، بغير أن تقدمى لها هذا القربان المؤلم ؟ . . ولماذا تصبح المسئولية العائلية والإنسانية التى تضعها الأقدار أحيانًا على كاهل مثل هذا الشاب « نقيصة » من نقائصه التى لا تغتفر عند مثل هذه الزوجة الشابة ، بدلاً من أن يكون نهوضه بها دليلاً على رجولته وأصالة أخلاقياته ونبله مع ذويه وأولهم زوجته ؟

إننى أعرف أن بعض الزوجات الشابات يضقن حتى الموت بمثل هذه الأعباء العائلية والإنسانية ؛ خشية أن تستغرق طاقة الزوج النفسية

والمادية ، فلا يبقى لديه ما يقدمه لزوجته من اهتمام وعطاء ، ويعتبرن مجرد الاهتمام الإنسانى من جانبه بمشاكل حياة الأم والإخوة ، خصماً من عطاء ، كان ينبغى لها أن تستأثر به وحدها ، دون الجميع .

ولكن القضية ليست بهذا التعقيد ، الذى يستحيل معه أن يوفق هذا الزوج بين مسئولياته العائلية ، وبين واجباته والتزاماته تجاه زوجته وأسرته الصغيرة ، ففى قدرة الإنسان أن يفى للطرفين بالتزاماته تجاههما ، بغير أن يجور على حقوق أحدهما عليه ، أو يميل بشقه ناحيته ، والمشكلة ليست فى القدرة على التوفيق بين الإهتمامين بالأساس ، وإنما فى هذه « النظرة العدائية » الغريبة المتبادلة غالبًا بين الطرفين ، كل منهما تجاه الآخر ، وكأنه منافس شرس له فى اهتمام الزوج وعطائه ، ولن يأمن لحياته وغده إلا إذا استطاع أن يستأثر به وحده ، دون الطرف الآخر ، وهى نظرة لا تخلو فى بعض جوانبها من تأثير الغيرة الأنثوية الغريزية المتبادلة فى معظم الاحيان بين الأم وزوجة الابن ؛ خاصة فى مثل هذه الظروف ، التى تعتمد فيها الأم اعتمادًا أساسيًّا على ابنها بعد رحيل زوجها عن الحياة ، ولا تخلو أيضًا من تأثير حب التملك الغريزى لدى الطرفين فى أحيان كثيرة . .

مع أن العدل كفيل بحل كل المشاكل المستعصية، والاعتدال أيضًا حتى فى الفضائل مطلوب ومرغوب دائمًا لتيسير الحياة وتجنب العثرات والعقبات ، وبشىء من الفهم وسعة الأفق تستطيع مثل هذه الزوجة الشابة ، التى لم تحتمل « غربتها » عن أمها وأهلها ، أكثر من ستة

شهور، أن تعتبر أداء زوجها لالتزاماته الإنسانية تجاه أمه وأخته المطلقة وأطفال شقيقته اليتامى ، مع حبه لها وحرصه عليها ، مؤشرًا صادقًا لفضائل زوجها وأمانته وأصالة معدنه وقيمه الأخلاقية ؛ إذ هل كان يرضيها حقًّا أن تعاشر « نذلاً » يتخلى عن أمه وأخته المطلقة والأطفال الحيارى لغير ما سبب ، سوى أن يتفرغ لها وحدها بجماع قلبه وعقله وفكره ؟ . . وهل تأمن حقا لمثل هذا النوع من الرجال ، وتضمن ألا يظلمها ، وألا يتخلى عنها ، إذا اختبرتها الحياة بعض اختباراتها القاسية؟

لقد تعجلت هذه الزوجة الشابة تفجير المشكلة ، ولما يمضى على زواجها سوى ستة شهور ، وقد يكون لبعدها عن أسرتها ، التى لم تبتعد عنها من قبل ، ولصعوبات العام الأول من الزواج المألوفة أثر فى عدم صمودها للتجربة ، وعدم محاولتها التواؤم مع الأوضاع الجديدة فى حياتها ، كما قد يكون لنقص خبرة ابنك بالحياة ، وبنفسية المرأة بعض الأثر أيضًا فى عجزه عن احتواء المشكلة ، وعن التوفيق بين واجبه تجاهكم ، وواجبه تجاه زوجته فى البداية .

لكن ألم يكن من المستطاع أن تمهله زوجته بعض الوقت ؛ ليكتسب مثل هذه « الخبرة » الثمينة اللازمة ؛ للمشى على السلك المشدود بين أسرته وزوجته ، بغير أن يغضب أحدهما أو يقصر فى واجباته تجاهه ؟ .

لقد كانت مسألة وقت و « خبرة » لا سبيل لاكتسابها غالبًا إلا بالممارسة ، وإلا بالتجربة والخطأ . . كما أنها « محنة » يواجهها شباب كثيرون ، كهذا الشاب الحائر ، فتكسبهم الحياة رغمًا عنهم « مهارة »

السير فوق هذا السلك الرفيع ، بغير السقوط منه إلى هاوية التعاسة وإغضاب أحد الطرفين ، ولكن زوجته الشابة تعجلت الأمور ، ولم تمهله الوقت الكافى ؛ لكى ينجح فى إقناع زوجته بأنها فى بؤرة اهتمامه الأولى ، وبأنه لا تعارض بين ذلك وبين واجباته الإنسانية الأخرى تجاه أمه وأخته والأطفال الحيارى ، فلماذا لم تترفق به هذه الزوجة الشابة . . ولماذا لم تعنه على تحمل أقداره بدلاً من أن تعين أقداره عليه ؟!

إننى يا سيدتى لن أناشدها العودة إلى زوجها ، على أساس اعتباركم أنتم أسرة هذا الشاب الطيب فى « حكم الأموات » ، كما تقولين فى عبارتك المؤلمة ، وإنما سوف أطالبها بأن تراجع نفسها وضميرها فيما فعلت ، وفى هذا الاختيار اللا إنسانى ، الذى تضع زوجها أمامه بينها وبين أمه وأخته وأطفال أسرته الحائرين . .

ولسوف أطلب منها أن تترفق بمن اختبرتهم الحياة اختباراتها المؤلمة . . وأن تتفهم ظروفهم واحتياجاتهم الإنسانية لدى زوجها ، وهى لاتتعارض أبدًا مع وفائه لها بكل حقوقها عليه خاصة ، وإنها لا تنكر عليه ، كما فهمت من رسالتك شيئًا آخر سوى ذلك بدليل استعدادها لاستئناف الحياة الزوجية معه ، بشرط انتقاله للعيش معها بالإسكندرية .

ولسوف أذكرها بما نشرته فى هذا المكان منذ أقل من عامين للزوجة ، التى كتبت إلىَّ لتروى أن شقيقة زوجها قد ترملت وواجهت الحياة مع أطفالها الأيتام ، فكان أول ما فعلت هذه الزوجة ، هو أن ضاقت باهتمام زوجها بها ، وبمشاكل أبنائها بعد رحيل أبيهم ، فأنكرت عليه ذلك ،

وافتعلت المشاكل بينها وبين هذه الشقيقة ، لكى « تنقذ » زوجها من الغرق فى « مستنقع » مشاكلها ومشاكل أبنائها الكثيرة ، ونجحت فى ذلك فوقعت القطيعة بين زوجها وشقيقته الأرملة الحزينة ، وسعدت هى باستئثارها به لنفسه ولأطفالها ؛ فلم تمض سنوات قليلة ، حتى رحل هو الآخر عن الحياة ، ووجدت الزوجة التى كرهت اهتمام زوجها بأخته بعد ترملها نفسها تعيش ظروفها الإنسانية القاسية نفسها . . وتألمت غاية الألم حين استشعرت من زوجة شقيقها نفس الجفاء ، الذى أبدته هى تجاه شقيقة زوجها ونفس محاولاتها لابعاد شقيقها عنها ؛ حتى لا يغرق فى « المستنقع » نفسه ، ويوجه بعض اهتمامه لها ولأبنائها ، فأدركت لأول مرة عمق احتياج من كانت فى مثل ظروفها إلى اهتمام ذويه بأمره ومساندتهم له ، ولم تجد من يقف إلى جوارها بالعطف والمساندة النفسية ، سوى شقيقة زوجها الراحل التى سبقتها من قبل إلى تجرع الكأس نفسها ، والتى جفتها هى ، وأبعدت زوجها عنها حين كانت فى أشد الحاجة إليه . .

فهل تريد هذه الزوجة الشابة ألا تحصن نفسها ضد غدر الأيام بمثل هذا الخيار القاسى ، الذى تضع زوجها الآن أمامه؟

وهل ترغب حقًّا فى ألا تتفهم عمق احتياجكم الإنسانى والعاطفى لوجود زوجها فى حياتكم ، بغير أن ينقص ذلك شيئًا من حقوقها لديه ، إلا بعد أن تختبرها الحياة اختباراتها القاسية ، فتفهم ما لم تكن تفهم من قبل ، وكل شىء حولنا على ما يرام ؟

إننى أربأ بها أن تكون ممن لا يقدرون ظروف الآخرين ، ولا يترفقون بالتعساء والممتحنين، وأترك لها الخيار . . لأن تضع نفسها بين أصحاب القلوب الحكيمة والفهم الإنسانى الذين لا يحاكمون الآخرين بظروفهم الإنسانية المؤلمة ولا يدينونهم بها ، أو بين ما لا يرون سوى رغباتهم واحتياجاتهم ، ولا يترفقون بأصحاب الظروف الإنسانية ، حتى إذا وضعتهم الأقدار فى ظروفهم ، ذات يوم . . ندموا على ما كان من غرور الدنيا السابق ، وجأروا بالشكوى من قسوة القلوب . .

وما أحسبها إلا من أهل الرفق والعطف . . وما أنتظر منها إلا أن تبدى بعض الفهم وبعض التقدير لظروف زوجها الإنسانية وظروف أسرته . . وشكرًا لها مقدمًا . . ولك أنت أيضًا يا سيدتى . .



الدماء الساخنة

أنا سيدة عمرى ٢٨ عامًا ، لى شقيق يكبرنى ومهاجر إلى الخارج ، وأخ يصغرنى يعمل بوظيفة جيدة ، وأنا أعمل بإحدى الهيئات الاستشارية ، وأبى وأمى على قيد الحياة والحمد لله . .

منذ أربع سنوات ، تقدم لخطبتى شاب وسيم وأنيق ، ويتمتع بمركز اجتماعى ومستوى مادى عاليين ، وله أسلوبه الخاص فى اجتذاب الآخرين إليه بالرقة الشديدة والذوق الرفيع فى التعامل ، ورحبت به بالطبع وتمت خطبتنا فى حفل كبير ، وبدأت فترة الخطبة فراح خطيبى يتعجل الزواج ، مبررًا ذلك بحبه الشديد لى .

وخلال هذه الفترة لاحظت أن خطيبى واقع تحت السيطرة الكاملة لأمه لأنه وحيدها ، فكانت لا تتركه يأتى لزيارتنا وحده أبدًا خلال الخطبة ، ولا تدعنا نخرج سويا إلا وهى معنا ، كأنما تخشى منى إذا انفردت به أن اغتصبه !

ولكنى تجاوزت عن ذلك وعن المشاكل العديدة التى أثارتها بيننا ، حينما استشعرت تقاربنا العاطفى ، وكلما وقعت مشكلة من هذه المشاكل ، طلب منى أبى وأمى فسخ هذه الخطبة ، لأنهما لا يستريحان إلى تدخل أمه الشديد فى كل شئوننا مما ينذرنى بالمتاعب بعد الزواج ، فضلاً عما لاحظاه عليه هو نفسه من بخل شديد . ولكنى تمسكت به وأصررت على إتمام الزواج ؛ لأنى كنت أتأثر بدموعه فى كل مرة يعتذر لى فيها بعد كل مشكلة .

وتم الزفاف فى حفل كبير تحمل أبى معظم نفقاته ، وسافرنا إلى إحدى المدن الساحلية لنبدأ شهر العسل . . ففوجئت بعد وصولنا إليها بيومين فقط بوالدة زوجى ووالده يلحقان بنا ؛ بحجة الاطمئنان على ابنهما ، فانتهى شهر العسل عمليًّا بعد يومين ، ورجعنا من الأجازة إلى شقتنا . .

وبدأت مشاكل من نوع آخر هى مشاكل البخل واللسان السليط والتطاول ، ثم ضربنى زوجى فى ختام شهرنا الأول ؛ لأننى أتكلم كثيرًا فى التليفون والفاتورة ستأتى باهظة ، مع أن كل ما فى بيتى من طعام وشراب وبقالة وهدايا ، لى وله ، من خير أبى وأهلى حتى أمواس الحلاقة !

واستمر الحال هكذا بضعة أشهر ، وأنا أكتم غيظى ، وأزداد نحولاً ثم اكتشفت حملى ؛ فحاولت بذل مزيد من الجهد لإنجاح الزواج واستمرار الحياة . ولكن كيف تختفى المشاكل من حياتنا ، وهو يقص

على أمه كل شىء فى حياتنا بالتفصيل ؛ حتى ألوان قمصان النوم التى أرتديها . . إلى أن تجاسرت بعد بضعة شهور من زواجنا ، ومن اعتمادنا الكلى فى حياتنا على أبى وأمى فى نفقات البيت ، وطالبته بأن ننفق على بيتنا من ماله الخاص أو من مرتبى الذى أسلمه له كاملاً أول كل شهر ، ويقول إنه يدخره لنا للمستقبل . .

فثار علىَّ ثورة عارمة وركلنى فى بطنى بقدمه وسبنى بأفظع كلمات السباب ، وكانت النتيجة أن تعرضت لنزيف شديد ، ونقلت إلى المستشفى ، وتعرضت للإجهاض ، وجاء هو إلى المستشفى ليبكى بدموع سخينة ، ويبدى حزنه وندمه ، وبرر لأهلى إجهاضى بأننى أرهق نفسى بالعمل ، وأحتاج للراحة ، وتكتمت أنا بالطبع سبب الإجهاض الحقيقى عنهم ، وعدت معه إلى بيتنا بعد أن وعدنى بألا يكرر ما فعله معى مرة أخرى ، مهما حدث بيننا من مشاكل ، وبأنه سوف يكف عن سبى والتطاول علىّ .

وحملت للمرة الثانية وتمنيت أن يكتمل هذا الحمل ؛ فحصلت على أجازة من عملى ، ونفذت تعليمات الطبيب بالرقود على ظهرى لأطول فترة ممكنة معظم فترة الحمل ، ولكن زوجى جن جنونه لانقطاع مرتبى ، وزاد غضبه وسبابه لى فانفجرت فيه ذات مرة ، وطالبته بمبلغ من المال لإجراء بعض التحاليل والاشعات ، فطلب منى هو أن أخذ ما أريد من أبى ، ورفضت ذلك لأنه زوجى المسئول عنى ، وليس فقيرًا . . فاشتعلت المناقشة بيننا ، وانهال هو علىَّ مرة أخرى بالضرب المبرح ،

حتى سالت الدماء الساخنة من رأسى ووجهى وجسمى ، وحجبت عنى الرؤية ، ولم أعد أرى منها شيئًا ، وفوجئت به بعد ذلك يحبسنى ويفصل كل التليفونات ، حتى لا أستنجد بأهلى ، ثم يغلق باب الشقة ويذهب إلى عمله متأنقا وكأن شيئاً لم يحدث. ووجدت الدماء تغطى وجهى ، وأشعر بآلام رهيبة فصرخت بأعلى صوتى ، حتى سمعنى الجيران والبواب، وحطموا باب الشقة ، ونقلونى لأقرب مستشفى فرحت فى غيبوبة لم أشعر خلالها بشىء ، ثم أفقت فوجدت أنفى مكسورًا ، وبعض الغرز تمت خياطتها برأسى ، وبعض الكدمات والجروح وتنتشر فى جسمى . .

أما الجنين فلقد سقط مرة ثانية وتم الإجهاض ، كما وجدت حين أفقت من غيبوبتى أهلى حولى والجيران الذين نقلونى للمستشفى ، وقد عرف أهلى منهم كل ما حدث ، ثم جاء زوجى غاضبًا ومتحفزًا ، لكن هذا التحفز سرعان ماخبا حين تصدى له شقيقى ، وهم بأن يضربه فاكتفى بالقول إننى لا أصلح زوجة ، وأن لأسرتى كل الشرف لأنه قد تزوج ابنتها . . إلخ .

وانصرف زوجى قبل أن يتصاعد الموقف بينه وبين أهلى أكثر من ذلك، واصطحبنى أبى من المستشفى بعد فترة العلاج بقميص النوم والروب إلى بيت أسرتى ، وبعث لأسرة زوجى ، طالبًا التفاهم حول الطلاق بالطريق الودى ؛ فطلبت أسرة زوجى أن أتنازل عن مؤخر الصداق والنفقة والشبكة وجهازى كله ، حتى فستان الزفاف وهدايا

الزواج ، التى أهداها لى أقاربى وأخى المقيم بالخارج ، بل وحتى أيضًا عن ملابسى التى تركتها فى عش الزوجية غير السعيد ، لأننى على حد قول أسرة زوجى « ناشز » ، ولا حق لى فى شىء . . ويكفينى أنه سوف يتكرم بطلاقى ! . .

ورفضت هذه الشروط الظالمة بالطبع ؛ إذ إننى حتى لو تنازلت عن مؤخر الصداق والنفقة ، فكيف أقبل التنازل عن أثاثى ، الذى اشتراه لى أبى من ماله وعن ملابسى والهدايا . . إلخ ؟

وقامت بيننا حرب شعواء فى المحاكم ، استمرت شهورًا سوداء ، أصبح خلالها بيتنا الذى لم يعرف الحزن من قبل كئيبًا مظلمًا ، ورغم ذلك فلم أدع على هذا الإنسان بالشر أبدًا على الرغم من تألمى لمنظر أبى ، حين رأيته يبكى من القهر ، وهو يصلى حزنًا على مصيرى ، وضيقًا بما تعرضنا له من متاعب ومشاكل لا عهد لنا بها من قبل .

إلى أن جاء يوم واتصلت بى إحدى صديقاتى ، وأبلغتنى بآخر ما كنت أتوقعه بالنسبة لزوجى ، وهو أنه قد تعرض لحادث تصادم بشع ، كسرت فيه إحدى ساقيه ، ورقد فى الفراش فى حالة يرثى لها . . ووجدت نفسى أبكى بشدة ، وشعرت بالحزن الصادق من أجله ، لأننى لم أظلمه بقدر ما ظلم هو نفسه ، وتمنيت له الشفاء ، ثم جاء أهله ، وطلبوا منى باكين العودة إليه . ولكنى اعتذرت لهم برقة عن عدم استطاعتى ذلك ؛ لأننى لن أستطيع إسعاده بعدما حدث بيننا ،

وأكدت لهم أننى أتمنى أن يعوضه الله عنى ، بمن هى أفضل منى ، ووعدنى أهله بإنهاء إجراءات الطلاق ، وتسوية كل شىء فى هدوء ، وتم ذلك والحمد لله منذ فترة .

لقد رفضت العودة إليه ، ورجوت أهله أن يكرمنى بعد كل ما حدث بالطلاق ؛ لأننى لم أعد أشعر تجاهه سوى بالشفقة فقط عليه مما أصابه . . أما الحب فلقد مات نهائيًّا فى قلبى تجاهه منذ فترة طويلة ، وعند تعرضى للعلقة الدامية الثانية ، التى أسالت الدماء الساخنة من كل مكان فى جسمى ، وأنا أعرف أن الشفقة وحدها لا تصنع السعادة . . وأن أهم شىء فى الزواج هو الاحترام المتبادل بين الزوجين وحسن اختيار كل منهما للآخر .

فهل ترانى محقة فى ذلك وفى رفض العودة إليه مرة أخرى ، وأنا لم أعد أحمل له إلا الشفقة فقط ؟ .

لقد تمالكت نفسى أخيرًا وتجاوزت مرحلة الحزن . . وخرجت إلى الحياة من جديد ، وليس فى عقلى من هذه التجربة ، سوى أهم دروسها ، وهو أن من واجبنا ألا نتجاهل تجارب الكبار ولا نصائحهم لنا ، لأن خبرتهم بالحياة أكبر كثيرًا من خبرتنا ، فهل تؤيدنى فيما فعلت خاصة ، وأننى على وشك الارتباط مرة أخرى ، أم أن لك رأيًا آخر ؟ .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

نعم يا سيدتى ، أوافقك على اختيارك لعدم العودة إليه بعد ما جرى

بينكما من أهوال ، فقدت خلالها حملك مرتين ، وليس مرة واحدة ؛ ذلك أن من لا يعرف بالدماء الساخنة والإجهاض المتكرر والضرب الوحشى والسباب الفاحش من لا يصلحون له ، فلن يعرف أبدًا من يصلحون له ، ولسوف يظل بقية حياته ريشة فى مهب الريح يحملها هنا أو هناك بغير دور للإرادة العاقلة فى ذلك ، ولسوف يظل أيضًا نهبا للتخبط وتكرار الأخطاء إلى ما لا نهاية .

وليس لهذا السبب وحده ، أوافقك على اختيارك ، وإنما أيضًا لأن زوجك - وهو الأهم - قد سحب كل رصيده العاطفى السابق لفى قلبك وبدده فى الهواء ، فإذا خلا القلب من الحب الذى يغفر الخطايا والذنوب لمن أحب ، فأى دافع آخر إذن يبرر لك العودة إلى زوجك السابق ، لقد كانت التجربة كلها تحمل منذ البداية بذور الفشل ، وتعاميت بدافع الحب وحده عن رؤيتها ، وعن الاستجابة لنصيحة الأهل لك بفك هذا الارتباط ، قبل أن يبدأ .

إن القسوة المتكررة تقتل بذور الحب فى تربة القلب مع الأيام ، فلا تلبث أزهاره أن تجف وتتساقط ، ولا يبقى فيه بعد ذلك سوى المرارة المترسبة ، فإذا محا الزمن المرارات القديمة بطول العهد ، فليس من المحتمل فى أغلب الأحيان أن ينبت القلب بذوره مرة أخرى ، لمن قسوا عليه من قبل بهذه الوحشية .

ولا شك أن فقد جنينين بسبب تعرض الزوجة للضرب الهمجى من

زوجها أثناء الحمل ، ليس مما يمكن أن يندمل جرحه الغائر فى قلب مثل هذه الزوجة فى المدى المنظور ، فينبض بالحب من جديد لمن اغتال هذين الجنينين فى رحم أمهما .

لقد أحسنت صنعًا باعتذارك عن عدم العودة لزوجك السابق مرة أخرى ، كما أنك محقة أيضًا فى أن إحساس الشفقة وحده لا يصلح أساسًا للحب أو السعادة ، بل إن الروائى الإيطالى الشهير ألبرتو مورافيا ، يقول لنا على لسان بطلة رواية « امرأة من روما » أن الشفقة هى ألد أعداء الحب ؛ لأن المرأة حتى لو كرهت رجلاً فقد يراود الأمل هذا الرجل فى أن تحبه ذات يوم ، أما إذا كان ما تشعر به تجاهه هو الشفقة ، فلا أمل له فى أن تتحول الشفقة إلى حب ذات يوم !

لهذا . . فلا لوم عليك فى رفضك العودة إليه ، بعد أن تقطعت كل الخيوط التى ربطت بينكما من قبل ، ومات الحب على مذبح القسوة والضرب الوحشى والسباب الفاحش والمنطق المادى . . والبخل . . وحدة الطبع والغضب الجنونى والاندفاع الطائش ، حتى ولو كنت قد شاركته أنت صفة الاندفاع وسرعة التصادم . . وكل ذلك من أسباب التنابذ والاختلاف والصراع ، ومما يفرق ولا يجمع بين زوجين شابين ، خاصة بعد تبخر الحب العارض غير الحقيقى ، الذى شعرت به تجاهه لبعض الوقت .

فإذا كانت ساقه المكسورة ، سوف ترجع إلى طبيعتها بعد حين بإذن

الله . . فليس من المنتظر أن تتغير شخصيته بكل سماتها من النقيض إلى النقيض ؛ حتى ولو كان قبوله فى النهاية لطلاقك ، يعد مؤشرًا إيجابيًّا لبعض التغير فى التفكير . وغاية القول هى أن كلا منكما لم يكن شريك الحياة الأنسب للآخر ، ولا الأقدر على التواؤم والتكيف معه ، وأن من الخير لكليكما فعلاً أن يبحث عن سعادته فى طريق مختلف .

أما نصيحتك الدرامية الأخيرة للفتيات والشباب بألا يتجاهلوا خبرة الكبار ونصائحهم ؛ لأنهم أعرف منهم بالحياة ، فهى نصيحة حكيمة وصادقة ومخلصة . ولكن لماذا لا نسمعها من بعض الشباب أبدًا ، إلا بعد أن تسيل للأسف دماؤهم الساخنة بسبب تعاميهم من قبل عن حكمة الكبار ونصيحتهم المخلصة لهم ؟





أنا سيدة فى العقد الخامس من العمر ، تزوجت منذ ثلاثين عاما وأنجبت أربع بنات كبراهن الآن فى الثامنة والعشرين وصغراهن فى الحادية والعشرين من عمرها ، ولقد عشت حياة سعيدة مع زوجى الذى كان يشغل منصبا مرموقا باحدى شركات الاستثمار، وزوجنا معا بناتنا الثلاث ثم رحل زوجى عن الحياة فى حادث أليم منذ ٥ سنوات ، تاركا صغرى البنات وهى فى السادسة عشرة من عمرها . وبعد رحيل الأب بفترة قصيرة ، بدأت ابنتى الصغرى ترتدى الملابس التى ترتديها بنات هذه الأيام، وهى الملابس التى تكشف عن مفاتن الجسم أو الملابس الخليعة التى تتقيد بخطوط الموضة بمعنى أصح ، ولم أعترض على ذلك فى حينه للأسف لسببين : الأول أننى كنت أقول لنفسى ما يقوله كل الآباء والأمهات لأنفسهن فى مثل هذه الظروف من أنها صغيرة وطائشة وسوف تتعقل مع الأيام وتحذو حذو شقيقاتها فى تدينهن وملابسهن المحتشمة ذات يوم قريب . . وبعد أن تنتهى فترة مراهقتها وترجع إلى طبيعتها السوية .

والسبب الثانى هو أننى قد تحسست من أن أتشدد معها ، فتقول ابنتى إننى قد أصبحت اتحكم فيها بعد وفاة والدها وتشكو من ذلك ، وظل الحال على هذا النحو حوالى عامين ، ونحن نعيش حياتنا فى هدوء ، إلى أن فوجئت بها ترجع إلى مسكننا حيث نقيم فى المعادى ذات اصيل وهى تبكى وفى حالة هيستيرية وملابسها ممزقة ، وتحكى لى من خلال شهقاتها أن مجموعة من الشباب قد هجموا عليها وازالوا عذريتها فى وحشية رهيبة ! وبعد الصدمة الأولى التى شلت تفكيرى تماما . . وبعد الانهيار والصراخ والبكاء قمنا باتخاذ الاجراء المتبع فى مثل هذه الظروف ، وأبلغنا قسم الشرطة الذى نتبعه . . وليتنى كنت حاضرة الذهن ولم أفعل . . تسألنى لماذا ؟ فأقول لك لأننا ما أن فعلنا ذلك حتى أصبحت سيرتنا على كل لسان فى الحى الذى نقيم فيه . . وترددت قصتنا على الفور فى كل ارجاء الحى الكبير ، وفوجئت بأن معظم التعليقات التى ترددت حول هذا الأمر ليست متعاطفة معنا ولا حتى محايدة ، وإنما لدهشتى معادية وجارحة لمشاعرنا نحن الضحية المجنى عليها . . أما هذه التعليقات فلقد كان مفادها جميعا هو أن ابنتى تستحق ما جرى لها . . وأنه لولا أنها تفعل بنفسها ما تفعل لما جرى لها ما جرى . . ولولا أن أمها كانت موافقة على ما تفعله لما تعرضت ابنتها لما تعرضت له الخ !! وهكذا تضاعفت جراحنا يا سيدى بدلا من أن تضمد . . ووجدنا أنفسنا غرباء وسط من نعيش بينهم ، ولست أروى لك هذه القصة لكى أبكى على اللبن المسكوب ، والذى لا يفيد البكاء

شيئا في استعادته ، وانما أكتبها لك لكى أنبه الآباء والأمهات الذين يقرأون بابك المفضل إلى الخطر الفادح الذى يتهدد بناتهم ، حين تتهاون معهن الأمهات فى ملابسهن المثيرة لغرائز الشباب ، بدعوى أنها فترة ولن تلبث أن تمر أو بدعوى أنها فترة المراهقة التى لن تطول ، كما فعلت أنا مع ابنتى ، فلقد تعلمت بالدم والحسرة الآن ، أن هذا التبرير خاطىء من أساسه ولا يؤدى إلا الى الكارثة . . وإذا كنت قد شعرت بآلام خنجر مسموم يطعن قلبى حين جرى لابنتى ما جرى ، فلقد شعرت بأضعاف أضعاف ذلك من الألم حين لم استشعر عطفا من أحد ولا تعاطفا معنا ، فحتى هؤلاء الذين منعهم أدبهم من إيذاء مشاعرنا بكلمة معادية . . كانت عيونهم تنطق بالاحساس باننا المسئولون عما حدث لابنتى قبل كل شىء ، وقد لمست هذا الاحساس للأسف فى قسم الشرطة . . ولدى الجيران ولدى من نتعامل معهم من أصحاب المحلات المجاورة . . حتى تحولت الحياة بالنسبة لنا إلى جحيم ، فليؤد إذن كل أب وكل أم واجبه تجاه بناته . . ولا يكررن أحد خطئى مع ابنتى خاصة ونحن نعيش فى ظل هذا الواقع الذى لا يتحرك أحد لتغييره سواء من المسئولين أو كبار العلماء بالأزهر أو رجال الكنيسة ! !

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ألاحظ فى سلوكنا الاجتماعى ظاهرة « سادية » عجيبة تطفو على سطح معاملاتنا من حين لآخر ، هى ميل البعض منا لالقاء اللوم دائما

على الضحية بأكثر مما قد نفعل أحيانا مع الجانى نفسه ! فمن يتعرض للأذى نبادره بدلا من الأسى له والتعاطف معه ـ باللوم والاتهام بأنه لم يحترس بدرجة كافية مما تعرض له من أذى . . كأنما نستعيض بذلك عما ينبغى لنا أن نتخذه من موقف الادانة للجانى ، أو كأنما لا يكفى الضحية ما أصابها من أذى ، فنضاعفه نحن عليها باللوم الصريح أو الصامت لها ، مع أن هذا اللوم لا يعيد حقا مسلوبا ، ولا يسهم فى عقاب الجانى ، ولا يثمر أى شىء سوى ترسيخ المرارة فى نفس الضحية، وافساد العلاقات الانسانية .

إن الضحية تظل ضحية دائما حتى ولو كانت قد أسهمت بسلوكها غير المتحفظ فى إغراء الآخرين بالتحرش بها ، والجانى يظل جانيا حتى ولو كان قد تلقى بعض الاثارة التى أغوته بارتكاب جريمته من جانب الضحية ، والجريمة نفسها تظل جريمة مستنكرة وبشعة بكل المقاييس مهما أحاط بارتكابها من ظروف ومغريات .

ولا يغير ذلك شيئا من إيماننا الثابت ، بأن المظهر الجاد المحتشم للفتاة هو أفضل حماية لها من عدوان المعتدين ، ولا من إيماننا بصحة ما يقوله الكاتب الأمريكى جيمس روستون ، من أن خطر القنبلة الجنسية فى المجتمعات المفتوحة ، قد يصبح فى النهاية أكبر من خطر القنبلة الذرية، ولا عجب فى ذلك وكتاب الغرب أنفسهم هم الذين يقولون لنا الآن أن هناك علاقة طردية بين اتجاه المجتمعات إلى العرى والاثارة ،

وبين حوادث الاعتداء على الفتيات فى هذه المجتمعات نفسها التى يطلقون العنان فيها للحرية الجنسية ، حتى لقد ذكرت احصائية حديثة أنه تقع الآن فى أمريكا بلد الحرية الجنسية ٢٤٠ حادث اغتصاب كل يوم و ٧٢٠٠ ألف حادث كل شهر ، و٨٦٤٠٠ حادث كل سنة ، ولا تفسير لهذه الأرقام الرهيبة لديهم إلا اطلاق العنان للشهوات بلا رادع من دين أو قيم روحية . . وإلا جو العرى السائد والملابس المتهتكة واثارة الغرائز والخمور والمخدرات !

فهل أدركنا اذن أهمية ضبط الغرائز وردها إلى عقالها بالقيم الدينية والاخلاقية والسلوكيات الاجتماعية المحافظة التى تعين على العفاف وتحفظ الحرمات ؟ لقد اطلق العرب منذ قديم الزمان على الزوجة «حرما» اشارة إلى ما للعرض من قداسة ، وما لصونه وحمايته من حقوق على من يتحمل أمانة المسئولية عنه .

وفى ذلك يا سيدتى فإنى أقول لك إننى اختلف معك فى أمرين ، أولهما هو ما تقولين من أن « كل » الآباء والأمهات يبررون تساهلهم مع بناتهم فيما يرتدين من ملابس مثيرة للغرائز وكاشفة للمفاتن ، بانها «مرحلة » من العمر ولن تطول ثم لا تلبث الفتيات بعدها أن يعدن إلى جادة الالتزام والاحتشام ، وثانيهما انك قد تساهلت مع ابنتك فيما اختارت لنفسها من مظهر غير لائق ، تحسسا من أن تعتبر ذلك «تحكما» فى حياتها بعد رحيل أبيها عن الحياة ، والحق هو أن تقديرك فى كلا

الأمرين لم يكن صائبا ولا حكيما ، فليس كل الآباء والأمهات يتساهلون مع بناتهم فى مرحلة المراهقة انتظارا لبلوغهن سن الرشد والحكمة ، بل إن الأصح هو أنهم قد يتشددون فى رقابتهن والاشراف على سلوكهن فى هذه المرحلة الحرجة من العمر التى تتطلب من الآباء والامهات مضاعفة الاهتمام ببناتهم إلى ان يعبرنها بسلام وبأقل الخسائر النفسية .

كما أن تبريرك للتساهل معها بدعوى التحسس من أن تشكو من انفرادك بالتحكم فى حياتها بعد أبيها ، لا يعفيك للأسف كذلك من المسئولية عن تفريطك فى حمايتها من نفسها قبل حمايتها من الآخرين ، ولسبب بدهى ولا يقبل الجدال ، هو أن حدود الله أولى دائما بالرعاية من أى اعتبارات أخرى ، فنحن حين نؤدى واجبنا تجاه أبنائنا ونصدع بتعاليم السماء فيما تأمرنا به وتنهانا عنه معهم ، فإننا لا ننتظر جوائزنا من هؤلاء الأبناء انفسهم وانما ممن يملك وحده منح الجوائز سبحانه وتعالى ، ولن يغنينا أن يرضى عنا أبناؤنا لتساهلنا معهم فيما حرم الله ، شيئا فى حسابنا مع خالقنا عما فرطنا فيه من نواهى الدين مع من نتحمل عنهم أمانة المسئولية أمام الله والمجتمع والناس . . وليس أمامنا مجال للاختيار بين غضب السماء وبين رضا الأبناء المؤقت عنا . . لأن الاختيار محسوم منذ البداية ، ولأننا لا نبوء غالبا إذا استجدينا رضا الأبناء بالتجاوز عن حدود الله إلا سخط السماء . . ثم سخط هؤلاء الأبناء انفسهم حين يعقلون أمرهم ويدفعون ثمن أخطائهم ويبحثون عمن يلومونه عما

أصابهم من سوء الجزاء فى الدنيا . . فلا يجدون من يلقون عليه تبعة ذلك سوى آبائهم وأمهاتهم الذين ضعفوا عن أن يردوهم عن غيهم فى الوقت المناسب ! ، ولهذا نسمع غالبا من هؤلاء الأبناء تحسرهم بعد فوات الأوان، لأن آباءهم وأمهاتهم لم يردعوهم عن الخطأ - ولو بالقوة - فى الوقت المناسب . .

فإذا كان الأمر كذلك فى كلا الحالين ، فهل يتردد عاقل فى اختيار الالتزام بتعاليم السماء ، حتى ولو لم يرض عن ذلك الأبناء لبعض الوقت أو فى حمأة الطيش وضعف الادراك !

الفهرس

● المقدمة ٧

١ ـ الثمرة المرة ١١

٢ ـ العيوب الخطيرة ٢٥

٣ ـ الإشارة المنتظرة ٣٥

٤ ـ البداية الثانية ٤٩

٥ ـ نزوات الرجال ٥٩

٦ ـ طائر الحرمان ٦٩

٧ ـ نظرة الاستعلاء ٧٧

٨ ـ ميراث الحقد ٨٩

٩ ـ الآثار الجانبية ١٠١

١٠ ـ القصة الشائعة ١١٣

١١ ـ الأماني ١٢٧

١٢ ـ الميراث المعنوى ١٣٥

١٣ ـ الحرب الشعواء ١٤٣

١٤ ـ طعم النجاح ١٤٩

١٥ ـ الابتسامة المتحجرة ١٥٩

١٦ ـ رباط الدم ١٦٥

١٧ ـ الموعد المرتقب ١٧١

١٨ ـ النقطة البيضاء ١٨٩

١٩ ـ السلك المشدود ١٩٩

٢٠ ـ الدماء الساخنة ٢٠٩

٢١ ـ التعلقيات الجارحة ٢١٩

الثمرة المرة

حين يتأمل الإنسان فى ثمرة نضرة جميلة النظر والتكوين، فإنه يتوقع دائمًا أن تكون حلوة المذاق.. ولكنه قد يفاجأ بأنها مُرة شديدة المرارة فينبذها ويحاول أن يتخلص من تلك المرارة التى قد تسبب له بعض الألم.

وفى هذا الكتاب، يعرض لنا الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع بعض قصص الحياة التى صادفته أو عرضها أصحابها عليه طلبًا للحلول والنصائح التى تساعدهم على التخلص من آلام المحن التى أبلتهم بها تجارب الحياة.

وهنا يعرض لنا المؤلف الكبير جانبًا من الفلسفة الإنسانية التى تدور حول معنى الألم وضرورة تحمله حتى يبرأ الإنسان من هذا الألم ويتم له الشفاء .. تمامًا مثلما يجب على الإنسان أن يتحمل آلام جراح الجسد حتى تلتئم وتتلاشى الآلآم بالتدريج إلى أن تزول فى نهاية الأمر.. ويقول المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب : " إن الألم حقيقة إنسانية من حقائق الحياة، ولا سبيل أمامنا لإنكار هذه الحقيقة أو رفضها.." ويجب أن ندرب أنفسنا على ترويض هذا الألم وسجنه فى قفص من الصبر والفهم وقوة الإرادة والتحمل إلى أن يزول ويتلاشى وينصرف عنا بسلام ونستعيد عافيتنا منه بإذن الله.



* عبد الوهاب مطاوع 1940ـ2004

* شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

* كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

* صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.

* صدرت له مجموعات قصصية عديدة، منها: (أماكن فى القلب) ، (والحب فوق البلاط).



الدار المصرية اللبنانية

